
الصفوة
في
حياة خيار النسوة
تأليف
خالد عبد العليم
الجزء الثاني
المكتبة السلفية
القاهرة




الصفوة
في
حياة خيار النسوة



خالد عبد العليم

الصفوة في حياة خيار النسوة

الجزء الثاني

المكتبة السلفية
القاهرة

الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م
رقم الإيداع: ٩٩/٣١٨٤

المكتبة السلفية بمصر
تأسست ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م
طباعة - نشر - توزيع
القاهرة: ميدان عمان - الدقي - الجيزة
هاتف / فاكس : ٣٦١٠٧٧٢ - ٣٣٧٣٦٠٥

البـــاب الرابـــع

حياة الخيرات من التابعيات ومن بعدهن



فصــل

مليكة بنت المنكدر

اشتهر التابعين من الرجال والنساء بكثرة الاجتهاد في العبادة، ودخلوا ميادين السبق في العلم والفقه والرواية، وكانوا يتنافسون في الطاعة والمجاهدة والتضحية، حتى بلغ بعضهم شأناً عظيماً تحدثت به الأجيال وتناقلته الأخبار عن القرون والأزمان، وسجله التاريخ في صحائفه بحروف من نور.

وكانت «مليكة بنت المنكدر» رحمها الله من عابدات المدينة المشهورات، وكانت حريصة على وقتها لا تضيعه في غير فائدة ومنفعة، وكانت بصيرة بزمنها لا تسمح بمروره دون إحراز عمل صالح تثقل به موازينها يوم الحساب، وهذه كانت عادة السلف جميعاً في حرصهم على الساعات والأوقات حتى لا تضيع هباءاً منثوراً أو تَمُرَّ في غير ثمرة ومصلحة.

قال مالك بن دينار: بينما أنا أطوف بالبيت إذا أنا بامرأة جهيرة في الحجر وهي تقول: «أتيتك من شقة بعيدة، مؤملة لمعروفك، فأنلني معروفاً من معروفك تغنيني به عن معروف من سواك»

ثم لقي مالك بن دينار فقيه أهل البصرة أخاه أبا أيوب السختياني وكان سيد الفقهاء والعلماء في زمانه، قال: فسألنا عن منزلها وقصدناها وسلمنا عليها فقال لها أيوب: قولي خيراً يرحمك الله، قالت: وما أقول؟؟ أشكو إلى الله قلبي وهواي فقد أضَرَّا بي وشغلاني عن عبادة ربي، قوما فإني أبادر طيَّ صحيفتي!!

قال أيوب السختياني : فما حدثت نفسى بامرأة قبلها، فقلت لها : لو تزوجت رجلاً كان يعينك على ما أنت عليه، قالت : لو كان مالك بن دينار أو أيوب السختياني ما أردته!! فقلت : أنا مالك بن دينار وهذا أيوب السختياني، فقالت : أف، لقد ظننت أن يشغلكما ذكر الله عن محادثة النساء، وأقبلت على صلاتها، فسألنا عنها فقالوا : هذه مليكة بنت المنكدر.

هنا تتجلى بصيرة المؤمنة فى اختيار الدعاء، فهى لم تطلب إلى ربها كثرة الحلى والزينة والجواهر واللآلئ، ولم تطلب لذة عاجلة وشهوة دنيوية فانية، ولكن ما هَمُّها عند الرجاء والدعاء؟؟ لقد خرجت من اختيارها إلى اختيار الله لها ، ومن مرادها إلى مراد الله بها ، فطلبت فى الدعاء أن ينالها الله بمعروف من معروفه، والله هو وحده أعلم بما يصلح العبد مما يفسده، ويرى عاقبة الأمور الغيبية مما يخفى على العبد معرفته والإحاطة به.

وهذا المعروف الذى يصيبها من ربها يقطع رجاءها عن جميع المخلوقين ويحصل به الاستغناء عن معروف أى أحد من الناس المحاويج، وفى هذا تمام اليقين وكمال التعلق به وحسن الثقة به سبحانه.

وهكذا المؤمنة حينما ترفع يديها بالدعاء تنظر فى طلبها ورجائها وحاجتها، وليكن لها قدوة فى «مليكة بنت المنكدر» حينما تجردت من كل رغبة وغرض اللهم سوى ما يرضاه الله لها ويعلم ما فيه صلاحها وفلاحها ونجاحها وفوزها فى الدنيا والآخرة..

إن إيمان العبد لا يكتمل حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به النبى ﷺ، فتصبح أشواقه وعواطفه ورغباته كلها موافقة للسنة، وهذه «مليكة» حينما عُرض عليها الزواج ما كانت نفسها تطمح إلى رجل ذى جاه أو مال أو سلطان، بل قالت لو تقدم لها رجال من صالحى قومها وزهاد عصرها وخيرة أهل زمانها ما أرادت، وقد ذكرت ذلك لمالك بن دينار وأيوب السختيانى

وهي لا تعرفهما، فأيُّ شغل كان يستغرق جميع أوقاتها؟ وأى هَمٍّ كان يملأ فؤادها وكيانها؟ وأى جهد كانت تتلذذ به وتستأنس بقيامها عليه؟

إن هموم كثير من النساء في كل عصر وزمان تكاد تتعلق بالزواج ثم بالأولاد والأسرة والعائلة والعشيرة، وهذا كله محمود غير مذموم إذا كانت تصحبه نية صالحة وهمة طيبة عالية، و لكن أن تكون هموم المرأة وشغلها الشاغل الذى يتملك مشاعرها وكيانها هو الذكر والطاعة والإقبال على الله، فذلك هو الأمر الذى تتصاغر أمامه همم أهل الدنيا ممن يضيعون أوقاتهم في اللهو والضياع، ويجدون لذتهم في شهوة البطون والفروج.

وحينما شعر أهل زمانها بكثرة اجتهادها، وشدة انكبابها على الصيام والقيام والعبادة، فأرادوا أن يسدوا إليها نصيحة بالتخفيف مما هي فيه، وذلك ظناً منهم أن ذلك شفقة عليها ورحمة بها، فماذا كان جوابها؟ إنه جواب من رأى نعيم الآخرة بعيون قلبه، فأراد أن يشمر عن ساعد الجد ليلحق بأعلى المنازل ويتذوق لذة القرب من الله العلى الجليل: عن أبى خالد البراد قال: كلمنا ابنة المنكدر فى تخفيف بعض العبادة، فقالت: «دعونى أبادر طَيَّ صحيفتى».

إنها تشعر بقرب الأجل ودنوِّ الموت، فتريد المسارعة إلى مَلْء الصحائف بالأعمال الصالحة وذلك قبل فوات الفرصة وطى الصحف، ونفاد العمر. إن المبادرة إلى الصالحات من علامات الإيمان بيوم الحساب، فمن أيقن أنه بعد الموت حساب بلا عمل، وبعد الحساب يكون الفصل والجزاء، إما إلى نعيم مقيم أو عذاب أليم، فإنه حتماً سيبادر إلى ما ينفعه بعد موته وسيعرض عما لا يفيده عند الحساب أمام ربه، ولذلك قال ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1].

---

(١) رواه الترمذى عن أبى يعلى شداد بن أوس وقال حديث حسن.

لقد بلغت «مليكة بنت المنكدر» - رحمها الله - مبلغاً راقياً وغاية عالية ومستوى فريداً من المجاهدة فى القيام والتهجد والدعاء والضراعة حتى أشفق عليها الصالحون من الرجال، فهذا معناه أنها وصلت إلى حدٍ لم يبلغه غيرها من العُبَّاد والزُهَّاد إلا النادر القليل. فمتى كانت تنام مليكة؟ وما أشواقها وأمانيها؟ وكيف كانت تملأ صحائفها فى اليوم والليلة؟ وما نصيحتها لأئمة زمانها من أهل الورع والتقوى كمالك بن دينار وأيوب السختيانى؟ نعم. إنها خلف صالح لسلف صالح، والصادقون مع الله طريقهم واحد لا يتعدد ولا يختلف.

* * *

فصل

جوهرة العابدة البراثية

كانت بغداد تغص بالأولياء والعُباد الذين كان لهم باع كبير في العبادة والمجاهدة. والبيئة الصالحة من أكبر أسباب الحفاظة من الغفلة حيث يجد المرء نفسه مُحاطاً بذوي الهمم العالية في الإقبال على الله، فيجد في نفسه الرغبة في المحاكاة والتشبه ليحظى بمكانة طيبة بين هؤلاء الأطهار الأخيار.

وهذه «جوهرة العابدة البراثية»(١) نزلت مع زوجها أبي عبد الله البراثي قرية براث وأقامت بها واشتهرت بالعبادة والطاعة. قال حكيم بن جعفر: كانت جوهرة امرأة أبي عبد الله البراثي جارية لبعض الملوك فعتقت، فخلعت الدنيا ولزمت أبا عبد الله البراثي، فتزوج بها وتعبَّدت. إن الذي ذاق طعم الرق تتوق نفسه إلى أن يتذوق طعم الحرية، وبعد أن كان خادماً فيحب أن يكون مخدوماً، وبعدما كان أسيراً في مأكله وملبسه ومسكنه يريد أن يكون طليقا في ذلك كله حتى يُعوِّض نفسه ما فاته من حظوظ دنياه، نعم. هذا فهم عشاق الدنيا وطلاب الشهوات، أما خيرة أولياء الله فإنهم يجدون فرصة الحرية من الرق غنيمة للتفرغ لعبادة المحبوب الأوحد، ويرون الانطلاق من أسر خدمة المخلوق هبة من الله لهم حتى ينشغلوا بخدمة الخالق.

فهذه الحرية ليست مبرراً لانطلاق النفس إلى شهواتها وملذاتها، وإنما هي معراج يصلون به إلى درجات القرب والكرامة التي حال الرق بينهم وبين الوصول إليها، وهكذا فعلت «جوهرة العابدة» حينما مَنَّ الله عليها بالعتق من الرق، فصارت بعبادتها وصلاحها من ملوك الآخرة الذين وصلوا إلى

---

(١) البراثية: نسبة إلى براث وهي اسم قرية من القرى.

أرقى درجات الطهر والنقاء.

إن خشية الله حينما تتمكن من القلب فإن المؤمن يخشى فوات حظه من النعيم في الآخرة بسبب تفريطه في حق الله في هذه الدنيا، وهذا ما كان يخيف الفاروق عمر رضي الله عنه حينما رأى زهرة الدنيا تفتح عليه فكان يأخذ نفسه بالزهد والشدة خشية أن يُقال له يوم القيامة: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا. وهكذا أيضاً كانت جوهرة العابدة رحمها الله خائفة وجلة تخشى فوات النعيم الباقي هناك إذا هي أفرطت في النعيم الفاني بهذه الدار الدنيا.

قال أبو عبد الله البراثي زوج جوهرة العابدة: قالت لي جوهرة يوماً: يا أبا عبد الله النساء يحلين في الجنة إذا دخلنها؟ قلن: نعم. قال: فصاحت صيحة غُشي عليها. فلما أفاقت قلت: ما هذا الذي أصابك؟ قالت: ذكرت حالي تلك وما كنت قد نلت من الدنيا فخشيت والله حرمان الآخرة.

ويا ترى ما الذي يظنه الإنسان قد نالته جوهرة من دنياها؟؟ ويا تُرى ما مقدار هذا النعيم الذي تؤنب نفسها عليه وتعاتبها فيه؟؟ إنه بالمقارنة إلى لذات المترفين لا يكادُ يذكر أو يوضع في ميزان..

ومن صفات الزوجة الصالحة أنها تكون عوناً لزوجها على أمر دينه ودنياه، وهكذا كانت جوهرة العابدة تشحذ همة زوجها ليأخذ مكانه بين المتهجدين والمتعبدين في هدأة الليل بين يدي الله، وكانت تذكره أنهما في ميدان سباق ولا بد من اللحوق بقافلة المؤمنين الصالحين وإلا فاتتهم الصحبة وضَلَّت خطاهم عن طريق الحق والصواب.

قال أبو عبد الله البراثي: كانت «جوهرة» تنبهني من الليل وتقول: يا أبا عبد الله قد سارت القافلة. وهذا معنى عميق أشارت إليه «جوهرة» بهذه العبارة البليغة، وكل لبيب بالإشارة يفهمُ، وذلك يدل على حكمة واعية في

إسداء النصيحة لزوجها الذى تحبه، فلم تنهره ولم تعاتبه ولم تُعَيِّره بنومه فى الليل ولم تتكبر عليه وتتطاول بقيامها بالليل بينما هو نائم، ولكنها تلطفت فى الدعوة وترفقت فى النصح والتوجيه، حتى تستثير فيه الطاقة الكامنة دون جرحه أو إشعاره بالتقصير والكسل.

ولا بد أن «جوهرة» قد ذاقت طعم التهجد بالليل، ووجدت فى خلوتها بربها لذة عظيمة أرادت أن يشاركها فيها زوجها حتى لا تستأثر بها وحدها، فمن كمال الإيمان أن يحب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، وها هو زوجها أبو عبد الله البراثى يذكر من كراماتها منقبة عظيمة حينما أراها الله فى منامها رؤية صالحة كانت حافزاً لها على التشمير فى الطاعة والقيام.

قال أبو عبد الله البراثى: رأت جوهرة فى منامها خياماً مضروبة فقالت لمن ضربت هذه الخيام؟ فقيل: للمتهجدين بالقرآن. فكانت بعد ذلك لا تنام».

وحينما تفرغ القلوب من حب الدنيا فإنه حينئذ يشغلها نعيم الآخرة ولا تنجذب إلى زينة براقة أو زخارف لامعة، والمرأة إذا لم يكن لديها إيمان يعصمها من الشطط والزلل فإنها تدخل ميدان التنافس فى الزينة والمتاع الذى لا يدل على كرامة أو فضيلة. وإذا كنا نرى بعض النساء لهن رغبة جامحة فى الازدياد من أثاث البيت فهذه «جوهرة» تريد أن تتخفف من أثاث بيتها وترى كثرته فتنة ومشغلة للوقت وزينة لا ضرورة لها. قال حكيم بن جعفر: كنا نأتى أبا عبد الله البراثى وكانت له امرأة متعبدة يقال لها جوهرة، وكان أبو عبد الله يجلس على جلِّة خوصٍ بحرانية، وجوهرة جالسة حذاءه على جلة أخرى مستقبلة القبلة فى بيت واحد. قال: فأتيناه يوماً وهو جالس على الأرض ليست الجلة تحته. فقلنا يا أبا عبد الله ما فعلت بالجلة التى كنت تقعد عليها؟ قال: إن جوهرة أيقظتنى البارحة فقالت: أليس يقال فى الحديث: إن الأرض تقول لابن آدم: تجعل بينى وبينك ستْراً

وأنت غداً في بطني؟ قال: قلت: نعم. قالت: فأخرج هذه الجلال لا حاجة لنا فيها. فقمت والله فأخرجتها. حقاً إنها جوهرة غالية ودرة ثمينة وقرة عين لزوجها وأولادها، فهذه الجوهرة لم ترهق زوجها بكثرة المطالب والرغبة في التوسع في المطاعم والمشارب والملابس والأثاث، بل إنها ترغب في التخفف مما هو موجود، ألا ياليت نساءنا يلتقطون هذه الجوهرة من «جوهرة العابدة» رحمها الله...

* * *

فصل

أخوات بشر الحافى

حينما يبلغ العبد درجة الورع فإنه يترك بعض المباح خشية الوقوع فى الحرام، وهذا ما أشار إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما قال: تركنا تسعة أعشار الحلال خشية الوقوع فى حرام واحد.

وبيت «بشر الحافى» رحمه الله كان بيتاً مشهوراً بين السلف الصالح بأنه بيت الورع والزهد ومراقبة الله، ولم تكن هذه الصفات مقصورة على الرجال دون النساء، بل إن النساء كان لهن حظ وافر من ذلك الورع حتى أصبحن فيه مضرب المثل من شدة المحاسبة للنفس والمراقبة لها.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يتعجب من ورع أهل ذلك البيت رغم أنه إمام أهل زمانه فى التقوى والورع، و قد كانت أخوات بشر الحافى يأتين إليه للسؤال عما يحل لهن ومالا يحل، فكان يعجب من أسئلتهن التى تدل على شدة ورعهن وخوفهن من ربهن، وخشيتهن من دقة الحساب يوم العرض أمام الله.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كنت مع أبى يوماً من الأيام فى المنزل فَدَّق دَاقٌّ الباب فقال لى: اخرج فانظر من بالباب؟ فخرجت فإذا امرأة، فقالت لى: استأذن لى على أبى عبد الله، قال: فاستأذنته. قال: أدخلها.

قال: فدخلت فسلمت عليه وقالت له: يا أبا عبد الله أنا امرأة أغزل بالليل فى السراج فربما طفئ السراج فأغزل فى القمر[1]، فعلىَّ أن أبيِّن غزل القمر من غزل السراج؟ قال: فقال لها: إن كان عندك بينهما فرق فعليك أن تبيِّنى ذلك. قال: قالت: يا أبا عبد الله أنين المريض شكوى؟ قال: أرجو

(١) أى أغزل فى ضوء القمر حينما ينطفىء السراج.

ألا يكون، ولكنه اشتكاء إلى الله عز وجل.

قال: فودعته وخرجت. فقال: يا بنيّ ما سمعت قط إنساناً يسأل عن مثل هذا. اتبع هذه المرأة فانظر أين تدخل؟ قال: فاتَّبعتها فإذا هي قد دخلت بيت بشر بن الحارث وإذا هي أخته. قال: فرجعت فقلت له، فقال: مُحال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر.

إلى هذا الحد بلغ ورع هذه المرأة حتى لا تدخل جوفها ذرة من مال حرام، وذلك أن الغزل فى ضوء السراج ربما يكون أصلح وأتقَن من الغزل فى ضوء القمر، حيث إنَّ الإضاءة من السراج تكون أشد وأكثر عونًا على الإتقان وإحسان الصنعة، بينما الإضاءة الخافتة والضوء الضعيف لا يعين على القيام بالغزل فى صورة حسنة متقنة، فأدركت بنور إيمانها وشدة ورعها وتقواها أنه ينبغى ألا تخلط بين هذا الغزل وذاك إلا أن تسأل أولاً عن جواز خلط هذين الغزلين!! ولذلك تعجب الإمام أحمد من هذا السؤال الذى لا يخرج إلا من قلب طاهر نقى لا يريد شبهة أو ريبة فضلاً عن مكروه أو حرام، ولكنه خرج من حيرته وأجابها إن استطاعت أن تميز هذا من ذاك فبها ونعمت، وإن لم تستطع التمييز بين الغزلين -أى كلاهما على درجة واحدة من الإتقان وحسن الصنعة- فلا حرج عليها ولا غبار على كسبها وربحها.

وهل يترك إمام الورعين هذه الجوهرة الثمينة وتلك الدرة الغالية دون أن يعرف أى بيت خرجت؟! لقد أرسل فى إثرها ولده عبد الله، وحينما علم أنها أخت بشر الحافى، زال عجبه وتبددت دهشته وذهب عنه حيرته، وقال: مُحال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر!!

قال أبن الجوزى -رحمه الله- فى كتابه «صفة الصفوة»: هذه المرأة التى سألت أحمد هى «مُخَّة» وقد نقلت عنها حكاية سُمَيت فيها تشبه هذه الحكاية ثم ذكر تلك القصة فقال:

حدّثَ عبد الله بن أحمد بن حنبل ببغداد قال: جاءت «مُخَّة» أخت بشر بن الحارث إلى أبى فقالت: إنى امرأة رأس مالى دانقان، أشترى القطن فأغزله وأبيعه بنصف درهم، فأتقوّت بدانق من الجمعة، فمَّر ابن طاهر الطائف ومعه مشعل، فوقف يكلِّم أصحاب المَسالح[1] فاستغنمت ضوء المشعل فغزلت طاقات، ثم غاب عنى المشعل، فعلمت أن لله فىّ مطالبة، فخلِّصنى خلَّصك الله؟ فقال لها: تخرجين الدانقين ثم تبقين بلا رأس مال حتى يعوِّضك الله خيراً منه.

قال عبد الله: قلت لأبى: يا أبت لو قلت لها لو أخرجت الغزل الذى أدرجت فيه الطاقات؟ فقال: يا بنى سؤالها لا يحتمل هذا التأويل. ثم قال: من هذه؟ قلت: مُخَّة أخت بشر بن الحارث. فقال: من ها هنا أُتِيت».

إن عبد الله يريد من أبيه أن يفتيها برأى يهوِّن عليها الأمر، حيث تتصدق بالغزل الذى غزلته فى ضوء المشعل فقط، بينما الباقى من رأس مالها فهو برئ من هذه الشبهة -إن كانت فى حقيقتها شبهة- وهكذا تكون قد أخرجت ما انتفعت به من ضوء مشعل ابن طاهر!! والأمر كله لا يحتمل كل هذا الخوف وتلك الحساسية، فالرجل يمشى فى الطريق بمشعله ولا حرج على من انتفع بهذا الضوء، ولكن الإمام الورع أحمد بن حنبل يدرك بنور بصيرته أنه أمام امرأة من طراز عجيب ومؤمنة من نوع فريد، وأن درجتها فى الزهد والورع لا تحتمل إجابة لسؤالها غير تلك التى أخبرها بها، ألا ما أروع هذا الورع، وما أعظم هذه الدرجةِ من رقابة النفس التى ربى الإسلام عليها بنيه حتى صاروا مضرب الأمثال فى الفضائل والمكارم كلها.

وقد أوردها أبو نعيم فى الحلية بلفظ آخر وهو: قالت أخت بشر وقصدت أحمد بن حنبل: إنا قوم نغزل بالليل ومعاشنا منه، وربما يمر بنا مشاعل بنى

(١) هذه المشاعل كان يمر بها فى الطرقات مَنْ يقومون بحراسة المتاجر والبيوت من اللصوص كما يُشاهد فى زماننا من جنود الدوريات الليلية.

طاهر من ولاة بغداد ونحن على السطح فنغزل فى ضوئها الطاقة والطاقتين، أفتحله لنا أم تحرمه؟ فقال لها: من أنت؟ قالت: أخت بشر، فقال: آه يا آل بشر لا عدمتكم، لا أزال أسمع الورع الصافى من قلوبكم».

وثمرة هذا الورع صفاء القلب من الشوائب والعلائق، ثم تصدق به رؤيا العبد فى منامه فيرى حقاً وصدقاً، وأصدق الناس حديثاً أصدقهم رؤيا، وقد أورد أبو نعيم هذا الخبر الذى يدل على جلاء مرآة القلب حتى يرى صاحبه فى رؤاه من الحق ما يدل على صدقه مع ربه:

قال محمد بن الهيثم: كنت أدخل على أخت بشر فى صغَرى فأعطتنى يوماً كبة من غزل فقالت: بع هذه الكبة واشتر خبزاً وسمكاً ففعلت، فدخل بشر والخبز والسمك موضوع، فقال بشر: ما هذا الطعام؟ قالت: رأيت أمى وأمك فى المنام فقالت: إن أردت فرحى وإدخالك السرور علىَّ فبيعى من غزلك واشترى خبزاً وسمكاً فإن أخاك بشراً يشتهيها!! قالت: فلما ذكرت أمى وأمه بكى، وقال: رحمها الله تغتم لى حية وميتة..

وكانت أخوات بشر من أكبر أعوان الخير له على لزوم طريق الحق والاستقامة على جادة الصواب ، وكانت أخت لبشر تسمى «مُضغة» وهى أكبر منه وماتت قبله، ولما ماتت توجّع عليها بشر توجعاً شديداً وبكى بكاءً كثيراً، فقيل له فى ذلك فقال: قرأت فى بعض الكتب أن العبد إذا قصَّر فى خدمة ربه سلبه أنيسه، وهذه كانت أنيستى من الدنيا. وقال أبو عبد الله بن يوسف الجوهرى: سمعت بشر بن الحارث يوم ماتت أخته يقول: إن العبد إذا قصَّر فى طاعة الله عز وجل سلبه من يؤنسه.

إن بكاء بشر لم يكن على لوعة الفراق ولا شدة الحزن على فقد محبوب فقط، وإنما كان البكاء لفقد الأنيس المعين على طاعة الله، واعتبر هذا تقصيراً منه فى طاعة ربه، رغم أن الأجل مكتوب مُقدَّر ولا يتعلق بذنب أحد ولا خطيئته، ولكن هكذا دوماً نفس المؤمن تراها لوَّامة تلوم صاحبها

وتحاسبه على الصغيرة والكبيرة حتى لو رأى أحوالاً سيئة تحيط بالناس فيقول هذا بسببى وبذنوبى وبتقصيرى فى حق ربى!!.

وأخوات بشر رغم ما أشتهرن به من ورع شديد وزهد بالغ، كُن على درجة عالية من العبادة والطاعة والمجاهدة، وإلا فمن أين تأتى هذه الصفات الطيبة إن لم تكن ثمرة لعبادة صحيحة ومجاهدة صادقة؟ قال أبو عبد الله القحطبي: كان لبشر أخت صوامة قوامة.

وقال السلمي: قالت «زُبْدة» أخت بشر: أثقل شيء على العبد الذنوب، وأخفّه عليه التوبة، فماله لايدفع أثقل شيء بأخف شيء؟

هذا هو فهم أهل الورع والتقوى فى دين الله، حتى صارت كلماتهم حكَماً تتعلمها الأجيال على مدى الزمان. وقد كانت أخوات بشر مشهورات فى زمانهن بين العُبّاد والصالحين بالصفات الراقية التى ترفعهن إلى مَصافِّ الأولياء الأتقياء، ولعل أسئلتهن تدل على مدى الورع الذى اتصفن به. قال أبو على الراذانى: كانت «مُخة» من بين أخوات بشر تقصد أحمد بن حنبل وتسأله عن الورع والتقشف، وكان أحمد يعجب بمسائلها. والحقيقة أن الأمة كلها لتعجب من هذا الورع الذى يكاد لا يُرى له مثيل فى أى عصر وأى زمان!!

* * *

فصل

معاذة العدوية

يقظة القلب يتبعها همة في البدن ونشاطًا للجوارح في العبادة، فمن علم أن الموت يطلبه، والحساب ينتظره، والديان حيٌّ لا يموت، فإنه لن يطلق لنفسه عنان الشهوات، ولكنه سيكبح جماح الهوى ويأخذ بناصية نفسه إلى بر الأمان، وسيجعل من أنفاسه في الدنيا رصيداً طيباً يتمتع به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

لقد كانت معاذة بنت عبد الله العدوية من عابدات البصرة، وقد كانت تحيي الليل كله بالقيام والدعاء، وكان الخوف المتمكن من قلبها يجعلها في حذر دائم تنتظر معه الموت في أية لحظة. قال محمد بن فضيل عن أبيه قال: كانت معاذة العدوية إذاجاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تُمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها فلا تنام حتى تصبح، وإذا جاء البرد لبست الثياب الرّقاق حتى يمنعها البرد من النوم.

إن هذا التصرف من معاذة -رحمها الله- يترجم الحديث الذي ينص على أن العبد إذا أصبح فلا ينتظر المساء وإذا أمسى فلا ينتظر الصباح، فلعل لحظاته التي يعيشها هي آخر عهده بالدنيا، و إذا خرج من الحياة فلا يعود إليها بعد ذلك أبداً ليعمل صالحاً. ولذلك قال الحكم بن سنان الباهلي: حدثتني امراة كانت تخدم معاذة العدوية قالت: كانت تُحيي الليل صلاة فإذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول: يانفس، النوم أمامك لو قدمت لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور. قالت: فهي كذلك حتى تصبح.

إن المبالغة في وصف أحوال التابعين ينبغي أن يُفهم على أن هذا هو الحال

الغالب عليهم، فعدم النوم ليلاً ونهاراً أمر مُحال فى حق البشر، ولكنها لكثرة الجهد والعبادة فى ليلها ونهارها يكاد يغلب عليها الوصف بالمجاهدة فى جميع الأوقات حتى يظن الناس أنها لا تنام، وكذلك لبس الثياب الرقاق فى البرد حالٌ خاص يربى به الإنسان نفسه حتى ترتاض على الطاعة وتعتاد على الاستقامة والمداومة على الخيرات، وإلا فمن لبس الثياب التى تدفؤهُ قام من الليل بين يدى ربه فلا حرج عليه فالعبرة كلها بالجهد والطاعة ولا غرض للشارع الحكيم فى تعذيب النفس والعنت بها والتضييق عليها..

قال عبد الرحمن بن عمرو الباهلى: وحدثتنا دلال ابنة أبى المدل قالت: حدثتنى آسية بنت عمرو العدوية قالت: كانت معاذة العدوية تصلى فى كل يوم وليلة ستمائة ركعة وتقرأ جزءها من الليل تقوم به. وكانت تقول: عجبت لعين تنام وقد عرفت طول الرقاد فى ظلم القبور.

وكانت معاذة -رحمها الله- تُكنى بـ «أم الصبهاء» وكان بيتها بيت تقوى ودين وورع، فكان زوجها وولدها كذلك من المجتهدين والمجاهدين فى سبيل الله. قال أبو السوَّار العدوى: بنو عدى أشد أهل هذه البلدة اجتهاداً، هذا أبو الصهباء -يقصد زوج معاذة العدوية- لا ينام ليله ولا يُفطر نهاره، وهذه امرأته معاذة ابنة عبد الله لم ترفع رأسها إلى السماء أربعين عاماً.

هذه هى بيوت الصالحين الأطهار، فلا مكان للغو واللهو فى بيوتهم، ولا وقت عندهم يضيع فى غفلة أو فراغ، ولذلك أصبحت بيوتهم كالقلاع الحصينة التى يصعب على الشياطين اقتحامها، فأصحاب البيوت أيقاظ منتبهون، واللصوص لا يسرقون أهل بيت إلا إذا كانوا نائمين غافلين، فكيف يسرق الشيطان جواهر القلوب وأصحابها فى حصون متينة وهم فوق ذلك أيقاظ لا ينامون ؟؟!!.

وكانت معاذة -رحمها الله- حكيمة فى مواعظها، بليغة فى إسداء نُصحها. فقد روى زهير السلولى عن رجل من بنى عدى عن امرأة منهم

أرضعتها معاذة قالت: لى معاذة: يا بنية كونى من لقاء الله عز وجل على حذر ورجاء، وإنى رأيت الراجى له محقوقًا بحسن الزلفى لديه يوم يلقاه، ورأيت الخائف له مؤملاً للأمان يوم يقوم الناس لرب العالمين، ثم بكت حتى غلبها البكاء.

رحم الله معاذة فقد كانت فقيهة فى دينها، وعلمت أن الإيمان يزيد بين الرجاء والخوف، فكلاهما مرتبة عظيمة، وعليهما يترقى العبد مع ربه إلى أعلى المنازل والدرجات.

*** لا عزاء فى الشهداء:**

إن روح الجهاد والتضحية، وحب الشهادة فى سبيل الله والفداء من أجل دينه، كانت هى التى تسرى فى جسد الأمة فى خير قرونها الثلاثة الأولى.

وحينما أخذت أم الصهباء «معاذة العدوية» وزوجها أبو الصهباء وولدهما حظهم من الذكر والطاعة والعبادة، فليس هذا معناه ترك الجهد وبذل النفس والنفيس إذا دعى داعى الله إلى التضحية والبذل والفداء، فما إن يسمعوا النداء حتى يكونوا فى أوائل الصفوف بين المجاهدين المخلصين، كيف لا، وهم فى أوائل صفوف المتهجدين بالليل القائمين بين يدى الله سُجَّداً وبُكياً، وهل يُنصر المسلمون فى كل زمان ومكان إلا بهؤلاء القوَّام الصوَّام الذين يستمطرون رحمة الله ويستجلبون معيته ومدده ونصره بدعائهم وبكائهم وتضرعهم بين يديه.

قال رجل من قوم صلة بن أشيم -زوج معاذة العدوية- : يا أبا الصهباء إنى رأيت أنى أُعطيت شهادة، وأُعطيت أنت شهادتين، فقال له صُلَّة: خيراً رأيت، تستشهد وأستشهد أنا وابنى.

قال: فلما كان يوم يزيد بن زياد، لقيهم الترك بسجستان فكان أول

جيش انهزم من المسلمين ذلك الجيش(١). فقال صلة بن أشيم لابنه: يابني إلى أمك، فقال يا أبت أتريد الخير لنفسك وتأمرني بالرجعة ؟ أنت والله كنت خيراً لأمي مني.

قال: أما إذ قلت هذا فتقدم حتى أحتسبك، قال: فتقدم فقاتل حتى أُصيب، فرمى صلة عن جسده وكان رجلاً رامياً حتى تفرقوا عنه وأقبل يمشي حتى قام عليه فدعا له ثم قاتل حتى قتل.

وحينما جاء خبر استشهاد الوالد وولده اجتمعت النسوة عند معاذة العدوية للعزاء وإبلاغها بنعي زوجها وولدها، فقالت لهن: إن كنتن جئتن لتهنئتنا بما أكرمنا الله به فمرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن».

إن معاذة لم تقبل عزاء في شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فقد استقبلت خبر الشهادة بالشكر والحمد والثناء الحسن الجميل، فهذا تكريم من الله لأهل ذلك البيت، والتكريم والعطاء يستحق التهنئة وليس العزاء والمواساة!!

نعم. هذا فهم سلف الأمة الصالح لأقدار الحياة وتصاريف القضاء والقدر، ولا يمكن بلوغ هذه المعرفة العميقة وذلك العلم والبصيرة إلا بقلب تقي نقي يسطع فيه نور الإيمان واليقين، وهكذا كانت أم الصهباء- رحمها الله.

وعند احتدام القتال نرى المنافسة بين الأب وولده على الشهادة وتقديم الروح فداءً لهذا الدين، فليس هناك حرص على حياة رخيصة بأي ثمن، وإنما هناك الاستماتة في الدفاع عن العقيدة وصيانة الحرمات وفتح جميع السدود والحدود أمام أنوار هذا الدين المبارك، ولا يبالي أحدهما بما أصابه في دنياه من نقص من أجل دينه، فالدين أغلى لديهم من التراب والحطام

(١) فالحرب كانت جولات وليس جولة واحدة، فالهزيمة لحقت بالجيش في الجولة الأولى من القتال، ولكن الله نصرهم في نهاية الأمر بعد ما وضعت الحرب أوزارها.

والطين. فلو كان هناك فى القلوب خوف وهلع وجزع لهرب أحدهما إلى البيت ولاكتفى بما يقدمه الآخر من جهد وتضحية، ولرجع أحدهما للبيت يقوم على شئونه وخدمته حتى لا يتركوا المرأة وحيدة بلا أنيس ولا جليس، ولكن ما كانت هذه هموم الأتقياء أصحاب البصيرة، فهم يعلمون علم اليقين أنهم حينما يقدمون أرواحهم فداء لدين الله، فالله لن يضيعهم ولن يضيع مَن وراءهم من النساء والذرية، فالله لهؤلاء خير جليس وخير أنيس، فهو سبحانه خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين.

وبعد ما جاء النعى لهذين الشهيدين، لم تترك معاذة محرابها وتستسلم لأحزانها وذكرياتها، بل ضاعفت جهدها ودأبها فى العبادة لعلها تلحق بهما فى أعلى جنة الخلد. قال الحسن: إن معاذة لم توسد فراشاً بعد أبى الصهباء حتى ماتت.

وقال عمران بن خالد: حدثتنى أم الأسود بنت زيد العدوية وكانت معاذة قد أرضعتها قالت: قالت لى معاذة لما قُتل أبو الصهباء وقُتل ولدها: والله يا بنية ما محبتى للبقاء فى الدنيا للذيذ عيش ولا لرَوْح نسيم، ولكن والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربى عز وجل بالوسائل(١) لعله يجمع بينى وبين أبى الصهباء وولده فى الجنة».

هذا مراد أهل الإيمان من حب البقاء فى الدنيا، فلا رغبة فى تلذذ بمتاع فانٍ ولا لذة عاجلة، وإنما يتخذون من الأيام والليالى معارج يعرجون عليها بالأعمال الصالحة إلى أعلى عليين، وسبحان من أودع فى كل قلب ما أشغله.

ولقد ظلت معاذة -رحمها الله- على العهد من لزوم المحراب والعكوف على الطاعة والمثابرة على الصيام والقيام حتى جاءها الموت وهى صوَّامة قوَّامة عابدة زاهدة تقية.

(١) تعنى صنوف الطاعات والأعمال الصالحة فهى وسائل لمرضاة الله تعالى ونَيْل رضاه.

قال رَوْح بن سلمة الوراق: سمعت عفيرة العابدة تقول: بلغني أن معاذة العدوية لما احتضرها الموت بكت ثم ضحكت، فقيل لها مِمَّ بكيت ثم ضحكت فممَّ البكاء ومِمَّ الضحك ؟؟.

قالت: أما البكاء الذى رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك، وأما الذى رأيتم من تبسمي وضحكي فإني نظرت إلى أبي الصهباء قد أقبل فى صحن الدار وعليه حُلَّتان خضراوان وهو فى نَفَر والله ما رأيت لهم فى الدنيا شبهاً، فضحكت إليه ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضاً.

قال: فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة..

قبل خروج الروح تأتى البشرى للعبد المؤمن بالخير والرحمة والرضوان، وينكشف لهم من الغيب قبل صعود الروح إلى بارئها ما لا يراه الناظرون حول المحتضر، وهذه البشرى التى رأتها لزوجها جعلتها فى قمة النشوة والفرح، فالمرأة المؤمنة تلحق بزوجها فى الجنة إذا ماتت على الإيمان واليقين، وهؤلاء النفر الذين كانوا حول أبى الصهباء لا شك أنهم ملائكة الرحمن ووفد الرحمة والرضوان.

والبكاء فى حياة المؤمن لا يكون على مال ضائع ولا عَرَضٍ تالف ولا دنيا ذهبت مع الريح، كلا. فما هذه الهموم يحزن لها قلب المؤمن أو تدمع لها عيونه، بل إن الصيام والصلاة والذكر هى غنيمة المؤمن ونهمته[1] من الدنيا، ولا يحول بينه وبينها إلا مرض أو موت، فإذا حَلَّ بالمؤمن أحدهما يحزن على مافاته من طاعة ربه وخدمة دينه وعمل الجوارح فى مرضاته.

وماتت معاذة -رحمها الله- سنة مائة للهجرة، وكانت قد أدركت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وسمعت منها حديث النبى ﷺ وروت عنها. وقد روى عن معاذة عدة من خيار التابعين والعلماء الصالحين كأمثال

(١) أى رغبته وشهوته وغاية مطلبه.

الحسن البصرى، وأبو قلابة، ويزيد الرشك.

إن المرأة المؤمنة المسلمة أمام سلف الأمة من هؤلاء النسوة عليها أن تستقى من هذا المعين الصافى وذلك النبع الفيَّاض، فقد كفانا سلفنا الصالح تقليد أهل الشرق والغرب، ففى ديننا وتاريخنا ما يكفينا ويغنينا، وهذه معاذة العدوية نراها عالمة بدينها فقيهة بشرع ربها راوية لحديث نبيها >، مجاهدة فى صفوف المجاهدين، أمًّا أحسنت تربية ولدها، زوجة صالحة وفيّةً لزوجها، عابدة فى المحراب من القائمين المتهجدين، صائمة مع الصائمين، صابرة محتسبة مع الصابرين، وقَلَّ أن يجتمع كل هذ ه الصفات فى امرأة واحدة كما اجتمعت فى معاذة– رحمها الله.

* * *

فصل

حفصة بنت سيرين

أبو حفصة من خيار التابعين وهو «ابن سيرين»، عَلَم من أعلام الزهد والفقه والورع والفراسة والتقوى، وقد شربت حفصة من هذه الجذور الطاهرة لأبيها، فخرجت إلى الحياة عابدة أواهة منيبة إلى ربها، وهى من عابدات البصرة والتى اشتهرت بالعبادة والفقه وقراءة القرآن والحديث، حتى صارت ممن يُرجع إليه عند الاختلاف وتَحرِّى الحق ومعرفة الخطأ من الصواب، وصارت لكثير من الرجال مرجعاً يُصححون عليه قراءة القرآن والحديث.

قال إياس بن معاوية: ما أدركت أحداً أفضله على حفصة بنت سيرين فقيل له: الحسن وابن سيرين ؟ فقال: أما أنا فلا أفضل عليها أحداً. وأما سيدات التابعيات فى قول ابن أبى داود: فحفصة بنت سيرين وعمرة بنت عبد الرحمن ويليهما أم الدرداء الصغرى[1]، وقرأت القرآن الكريم وهى ابنة اثنتى عشرة سنة. وكان ابن سيرين إذا استشكل عليه شيئ من القرآن قال: اذهبوا فاسئلوا حفصة كيف تقرأ.

وقد بلغت شأناً عظيماً فى حفظ الحديث الشريف وروايته حتى أصبحت عند أئمة الحديث من الثقات، وقد روت حفصة عن أخيها يحيى وأنس بن مالك وأم عطية الأنصارية والرباب أم الرائح وأبى العالية وأبى ذبيان خليفة بن كعب والربيع بن زياد الحارثى وخيرة أم الحسن البصرى وغيرهم. وقد روى عنها محمد بن سيرين وقتادة وعاصم الأحول وأيوب وخالد الحذاء وابن عون وهشام بن حسان، وقال عنها يحيى بن معين: ثقة حجة. وقال أحمد بن عبد الله: هى ثقة، وذكرها ابن حبّان فى الثقات.

---

(١) سيأتى الحديث عنها لاحقاً إن شاء الله.

وهكذا زاحمت « حفصة » علماء زمانها بالُركب، وتلقت عنهم العلم النافع والمعرفة الصافية حتى صارت مورداً عذباً لكل ظمآن يريد أن يروى ظمأه بهذا العلم الذى ينير البصائر ويجلو الصدأ عن القلوب ويشحذ الهمم للأعمال الصالحة.

*** عشاق الطهر والعفاف :**

المؤمنة الصادقة لا تزاحم الرجال فى الطرقات، ولا تُبدى زينتها للمفتونين، ولا تجعل من نفسها شبكة من شباك الشيطان ليصطاد بها من كان فى قلبه مرض، وهذه سيما الصالحات عبر القرون والأجيال، وذلك هو القاسم المشترك الذى يميز الصادقات من الكاذبات.

عن عاصم الأحول قال: كنا ندخل على حفصة بنت سيرين وقد جعلت الجلباب هكذا وتَنَّقبت به فنقول لها: رحمك الله، قال الله: ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾ [النور: ٦٠]، وهو الجلباب. قال: فتقول لنا : أى شئ بعد ذلك ؟ فنقول: ﴿ **وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ** ﴾ فتقول: هو إثبات الجلباب!!

إن « حفصة » تقول لهم هذا الكلام وهى عجوز لا يطمع فيها أحد، ومن يأتون إليها إنما هم خيرة القوم من العلماء والزهاد والصالحين ممن يغضون أبصارهم ويحفظون فروجهم، ولا يأتونها إلا طلباً للعلم ورغبة فى الاستزادة من معينها الذى لا ينضب، ورغم هذه الضمانات القائمة للحفاظة والصيانة، إلا أنها تعلمهم أن التستر والعفاف خير للمرأة حتى لو كانت من العجائز قواعد البيوت ممن لا يرجون نكاحاً ولا يرغب فى نكاحهن أحد لكبر سنهن وضعف أبدانهن، فهل بعد ذلك حجة لمتساهل فى أمر الحجاب وصيانة المرأة وهو يرى هذه الإجابة من عجوز ملازمة لبيتها ومحرابها وليس لامرأة جميلة حسناء ذات زخرف وزينة وبهاء ؟؟!!

* ثمرة صالحة لشجرة طيبة :

كل إناء بما فيه ينضح، وإذا طابت الجذور طابت معها الثمار، وهكذا تخرج إلى الوجود ذرية صالحة إذا كان الصلاح والتقوى والورع هى صفات الأبوين، فالصغير حينما تتفتح عيونه على الدنيا لا يرى حوله يؤانسه ويجالسه ويعلمه غير أبيه وأمه، فيا ترى كيف سيخرج الأولاد إلى الوجود وهم يتعلمون من سلوك آبائهم حب الله وحب رسوله وحب دينه ؟ حتماً سيمتصون هذه القيم الصالحة ويكونون قرة عين لآبائهم وذخراً لهم يوم الحساب، ومن يريد صلاح أولاده دون أن ينصلح هو أولاً فإنما يبحث عن وهم ويطلب المحال، وذلك أن فاقد الشئ لا يعطيه، والمرء لا يجنى إلا ماكسبته يداه .

عن هشام بن حسان قال: كان الهذيل بن حفصة يجمع الحطب فى الصيف فَيَقْشُرُه ويأخذ القصب، فيفلقه، قالت حفصة: وكنت أجد قرَّةً[1] فكان إذا جاء الشتاء جاء بالكانون فيضعه خلفى وأنا فى مُصَلاَّى ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر وذاك القصب المفلّق وقوداً لا يؤذى دخانه ويُدفئنى. نمكث بذلك ما شاء الله. قالت: وعنده من يكفيه لو أراد ذلك[2].

قالت «حفصة»: وربما أردت أن أنصرف إليه فأقول: يا بنى ارجع إلى أهلك ثم أذكر ما يريد فأدعه.

قالت: «حفصة»: فلما مات رزق الله علىَّ من الصبر ماشاء أن يرزق، غير أنى كنت أجد غُصَّة[3] لا تذهب ، قالت: فبينا أنا ذات ليلة أقرأ سورة النحل إذ أتيت على هذه الآية: ﴿ **وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ**

---

(١) أى شدة البرد.

(٢) أى عنده من الخدم من يكفيه مؤونة هذه الخدمة لو اراد ذلك لامرهم به فاطاعوه.

(٣) أى ألماً وشدة.

هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦].

قالت: فأعدتها فأذهب الله ماكنت أجد.

أىُّ بر هذا الذى يفعله الهذيل بأمه «حفصة»، يجمع الحطب فى الصيف ونيته أن يدخره للشتاء حتى يوقده لأمه لتستدفئ به وهى تقوم الليل فى مصلاها بين يدى ربها ؟ وكان من السهل عليه أن يأمر بعض خدمه بهذا العمل لو أراد ذلك، ولكنه مثل أمه باحث عن الأجر والثواب، فيخدم أمه بيديه طمعاً فيما يرجوه من عطاء ربه.

وإذا حَنَّ قلب الأم شفقة على ولدها وتريد أن يعود إلى أهله فتذكر رغبته فى الأجر والمثوبة فتدعه وما أراد، فلعل بهذا العمل ينجو من عذاب الله، والأعمال الصالحة كلها فى الميزان يوم العرض أمام الله، وأثقلها فى الموازين ما كان خالصاً لله صافياً من السمعة والرياء وحب الشهرة، هكذا تكون الأمهات الصالحات، لا يخفن على أولادهن مشقة الدنيا وآلام الحياة وإنما يخشين عليهم من نار الآخرة وعذاب الله، وسيرة هؤلاء الصالحات تدفع الأولاد حتماً إلى التقليد والتشبه والمحاكاة وذلك أيضاً مع الحب والتعظيم والاحترام، فالولد الذى يرى أمه مشغولة بربه إلى ذلك الحد حتى يفيض همها من قلبها إلى قلبه لينشغل بها شفقة عليها ورحمة بها حتماً سيتيقن أن أمه تجتهد فى أمر عظيم، وتبذل جهداً مشكوراً فى عبادة ترجو ثوابها وثمارها يوم الدين.

ومن صور البر الواردة عن الهذيل بأمه حفصة هو حبه لها وعنايته بطعامها وشرابها، والمبالغة فى إكرامها والاحتفاء بها. قال هشام: وكانت له -أى لهذيل- لقحة(١)، قالت «حفصة»: كان يبعث إلىّ بحلبة بالغداة فأقول: يا بنىّ إنك لتعلم أنى لا أشربه، أنا صائمة. فيقول: يا أم الهذيل إن

(١) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

أطيب اللبن ما بات فى ضروع الإبل، اسقيه مَنْ شئت.

رغم علمه بصيامها وعدم شربها للَّبن الذى أرسله إليها إلا أنه جعل لها الخيار فى شربه عند الإفطار أو فى الصدقة به على من شاءت، ولم يقطع عنها عطاءه وبره، وهكذا يكون الولد الصالح عوناً لأبيه وأمه على طاعة الله.

* **أوابة فى المحراب:**

لا يصل العبد لدرجة الولاية والإحسان إلا إذا ولج من باب المحراب، حيث الدعاء والتضرع والبكاء والمناجاة، وإذا لم يكن بين العبد وربه هذه الصلة فكيف يستقبل قلبه هذا النور الذى يفيض عليه من خزائن رحمة ربه، فالقلب هو الوعاء المستقبل للعطاء، فإذا لم يطهر ويتزكى فلا يصلح لورود العلم والفهم فيه، فإذا زال الران المتراكم فيه وانقشعت عنه حجب الغفلة أصبح بصيراً يرى مالا يراه غيره من عُمْى القلوب.

وكانت «حفصة» على حظ عظيم من العبادة والاجتهاد حتى ما يراها المحيطون بها إلا فى ذكر أو طاعة أوصيام أو صلاة، وصار هذا هو الغالب على جميع أحوالها وكأنها ملك من الملائكة وليس بشراً كسائر البشر يأكل الطعام ويمشى على الأرض، وهكذا قال من عاصروها يصفون سيرتها فى اليوم والليلة:

قال مهدى بن ميمون: مكثت حفصة فى مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو قائلة[1] وعن هشام بن حسان قال: اشترت حفصة جارية أظنها سِنْدية فقيل لها: كيف رأيت مولاتك؟ فذكر إبراهيم كلاماً بالفارسية تفسيره أنها امرأة صالحة إلا أنها أذنبت ذنباً عظيماً فهى الليل كله تبكى وتصلى!! لقد ظنت هذه الجارية أن العبادة والاجتهاد والقيام الذى تراه من

(١) القائلة: نوم القيلولة بالظهيرة.

مولاتها حفصة يدل على ندم عظيم من ذنب كبير، والحقيقة أن الذى رأته هو حال المؤمنين الصادقين مع ربهم، فهم يأنسون بالله فى هذه الخلوة والمناجاة ويجدون فيها لذة لا يجدها الملوك ولا أبناء الملوك.

قال عبد الكريم بن معاوية: ذكر لى عن حفصة أنها كانت تقرأ نصف القرآن فى كل ليلة، وكانت تصوم الدهر وتفطر العيدين وأيام التشريق.

وقال: هشام بن حسان: قد رأيت الحسن وابن سيرين وما رأيت أحداً أرى أنه أعقل من حفصة. وقال أيضاً: كان لها كفن مُعَدّ فإذا حَجَّت وأحرمت لبسته وكانت إذا كانت من العشر الأواخر من رمضان قامت من الليل فلبسته.

ومما يؤثر من كلامها وحكمها قول هشام بن حسان فيما ينقله عنها قال: كانت حفصة تقول لنا: يا معشر الشباب خذوا من أنفسكم وأنتم شباب فإنى ما رأيت العمل إلا فى الشباب.

وما أغلى هذه النصحية من عجوز شابت فى الإسلام على الطاعة والجد والمجاهدة، بينما هى طول حياتها ومنذ صغرها دائبة على هذه العبادة دون فتور أو كسل وتوانٍ، فقد حفظت القرآن كله وهى صغيرة، وحياتها منذ نعومة أظفارها موصولة بربها فى صلاة وقيام وصيام، وهكذا ظلت حتى فارقت دنيانا هذه إلى رضوان ربها.

قال هشام بن حسان: قرأت القرآن -أى «حفصة»- وهى ابنة اثنتى عشرة سنة وماتت وهى ابنة تسعين. وكان ذلك سنة مائة وواحد للهجرة. وبقى من «حفصة» السيرة العطرة والذكرى الطيبة والثناء الحسن الجميل، فما أعظمها من عابدة صالحة وعالمة فقيهة فى دينها، وزاهدة تقية راغبة فيما عند ربها..

* * *

فصـــل

رابعــة العدويــة

فى « رابعة العدوية » تتجلى صفات الزهد والورع والتقوى كلها، ولو كان لهذه المعاني والصفات أن تتجسد فى شخص إنسان لكان هذا الشخص هو « رابعة »- رحمها الله.

إنها أم الخير الصالحة المشهورة وكانت من أعيان عصرها وتاجاً على رءوس الصالحين والزُهَّاد وغُرةً فى جبين هذه الأمة على الخير، وعَلَماً من أعلام الصلاح والتقوى والزهد.

رابعة من خيرة عُبَّاد البصرة وقد ذاع صيتها عبر الأجيال فى جميع الآفاق حتي صارت مضرب المثل فى الزهد والاجتهاد والعبادة، وبلغت درجة لم يبلغها كثير ممن عاصروها من الرجال والنساء، وكانت عميقة العلم دقيقة الفهم حتى صار كثير من أئمة عصرها يبدون أمامها صغاراً أو تلامذة يتعلمون منها حسن الصلة بالله وحفظ الأدب فى معاملته سبحانه.

وقد وصفها الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » بأنها من نساك البصرة وزهادها وقد روى عنها هذا الخبر التالى: قيل لرابعة القيسية[1]: لو أذنت لنا كلمنا قومك فجمعوا لك ثمن خادم، وكان لك فى ذلك مرفق، وكفتك الخدمة، وتفرغت للعبادة، فقالت: والله، إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسأل الدنيا من لا يملكها؟؟

وقد تكرر هذا العرض ممن كانوا حولها فى مرات عديدة -سيأتى ذكرها-

---

(١) تسمى « رابعة » هذه بأنها رابعة القيسية العدوية البصرية، وسُميت بالقيسية لأنها من بطن من بطون قبيلة قيس، وسميت بالعدوية لأن أسرتها من بنى عدوة، وسميت بالبصرية لأنها ولدت فى البصرة وعاشت بها ردحاً من الزمن.

وهي تجيب بذات الجواب، وتستحى من ربها أن تسأله عرضاً قريباً من الدنيا وهو سبحانه يملكها ولو شاءت لدعت واستجاب الله لها، ولكنها ما طلبت هذا الحطام ولا طاف بخيالها أن يكون ذلك فى دعائها ومناجاتها زهداً فيها، فكيف بعد ذلك كله أن تطلبها إلى مخلوق مثلها لا يملك أمر نفسه فضلاً عن أن يملك شيئاً لغيره، وهل يجود المعدم بشئ لا يملكه؟؟ وهل يعطى الفقير فقيراً مثله؟؟

إنها أعطت لمن حولها درساً فى الإيمان واليقين تعلمهم به أن الأمور مردُّها ومرجعها إلى رب العالمين، وأما العباد فلا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً، وأصبح سلوكها هذا قدوة لعُشاق الدنيا وطُلاَّب الحطام الفانى، فمن طلب إلى ربه فى دعائه زيادة دنياه فإنما يطلب بذلك طول الوقوف بين يديه للحساب يوم القيامة، وأى عاقل يريد لنفسه طول الوقوف للحساب حينما يُسأل عن ماله كله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟؟

كم من النساء لا شهوة لهن ولا رغبة إلا فى لذة عاجلة وزينة برَّاقة فاتنة، فأين كانت مواقع الشهوة عند رابعة وأمثالها من الصالحات وهن بشر كسائر البشر وليسوا ملائكة من السماء تمشى على الأرض؟ ألا إنها معجزة الإسلام الكبرى التى أخرجت للوجود هذه النماذج البشرية الفريدة في صفاتها وأخلاقها وسلوكها حتى صارت مفخرة لهذه الأمة بين سائر الأمم السابقة.

* صلاح النهاية من صلاح البداية :

الذى ينظر لأهل التقوى والصلاح فيعجب من علو درجتهم وحسن صلتهم بربهم فعليه أن يسأل نفسه كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه؟ وما البداية التى أوصلتهم إلى هذه النهاية؟ فالإجابة على ذلك التساؤل تفتح الباب لكل راغب أن يتشبه بغيره ممن وصلوا إلى مراتب الخير والحق، وتثير فيه الحمية الصادقة والعزيمة القوية حتى يسلك ذات الطريق الموصل إلى هذه الغاية الشريفة وتلك المنزلة العالية.

لقد كان لرابعة ثلاث أخوات بنات سبقنها إلى الحياة، وجاءت هي بعد الثلاث، وأبواها يشكوان قسوة الفقر وشدة الحياة، فسمياها « رابعة » لأنها كانت الرابعة في الميلاد.

وقد حزن أبوها لمجيئها وهو في هذا الفقر المدقع، ولكنه كما يُروى عنه رأى النبي > في المنام وسمعه يقول له: « لا تحزن، فهذه الوليدة سيدة جليلة، وإن سبعين من أمتي ليرجون شفاعتها »، وأمره النبي > في المنام –كما تقول الرواية– بالتوجه إلى عيسى زاذان والي البصرة، وأمره أن يخبره ببعض شئونه الخاصة المستورة، ثم يطلب إليه مالاً، وفعل الوالد، وعجب عيسى، واحتفل بالوالد، وأعطاه أربعمائة دينار !!

وهكذا نشأت رابعة بين أبوين فقيرين، يعيشان في كوخ بطرف من أطراف البصرة وقد كانت هذه المدينة العراقية لها يومئذ شهرة فائقة في العلم والأدب والزهد والدين كما كان لها شهرة فائقة أيضاً في اللهو والترف والغناء، وكان الناس يسمون هذا الكوخ « كوخ العابد » وذلك لتقوى الوالد وإيمانه، وقد ظهرت بركات رابعة هذ ه المولودة الجديدة حينما جاءت إلى الحياة وجاء معها هذا الرزق الحلال الذى جاء للأب من حيث لا يحتسب.

وكانت « رابعة » منذ صغرها فتاة لبيبة عاقلة ذكية، زاهدة عابدة متهجدة، وكانت كثيرة الهم والحزن طويلة التفكير والتأمل، منطوية على نفسها قليلة الكلام عازفة عن لغط الحياة.

والفقر الذى نشأت فيه كان كفيلاً بأن ينسيها طاعة ربها لتعكف مع والديها على تحصيل لقمة العيش، فكم من الفقراء ينسيهم الفقر دينهم ولا يصبح لهم في الحياة هَمٌّ إلا السعيُ في الأرض لمشرب أو مأكل أو ملبس، ولكن هناك فقراء يتجملون بالصبر ويتحلون بالعفاف والطهر، ويأبون دخول الحرام إلى بطونهم ويتورعون عن الدراهم المشبوهة رغم شدة فقرهم وحاجتهم إلى ما يسدون به الرمق ويذهبون به جوع البطون.

وكانت رابعة تخاف أكل الحرام، وقالت لأبيها: «يا أبت لستُ أجعلك فى رحلٍ مِنْ حرام تطعمنيه»، فقال لها متعجباً: «أرأيت يا رابعة إن لم نجد إلا حراماً؟؟» وهو بذلك يختبر صدقها فى قولها، ولكنه بسؤاله هذا لها قد أكرم هذه الأمة بهذا الجواب العجيب الذى ساقه الله على لسان ابنته «رابعة» حيث قالت: «نصبر يا أبى فى الدنيا على الجوع، خير من أن نصبر فى الآخرة على النار». إن العاقل البصير يقف عند هذا الجواب البليغ ويسأل نفسه: هل يخرج هذا الجواب إلا من قلب صدِّيقة مؤمنة راسخة اليقين؟؟ وهل يخرج هذا الجواب من طفلة ناشئة تستقبل الحياة لا شغل لها إلا التمتع بالزينة والزخرف والمتاع؟؟ ولكنه جواب «رابعة» وهى فى مستقبل حياتها فكيف سيصير شأنها حينما يشتد عودها؟؟

لقد عنيت رابعة منذ صغرها بحفظ القرآن الكريم وترتيله، وكلما حفظت سورة من سوره أخذت تكررها وتعيدها فى ترتيل وتجويد مع الخشوع وتدفق الدموع. ولقد كان وجود أبيها إلى جوارها يكفيها مؤونة الحياة وضرورات العيش، وما لبث أن مات هذا الأب الصالح ثم لحقت به زوجته أم رابعة.

وبقيت رابعة يتيمة مع أخواتها البنات الثلاث، ولم يترك الوالدان لبناتهما من أسباب الحياة ووسائل العيش سوى قارب ينقل الناس فى نهر دجلة من شاطئ إلى شاطئ مقابل دراهم معدودة.

وخرجت مع أخواتها لتعمل فى القارب الموروث حتى تقضى حاجتها وحاجة أخواتها، وكانت تقضى نهارها كله فى العمل ثم تعود إلى بيتها فى المساء مكدودة منهوكة متعبة فلا يُهوِّن عليها مشقة العمل وعناء التعب سوى الغناء وترديد الألحان التى تخرج من فؤادها وأعماق نفسها.

وذات ليلة رأت «رابعة» فى نومها رؤيا، ثم عاودتها تلك الرؤيا متكررة فى ليالى عديدة، لقد شاهدت نوراً ساطعاً يشمل الأفق، وأقبل هذا النور

عليها فأحاط بها، وغمر جسمها وحسها ونفسها، ودخل إلى فؤادها ومس قلبها حتى سبحت رابعة فى أمواج ذلك النور واغتسلت به.

وتحيرت رابعة وأخذت تفكر فى هذه الرؤيا أثناء اليقظة، وفى سبحة من سبحات روحها سمعت هاتفاً ينشد هذه الأبيات التالية:

أحسن من قينة[1] ومـزمارِ ... فى غسق الليل نفخةُ البارى

يا حُسنـه والإله يسمعـه ... بطيب صوت ودمعه جارى

وخدُّه فى التـراب منعفـر ... وقلبـه فى محبـةِ البـارى

يقول: ياسيدى، وياسَندى ... شغلنـى عنك ثقلُ أوزارى

ولم تر «رابعة» من ينشد ولكنها تأثرت بهذا الذى سمعته، ورأت فيه إشارة إلى ترك اللغو والغناء والانشغال بالمناجاة والتضرع والدعاء، استبدال الألحان التى ترددها بهذا القرآن وترتيل آيات الرحمن. ومن ذلك اليوم تركت «رابعة» غناءها وألحانها، وأقبلت على عبادة ربها وقراءة القرآن وخاصة فى هدأة الليل وسكونه المهيب.

وعلى الرغم من عبادتها وتلاوتها القرآن وتهجدها بالليل بين يدى ربها، لم تنقطع عن إنشاد الشعر أو ترديده، ولكنها استبدلت أشعار اللغو والمجون بأشعار الزهد والصلاح ومكارم الأخلاق، فالشعر كسائر الكلام حَسَنه حَسَن وخبيثه خبيث.

وحسب رابعة أن يشهد لها «معروف الكرخى» وهو من مشاهير عصرها فى التقوى والدين والورع، وكان من دعائه: «اللهم إن نواصينا بيدك، لم تملكنا منها شيئاً، فإذا فعلت ذلك بنا، فكن أنت ولينا، واهدنا إلى سواء السبيل».

وكان يقول: «ما أكثر الصالحين وما أقل الصادقين فى الصالحين، ويقول:

(١) القينة: المغنية.

«توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك».

ويقول: «طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق».. هذا هو الذى يشهد لرابعة بالزهد والورع والصلاح، فما أغلى هذه الشهادة التى تفخر بها رابعة وترجو أن تكون حقيقة بداخلها لا صورة يراها الناس فى ظاهرها.

وقد حدثت مجاعة وقحط وجفاف في البصرة على عهدها، وكانت المجاعة فظيعة مزلزلة مشتتة، فتشردت رابعة فى الأرض وتشتت أخواتها وذهبت كل واحدة منهن إلى جهة من الأرض، حيث لم تلتق رابعة بواحدة منهن بعد ذلك، ولم يقف هذا البلاء عند ذلك الحد، بل تجاوزه إلى ما هو أقسى منه وأشد، حيث رآها لص أثيم فتربص لها حتى وجدها مشردة منفردة، فأخذها مدعياً رقها وباعها إلى أحد التجار أمةً رقيقة بثمن بخس دراهم معدودة قيل إنها ستة دراهم.

وأخذها التاجر الذى اشتراها إلى بيته، وأذاقها طعم البلاء وسامها سوء العذاب، ولكنها صبرت وصابرت وظلت تتعبد وتتهجد وتدعو ربها وتناجيه، ولم يمنعها الرق من صلتها بربها كما لم يمنعها الفقر من قبل عن خلوتها ومناجاتها.

كثير من الناس يتعلل بسوء الظروف ومشقة الحياة وأعباء المعيشة، ولكن الصادق البصير لا يتعلل بهذه العلل الواهية ويتخذ منها ذريعة للكسل والفتور والدعة، وإنما المؤمن مهما تغيرت أحواله الدنيا فهو لا يتغير فى معاملته مع ربه بل يظل كما هو على العهد صادقاً صابراً مثابراً لا يضعف جهده ولا تفتر عزيمته.

وذات يوم ذهبت رابعة إلى السوق لتقضى حاجة لسيدها، فأراد ذئب بشرى الاعتداء عليها، ففرت منه فسقطت فكسرت ذراعها، ولكنها احتملت وواصلت فرارها حتى بلغت البيت وهى راضية بما وقع لها من كسر، ما دامت قد سلمت لها كرامتها وعفتها من الكسر.

واستغرقت «رابعة» فى الدعاء والمناجاة تجد فى خلوتها مع ربها أُنْساً وريًّا وطمأنينة، فلم تعد تشعر بوحشة وهى وحيدة فريدة بلا أبوين ولا أخوات ولا أهل ولا عشيرة، فقد استغنت بربها عن كل أحد، وصارت فى خلوتها تجد لذة لا يجدها جميع الناس وهم وسط أهليهم وأحبابهم، والصادق كيف لا يجد هذا الأنس وتلك الطمأنينة، فالذى يخلو بربه كيف يخاف وكيف يستوحش وقد جعل ربه أنيسه وجليسه ومحبوبه وغاية رغبته ومنتهى أمله ونهاية رجائه ومطلبه؟؟!!

وذات ليلةٍ رآها التاجر الذى يملكها وهى تتعبد فى خشوع وإخلاص طالبة إلى الله أن ينقذها من ذلك الرق الذى هى فيه وراجية من ربها أن يخلصها من قسوة ذلك التاجر الذى يذيقها الألم والمهانة حتى تتفرغ للعبادة والطاعة، ويقال إن التاجر رأى فوق رأسها مصباحاً مضيئاً غير معلق بشىء فدخلته الخشية والروعة، وآمن بصلتها العميقة بربها، فأعتقها وأطلق سراحها.

وهكذا تحررت رابعة من رق العبودية وقسوة هذا التاجر، وانطلقت فى رحاب الحياة عابدة زاهدة صالحة لا تبالى على أىِّ حال من الدنيا أمست وأصبحت، ولا تحفل بما يصيبها من السَّراء أو الضَّراء، ولا بالنعمة أو البأساء، فقد رحلت بهمومها من هذه الدنيا وجعلت همها هماً واحداً هو هَمُّ الآخرة ومرضاة الله وابتغاء رضاه. ومن ثَمَّ فقد اعتزلت الخلق وبنت لنفسها مصلى منفرداً، وانقطعت فيه للعبادة، وقيل إنها كانت تقصد المساجد لسماع العلم وتشهد فيها مجالس الذكر.

* **خوفها ومناجاتها:**

إذا رَقَّ القلب تأثر بالذكر، وإذا طهرت النفس تهيأت لاستقبال أنوار الحق، وإذا زاد الإيمان ازداد معه خوف العبد من ربه وخشيته من الوقوف بين يديه، وهكذا كان قلب رابعة -رحمها الله- فقد كانت كثيرة البكاء سريعة التأثر بذكر الله، قرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار فصاحت ثم سقطت. وكانت رابعة تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر.. وأتاها رجل بأربعين ديناراً فقال لها: تستعينين بها على بعض حوائجك، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت: هو يعلم أنى أستحى منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف أريد أن أجدها ممن لا يملكها. وكان لها منتحب من قصب عليه أكفانها وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة، وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة، ثم أمست رابعة بعد أن بلغت الثمانين كأنها شن(١) بالٍ تكاد تسقط إذا مشت، وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها.

وكانت «رابعة» إذا وثبت من مرقدها ذلك وثبت وهي فزعة تقول: يا نفس إلى كم تنامين وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور.

وقال عبد الله بن عيسى: دخلت على رابعة العدوية بيتها فرأيت على وجهها النور، وكانت كثيرة البكاء فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار فصاحت ثم سقطت.

ما سرُّ هذا البكاء كله؟ وما علة هذا الخوف الكبير الذى تملك القلب وملأ النفس؟ وما سبب هذه الخشية التى حركت الجسد لقيام الليل الطويل دون فتور أو ملل؟ إن التصديق بأخبار الغيب والإيمان بما هو كائن بعد الموت ليسكب فى القلب هذه الخشية، ويحرك النفس إلى أخذ الزاد وأهبة

---

(١) الشن: القربة الصغيرة البالية.

الاستعداد، فالسفر طويل، والعقبة كؤود، والناقد بصير، ولا نجاة هناك غداً إلا لمن خاف الله اليوم، وكل نفس بما كسبت رهينة.

وإلى جانب هذا الخوف العظيم فهناك أيضاً الشوق والمحبة الذى يحرق الكبد شوقاً إلى لقاء المحبوب، والإيمان ما هو إلا خوف وحب، ومع زيادة الإيمان يزداد خوف العبد من ربه كما يزداد حبه له وشوقه إلى لقائه، وهكذا كانت «رابعة» -رحمها الله.

وكتب التاريخ والسيرة ملأى بالمأثور عن رابعة من مناجاتها لربها وكلماتها العذبة التى تفيض إيماناً وتوحيداً وحباً لربها وصدقاً فى شوقها إليه سبحانه.

ومما كانت تناجى به ربها فى سكون الليل:

«إلهى، أنارت النجوم، ونامت العيون، وغَلَّقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك»

وحينما تناجيه عند الفجر تقول:

«إلهى، هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنا، أم رددتها علىَّ فأُعزَّى؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى، وعزتك لو طردتنى عن بابك ما برحت عنه، لما وقع فى قلبى من محبتك».

وتقول:

«اللهم إنى أعوذ بك من كل ما كان بشغلى عنك، ومن كل حائل يحول بينى وبينك».

وقولها: «إلهى، ما أصغيت إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوى ريح، ولا قعقعة رعد، إلا

وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أنه ليس كمثلك شيء».

وقولها فى خلوتها فى مصلاها:

«سيدى، بك تقرب المتقربون فى الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات. أنت الذى سجد لك سواد الليل، وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخَّار، والقمر النوَّر، والنجم الزهَّار، وكل شئ عندك بمقدار، لأنك الله العلى القهار».

وحينما فرَّت من الذئب البشرى الذى أراد البطش بها، وانكسرت ذراعها، وفرَّت منه ناجية بشرفها وعفتها، كانت تناجى ربها وتقول:

«رباه.. قد انكسرت ذراعى، وأنا أعانى الألم واليتم، وسوف أتحمل كل شئ وأصبر عليه، فهل أنت راضٍ عنى ياسيدى؟ إلهى.. هذا ما أتوق إلى معرفته».

وفى قيامها بالليل تقول:

«قد نامت العيون، وغفل الغافلون، وبقيت رابعة الخاطئة بين يديك، فلعلك تنظر إليها نظرة تمنعها النوم عن خدمتك، وعزتك وجلالك لا أنام عن خدمتك فى ليل ولا نهار إلا غَلَبة(١) حتى ألقاك».

ويظهر من هذا الدعاء تواضعها الشديد، وانكسارها بين يدى ربها، فلا يأخذها العجب ولا تزهو نفسها بالكبر والفخر، حيث إنها قائمة والناس نيام، كلا. بل ترى نفسها خاطئة مذنبة ترجو من ربها نظرة عطف ورحمة، وترجوه أن يذهب عنها النوم حتى لا يفوتها حظها من عطاء ربها للمتهجدين بالليل، فأىُّ فهم أعمق من فهم رابعة؟ وأى تواضع تحلَّت به حتى دفعت عن نفسها الكبر والخيلاء، فكم من العُبَّاد والزُّهَّاد يأخذهم

---

(١) أى يغلبنى النوم فأنام.

العجب والكبر والدلال حينما يرون أنفسهم طائعين لله بينما أغلب الناس غافلون عنه، وهذا المدخل من مداخل إبليس ليفسد على العابد عبادته ويحبط له أجر طاعته ومجاهدته.

ولكن بصيرة «رابعة» وقوة إيمانها وسعة علمها وعمق فقهها وقاها شباك الشيطان وحفظها من سهام إبليس المسمومة، فحفظ الله بذلك قلبها ونيتها، وجعلها تزداد بهذه العبادة تواضعاً وتأدباً وانكساراً، ولم يدفعها عُلُوُّ مقامها وارتفاع شأنها إلى التعالى على عباد الله والترفع عنهم واحتقار شأنهم وعبادتهم، وهذا هو حال العلماء العاملين الصادقين: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨].

إن أفضل دعاء يصعد إلى السماء من العبد، هو دعاء المحب المشتاق الذى يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه، والله يحب الثناء ولذلك مدح نفسه، وكلما قَدَّم العبد بين يدى دعائه طول الثناء على ربه وناجاه بأسمائه الحسنى وصفاته الطيبة،كان دعاؤه أقرب للقبول وأحظى بالإجابة، وهذا هو الذى يميز الخواص من المؤمنين عن غيرهم من صالح المسلمين، فالخواصُّ من عباد الله الصالحين لهم مع الله طول المناجاة وكثرة الثناء واستفاضة الدموع وتورم الأقدام من القيام، فهم لا يتعجلون الانصراف من مقامهم بين يدى ربهم، ولكنهم يحبون طول هذا المقام ويتمنون أن يزداد طولاً حتى لا ينقطع إلا مع آخر نَفَس لهم فى الحياة، فالقائم بين يدى الله يتعرض لنفحات ربه من الرضا والنور والرحمة والفيض الغامر الذى يغمر حياته ويفيض عليها بركة وطمأنينة ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)** ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤].

ومما يؤثر عن «رابعة» من شعرها الكثير فى الزهد والشوق إلى الله

اقتصرناعلى هذين البيتين، وهما مثال واضح يدل دلالة صريحة على مدى خوفها من ربها وطمعها في رحمته ورجائها في عفوه ورضاه:

وزادى قليلٌ ما أراه مبلغى .·. أللزاد أبكى، أم لطول مسافتى؟

أتحرقنى بالنار ياغاية المنى .·. فأين رجائى فيك؟ أين مخافتى؟

وكلما غلبها النوم من الإرهاق والتعب تقوم يقظة فزعة مذعورة تقول: «يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور»!!

*** علمها وفقهها:**

ما أطيب أن يجتمع العلم مع الذكر والعبادة في العبد الصالح المستقيم، فالعابد الجاهل يلعب به الشيطان كما يلعب الصبى بالكرة، أما العالم فهو أشد على الشيطان من ألف عابد، وذلك أنه يبصر مداخل الشيطان التى يلج منها لإفساد الطاعات وتضييع ثوابها من العبد بالسمعة والرياء وحب الثناء والمحمدة من الناس.

قال ابن الجوزى: كانت رابعة فطنة، ومن كلامها الدال على قوة فهمها قولها: أستغفر الله من قلة صدقى فى قولى أستغفر الله.

وهذا يدل على أن استغفارنا يحتاج إلى استغفار، فما أحوجنا للصدق حينما نستغفر الله ونعتذر إليه من الذنب، فإذا كان الاستغفار بالغفلة والسهو وحركة اللسان دون مواطأة القلب فهو أقرب إلى الذنب الذى يحتاج هو الأخر إلى استغفار !!

قال جعفر بن سليمان: أخذ بيدى سفيان الثورى وقال: مُرَّ بنا إلى المؤدبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها. فلما دخلنا عليها رفع سفيان يده وقال: اللهم إلى أسألك السلامة، فبكت رابعة. فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: أنت عرَّضتَنى للبكاء. فقال: وكيف؟ قالت: أما علمت أن السلامة

من الدنيا ترك ما فيها فكيف وأنت متلطخ بها؟؟

وقال الثورى بين يدى رابعة واحزناه، فقالت : لاتكذب. قل: واقلّة حزناه، لو كنت محزوناً ما هَنَاك العيش ولم يتهيأ لك أن تتنفس ولقى سفيان الثورى رابعة، -وكانت زرية الحال- فقال لها: يا أم عمرو أرى حالاً رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغيَّر بعض ما أرى، فقالت له: يا سفيان وما ترى من سوء حالى؟ ألستُ على الإسلام فهو العز الذى لا ذل معه والغنى الذى لا فقر معه، والأنس الذى لا وحشة معه، والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟ فقام سفيان وهو يقول: ما سمعت مثل هذا الكلام.

وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل».

إن زهد رابعة وسعة فهمها جعل كبار الصالحين والعلماء تتصاغر هممهم أمام شموخها وصبرها ويقينها واستعلائها على جميع شهوات النفس ومتع الحياة، وهذا العلم الربانى الوهبى لا يوجد فى صفحات الكتب ولا يسمعه الناس من الوعاظ ولا يجدونه على ألسنة الكثيرين، فهو علم يهبه الله تعالى لأهل التقوى واليقين حيث ينبع من قلوبهم وتنطق به ألسنتهم، ولذلك جاء فى الحديث: «العلم علمان: علم فى القلب وذلك العلم النافع، وعلم على اللسان وذلك حجة الله على ابن آدم»(١).

والذى يريد أن يعرف درجة العالم وقدره عند ربه فعليه أن ينظر إلى شيئين:

١-سيرته فى اليوم والليلة وسلوكه مع ربه ومع الناس.

٢-كلامه الذى يتكلمه فاللسان ترجمان القلب، وكل كلام يخرج وعليه كسوة القلب الذى خرج منه.

---

(١) رواه الحافظ أبو بكر وابن عبد البر عن جابر رضى الله عنه.

وإلى هذا أشار عليّ رضى الله عنه حينما سأله بعض الناس: كيف تعرف الرجل؟ فقال: إذا تكلم نعرفه فى حينه، وإن لم يتكلم نعرفه فى نهاره»، وفى ذلك دلالة على معرفة باطن الإنسان من خلال ظاهره وذلك يعرفه أهل الفراسة الذين يرون بنور الله ولا يكادون يخطئون فى فراستهم تلك أبداً. ولذلك قال أحد الصالحين: من لا ينفعك لحظه(١)، لا ينفعك لفظه(٢).

والذى يؤثر عن «رابعة العدوية» في نثرها وشعرها ونصائحها ومواعظها ليعطى أكبر دلالة على سعة علمها وعمق فقهها، ومما يزيد فى شرف هذا العلم لديها أنه مشفوع بسلوك طيب وسيرة صالحة.

فمن كلامها: «محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه». فالقلوب المحبة لربها لا تزال مشتاقة للقائه، وتستوحش من الخلق ولا تجد أنسها وراحتها إلا فى خلوتها بمحبوبها، ففى هذه الخلوة يكون الود والحب والأنس الذى يربط العبد بربه، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم: ٩٦].

ولذلك كانت رابعة إذا جَنَّ عليها الليل وخلا الناس بمحبوباتهم إما دفء الفراش أو ملاعبة الزوجة أو لذة حرام أو شهوة عاجلة إذا بها تنتظر هذا الليل وتحن إليه كما تحن الطيور إلى أوكارها حيث ستخلو حينئذ بمحبوبها الأوحد وهو رب العالمين سبحانه، وإذا أرخى الليل ستوره قامت إلى سطح لها ثم نادت:

«إلهى، هدأت الأصوات، وسكنت الحركات، وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتى منك فى هذه الليلة عتقى من النار».

فهل لمؤمن أن يرى مثل هذه العاطفة الصادقة وتلك الدرجة العالية وهذه

---

(١) أى عمله وسلوكه.

(٢) أى كلامه وبيانه.

المنزلة الرفيعة التى بلغتها «رابعة» فى حب ربها والتلذذ بمناجاته ودعائه وطول الوقوف بين يديه؟؟ حقاً. إنها «رابعة» أم الخير وأم الفضل وأم المكارم كلها.

ومن وصاياها: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم» ولا يتكلم بهذا الكلام إلا من ذاق طعم الإخلاص فأحسَّ بحلاوته فحينئذ سيشعر بمرارة الرياء وسوء مذاقه، فكثير من الناس لا يحبون أن تشيع أخطاؤهم أو تنتشر زلاتهم وهذه فطرة فى الخلق فمن ذا الذى يحب أن تذيع بين الناس أخباره السيئة وأفعاله الخبيثة؟ وكما أن هذه العاطفة فطرية، فكثير من الناس-ممن فسدت قلوبهم ومرضت نفوسهم- يحبون فى المقابل أن تشيع حسناتهم وأن تنتشر أعمالهم الصالحة وذلك كله ابتغاء الثناء والمحمدة من الناس حتى يعظم جاههم فى قلوب الخلق وترمقهم العيون بالمحبة والإجلال والتعظيم، ويلقون من الجميع الهيبة والاحترام.

ولكن المخلصين لهم شأن آخر، فهم أيضاً يحبون من الله أن يستر عليهم أخطاءهم وأن يغفرها لهم ويمحوها من الصحيفة ويبدلها حسنات، وبالدرجة والعاطفة نفسها كذلك يكتمون هم حسناتهم حتى يبرءوا ساحتهم من السمعة والرياء وملاحظة عيون الخلق وذلك حيث قد استغنوا بنظر الله إليهم فلا يحتاجون إلى نظر المخلوقين، فهم على يقين أن من تَصَنَّع لغير الله فضحه، ومن عمل لغير الله تركه وشركه، فالله أغنى الأغنياء عن الشركاء والوسطاء.

إن الحكمة من لسان «رابعة» موجزة بليغة، ولكن أعماقها فى المعانى والأثر بلا حدود، ولو استرسل القلم لتسجيل ما يحيط بالقلب من فيض ونور ورحمة لخرج بنا الأمر عن المقصود، فالله يرزقنا الحكمة ويجعلنا بفضله من أهلها ومستمعيها ومحبيها والعاملين بها والداعين إليها إنه بالإجابة جدير وبالفضل والكرم والعطاء موصوف.

* **تواضعها وزهدها:**

كم من العُبَّاد سقطوا فى شبكة الغرور، وزيَّن لهم الشيطان أنهم بعبادتهم أفضل الخلق رتبة وأعلى الناس درجة عند ربهم، وهذا تلبيس إبليس الذى لا ينخدع به إلا ضعيف الإيمان مطموس البصيرة.

ورغم عُلوُّ درجة «رابعة» فى عبادتها واتساع شهرتها بسبب طاعتها واشتهارها فى الأمة بأسرها لزهدها وتقواها، فقد تجَّملت بالتواضع الشديد حتى صارت فى عين نفسها أقَلَّ العالمين درجة عند الله، وهذا شأن الصدِّيقين الذين إذا ارتقوا إلى أعلى درجات الصلاح ازداد خوفهم من ربهم وخشيتهم من عقابه حتى يحاسبوا أنفسهم على الذنب الصغير والهفوة الضئيلة على أنها ذنب عظيم وكبيرة من الكبائر !!

قال رجل يوماً لرابعة: ادّعى الله لى، فالتصقت بالحائط وقالت: مَنْ أنا يرحمك الله؟ أطع ربك وادعُه فإنه يجيب دعوة المضطرين.

وقال سجف بن منصور: دخلتُ على رابعة وهى ساجدة فلما أحسّت بمكانى رفعت رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها. فسلّمت فأقبلت علىَّ فقالت: يا بنى ألك حاجة؟ فقلت: جئت لأسلم عليك، قال: فبكت وقالت: سَتْرَكَ اللهم سَتْرَك، ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفتُ.

إن الذى جاء يطلب الدعاء من رابعة أو يسلم عَليها لعله ينال بركة دعائها وينتفع بنصحها وعلمها جاء لغرض حميد وغاية محمودة شريفة، وكثير من العلماء والصالحين إذا جاءهم طالب بهذا المطلب فرحوا واستبشروا وربما أهمهم الشيطان أنهم أهل لتلك المنزلة وهذه المكانة، ولكن «رابعة» لم يخدعها الشيطان بهذا، بل زادت تواضعاً لربها ولم تر نفسها أهلاً لأن تدعو لأحد، ولا أهلاً لأن يزورها أحد حتى لوجاء فقط ليُسلم عليها !!

فـهل بعـد ذلك زهد وتواضع يمكن أن يصل إليـه بشـر اللهم إلا زهد الأنبياء وتواضعهم لخلق الله؟؟

وكانت رابعة رائعة الجمال، ساحرة الحسن، متفجرة الفتنة، ومع ذلك لم تتزوج ليس زهداً فى الزواج ولا إنكاراً له وإنما لاستغراقها فيما هى فيه من عبادة ربها حتى خافت أن تُقصر فى حق من سيكون معها زوجاً، له حقوق عليها يجب الوفاء بها.

وإذا كانت زينة الدنيا ووفرة الأموال واتساع الثروة مما يستهوى الكثيرات من النساء، فقد كان ذلك كله صغيراً فى عين رابعة العدوية لا يزن لديها جناح بعوضة أو أقل من ذلك، وحينما عُرض عليها الزواج من غنى ذى ثروة وجاه، ردَّت عليه ما يتفاخر به لديها ووضعته أمامه فى ميزان الحقائق الذى لا يخيب أبداً:

قال ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان»: كان أبو سليمان الهاشمى له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم فى امرأة يتزوجها فأجمعوا على «رابعة العدوية» فكتب إليها: أما بعد فإن ملكى من غلة الدنيا فى كل يوم ثمانون ألف درهم وليس يمضى إلا قليل حتى أتمها المائة ألف إن شاء الله، وأنا أخطبك نفسك، وقد بذلت لك من الصداق مائة ألف وأنا مصيِّر إليك من بعد أمثالها، فأجيبينى، فكتبت إليه:

أما بعد فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك، وكن وصىَّ نفسك ولا تجعل وصيتك إلى غيرك، وصم دهرك واجعل الموت فطرك، فما يسرُّنى أن الله خوَّلنى أضعاف ما خوَّلك فيشغلنى بك عنه طرفة عين والسلام».

لقد استوى فى عين رابعة الذهب بالترابَ، وأصبح ما يتخاصم عليه

الناس من المتاع سبباً للهم والحزن وليس مدعاة للفرح والسرور، وهكذا جعل الله في هذه الأمة من يرد للناس صوابهم ويصحح لهم موازينهم ويضبط نظرتهم في الحياة لجميع الأمور حتى يكون مقياس الفوز والفلاح والنجاح هو الإيمان والعمل الصالح فحسب، فلا حرج من الزواج ولكن لا تكون الرغبة فيه ناشئة عن حب المال والرغبة في اللهو والزينة ومتعة الحياة، فالله تعالى يبارك للزوجين في حياتهما إذا كان كل منهما عوناً لصاحبه على طاعة الله سبحانه.

لقد كان زهد «رابعة» فيما يتنافس عليه كثير ممن يدَّعون التقوى والصلاح من ذيوع الصيت وانتشار السمعة الطيبة بين الناس مضرب المثل الذى يرد الرشد والصواب لمن فَقَد رشده وصوابه فيريد بدينه دنيا الناس.

فقد قالت امرأة لرابعة: إنى أحبك فى الله، فقالت لها: أطيعى من أحببتنى له. وكانت رابعة تقول: اللهم قد وهبت لك من ظلمنى فاستوهبنى ممن ظلمته. وقال رجل لرابعة إنى أحبك فى الله، قالت: فلا تعص الذى أحببتنى له.

وقد بلغ حب رابعة مبلغاً كبيراً فى قلوب من حولها حتى كانوا يذكرونها فى دعائهم بعد موتها، ذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان عن بعض هؤلاء الذين أحبوا رابعة وتأثروا بصلاحها وتقواها، قال: كنت أدعو لرابعة العدوية، فرأيتها فى المنام تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور.

وكثيراً ما كانت ترى في منامها أو تسمع هاتفاً يهتف بها فى يقظتها يبشرها بالخير ويحضها على استمرارها فى الطريق الذى بدأته وهي راضية مطمئنة، فذكر ابن خلكان عن القشيرى فى «الرسالة» عن رابعة أنها كانت تقول فى مناجاتها:

«إلهي تحرق بالنار قلباً يحبك؟ فهتف بها مرة هاتف: ما كنا نفعل هذا، فلا تظنى بنا ظن السوء».

إن أفضل الزهد هو الزهد فى حب الثناء والمحمدة والسمعة والشهرة بين الناس، فالعابد الصالح إن لم يكن رقيباً على نفسه وكان بصيراً بقلبه ونيته وعمله فربما دخل عليه الشيطان من قِبَل هذه الطاعة فأفسدها عليه بالرياء والتصنع للخلق، وأما من زهد فى هذه الشهرة والسمعة فقد أراح قلبه وحفظ عمله وقمع شيطانه وعدوه، فأبواب قلوب الزاهدين مغلقة أمام الشيطان ولا يجد إليها سبيلاً، وقليل من عباد الله مَنْ يفطن إلى هذا الأمر ويحفظه الله من مغبته، فما هلك مَنْ هلك إلا من باب الرياء والسمعة فصارت أعماله هباءً منثوراً وذلك أحوج ما كان يحتاج إليها.

*** رابعة تودع الحياة:**

عاشت رابعة حتى بلغت الثمانين من عمرها، وقد لاقت فى حياتها ضروباً من المحن وأشكالاً من البلايا وألواناً من المعاناة، كما ذاقت فوق ذلك كله أطيب ما فى الحياة ألا وهو معرفة الله والاستئناس بذكره والفرح والسرور بطاعته والتلذذ بمناجاته فى الخلوة والأسحار، وبعد أن ذاقت حلو الحياة ومرها، لم يدب الكسل والفتور إلى جسدها حتى فى شيخوختها، فكانت دائماً تضع أكفانها أمام عينها، حتى لا تخلد إلى البطالة والدعة، فقد كانت ترى أنه لا راحة للمؤمن يجدها إلا بعد الموت حينما يخرج من الدنيا على الإيمان، فحينئذ تكون الراحة ويكون السكن، وأما قبل ذلك فلا، فإنه أوان الجد والتشمير والعمل، وحينما كانت تذكر الموت -وكان لا يفارقها ذكره- ترتعد وتكثر من البكاء رغم أحوالها الطيبة المرضية، وهكذا يكون شأن الصادقين دائماً مع ربهم.

فكيف خرجت «رابعة» من الحياة؟ وماذا كان من شأنها قبل موتها؟؟

قال ابن الجوزى فى «صفة الصفوة» عن عبدة بنت أبى شوال -وكانت

من خيار إماء الله– وكانت تخدم رابعة، قالت: كانت رابعة تصلى الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يُسْفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة: يا نفس كم تنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة النشور.

قالت: فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت. فلما حضرتها الوفاة دعتنى، قالت: يا عبدة لا تؤذنى[1] بموتى أحداً وكفِّنينى فى جبَّتى هذه، جبَّة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون.

قالت: فكفَّنَّاها فى تلك الجبَّة وخمار صوف كانت تلبسه.

قالت عبدة: رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى عليها حلة من إستبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منه. فقلت: يا رابعة: ما فعلت الجبَّة التى كفنَّاك فيها والخمار الصوف؟ قالت إنه والله نُزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه علىّ. وطُويت أكفانى وخُتم عليها ورفعت فى عِلِّيين ليكال لى بها ثوابها يوم القيامة.

قالت: فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا من كرامة الله عز وجل لأوليائه. قالت فقلت: فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب؟ فقالت: هيهات هيهات، سبقتنا والله إلى الدرجات العُلَى. قالت: قلت: وبم وقد كنت عند الناس؟ أى أكثر منها –تعنى جهداً وعملاً وشهرة ومكانة– قالت: إنها لم تكن تبالى على أية حالة أصبحت من الدنيا وأمست.

قالت: فقلت: فما فعل أبو مالك؟ تعنى ضَيْغماً. قالت: يزور الله متى شاء. قالت: قلت: فما فعل بشر بن منصور؟ قالت: نَجٍ نَجٍ أُعطى والله فوق ما كان يأمل.

---

(١) أى لا تخبرى بموتى أحداً.

قالت: قلت: فمُريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل. قالت: عليك بكثرة ذكره، أوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك.

وقد كانت وفاتها سنة ثمانين ومائة وقيل خمس وثمانين ومائة وقد دفنت بالقدس وقبرها شرقيه على رأس جبل الطور.

وهكذا كرامة الله لأوليائه وخيرة عباده لا تنقطع حتى بعد موتهم، فإن ذكراهم تحيي في القلوب الهمم الفاترة حتى تستيقظ وتنتفض لتنهض إلى الجهد والعمل، ولقد أوصت رابعة إلى عبدة في منامها بكثرة ذكر الله في الدنيا فهذا هو الزاد الذي رحل به المؤمنون في سفر الآخرة، ونعم الزاد ذكر الله فهو أفضل الأعمال وأثقلها في الميزان.

وقد امتلأت حياة رابعة بألوان الطاعات كلها، فمن أراد أن يرى فيها العلم وجدها فقيهة بصيرة بدينها، ومن أراد أن يرى زهدها وجدها على منهج الصحابة السابقين في عزوفهم عن متعة الحياة رغبة فيما عند الله من نعيم الآخرة، ومن أراد أن يراها بين المتهجدين بالليل والمستغفرين بالأسحار وجدها في هذا المضمار سبّاقة في مقدمة هؤلاء جميعاً حتى ما عاد في ليلها موضعُ لسهو أو غفلة أو معصية، ومن أراد أن يرى فيها الخوف والخشية وجد دموعها على خدها برهاناً ودليلاً على امتلاء القلب بالإيمان الصادق الذي يشعر معه العبد بعظمة ربه وكبريائه وجلاله، فيخشى عند ذلك من بطشه وعقابه كما أنه يطمع أيضاً في عفوه وكرمه وعطائه، ومن أراد أن ينظر إلى تواضع الصالحين وانكسارهم بين يدي الله فها هي لا ترى نفسها في موضع تستحق معه أن يزورها أحد ليسلم عليها أو يقصدها في دعاء، فهي أهون في عين نفسها أن يكون دعاؤها مستجاباً حتى يقصدها الناس لذلك.

علم. زهد. ذكر. تواضع. خشية. حب. بكاء. بصيرة. تهجد وقيام. كم من الناس في أي زمان أو مكان يمكن أن تجتمع فيه هذه الخصال كلها

ممثلة فى أجلى صورها وأعظم معانيها كما تجسدت بحقيقتها فى «رابعة أم الخير» -رحمها الله- وأكثر الله فينا من أمثالها فهذه الأمة ليست عقيماً من الخير ولكنها أمة ولود وخيرها لا ينقطع بإذن الله إلى يوم الدين(*).

(*) وقد جاء ذكر رابعة العدوية البصرية بنت إسماعيل مولاة آل عتيك فى كتب أهل السيرة والتراجم، وهى مشهورة بالصلاح والتقوى فى معظم من ذكروا تاريخها، وهذه بعض التراجم التى عنيت بذكرها وترجمة أخبارها وحياتها:

١ - صفة اصفوة لابن الجوزى.
٢ - وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان لابن خلكان.
٣ - حلية الأولياء والرسائل لابى نعيم الأصفهانى.
٤ - عيون الأخبار لابن شاكر الكتبى.
٥ - مرآة الجنان لليافعى.
٦ - تحفة الأحباب للسخاوى.
٧ - لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار للشعرانى.
٨ - عوارف المعارف لعمر بن محمد السهروردى.
٩ - البداية والنهاية لابن كثير.
١٠ - الرسالة للقشيرى.
١١ - النجوم الزاهرة لابنّ تغرى بردى.
١٢ - شذرات الذهب لابن العماد.
١٣ - الوافى بالوفيات للصفدى.

وغيرهم كثير ممن أثنى عليها وذكرها بالخير...

فصـــل

عُفَيْرة العابدة

إذا كـان لكل داء دواء، فـإن عـفـيـرة بنت الوليـد البـصـرية لا ترى لداء الذنوب والمعاصى إلا دواء البكاء والدموع، فـهناك من الذنوب مـالا يمحوه الله إلا بدمع العين، وهكذا كانت عفيرة –رحمها الله– قوَّامة بالليل كثيرة البكاء بين يدى الله، ولا يمر بها حدث من أحداث الحياة إلا وتربطه بأحداث الآخـرة فـيـهـيـجُـهـا ذلك على البكاء حـتى لا تكف عنه فى خلوتهـا ولا جلوتها.

قال روح بن سلمة الورَّاق لعـفـيرة العابدة: بلغنى أنك لا تنامين بالليل، فبكت، ثم قالت: ربما اشتهيت أن أنام فلا أقدر عليه، وكيف ينام من لا ينام عنه حافظاه ليلاً ولا نهاراً؟

قال: فأبكتنى والله، وقلت فى نفسى: أرانى فى شيئ وأراك فى شيئ.

وهكذا نرى الصالحين فى كل زمان غرباء، أجسادهم تمشى على الأرض بين الناس وأرواحهم وقلوبهم تطوف فى ملكوت السموات، فالغيب عندهم كأنه شهادة، ومن أبصر مَلَكَيْهِ مُتَحَفِّزَيْنِ لتسجيل كل صغيرة وكبيرة عليه، ولا يغفل أحدهما ولا ينام فى ليل أو نهار، فكيف يسهو من تُسجل عليه حركاته وأفعاله، وكيف يَغفل من لا يغفل عنه حافظاه من الملائكة؟؟ هذه هى يقظة أولى الألباب، وهذا ما جعلهم يصلون الليل بالنهار فى عمل دءوب وجهد لا ينقطع، وكان النوم لا يأتيهم إلا غلبة، فهناك قوم يستدعون النوم وهؤلاء هم الفارغون من أعمال الآخرة، وهناك آخرون يستدعيهم النوم، فيجتهدون حتى أخر طاقة لديهم من العافية، حتى إذا نفد مالديهم من قوة فهنا وجب حق الجسد فى الراحة طوعاً أو كرهاً.

قال محمد بن الحسين: وحدثني سعيد العِمِّي قال: قلت لعفيرة: أما تسأمين من طول البكاء؟ قال: فبكت ثم قالت: يا بني كيف يسأم ذو داءٍ من شيء يرجو أنَّ له فيه من دائه شفاء، قال: ثم بكت. فقمت فخرجت وتركتها.

وعن يحيى بن راشد أنه قال: كنا عند عفيرة العابدة فقدم ابن أخٍ لها كانت طالت غيبته فَبُشِّرت به، فبكت فقيل لها: ما هذا البكاء؟ اليوم يوم فرح وسرور، فازدادت بكاءً ثم قالت: والله ما أجد للسرور فى قلبى مسكناً مع ذكر الآخرة، ولقد ذكرنى قدومه يوم القدوم على الله، فمن بين مسرور ومثبور(١). ثم غُشي عليها.

إن المؤمن له فى كل حدث من أحداث الحياة عبر ة وآية، ويرى تصاريف الحياة وتتابع أيامها رسائل من الحق مبعوثة منه إلى الخلق، ولا يجيد قراءة الرسائل إلا من رزقه الله فهماً وبصيرة، فعين القلب هي القارئة، فإذا عميت القلوب لم تعِ من رسائل ربها شيئاً وتمر عليها أحداث الحياة مَرَّ الكرام دون أن تستوقفها الحكمة من وراء تصاريف القَدَر أو تدرك الغاية من وراء النعمة والبلاء، فهذه اللغة لا يتعلمها الناس بالاكتساب ولكنها محض فيض من العزيز الوهَّاب.

قال يحيى بن بسطام: دخلت مع نفر من أصحابنا على «عفيرة»، وكانت قد تعبدت وبكت حتى عميت: فقال بعض أصحابنا لرجل إلى جنبه: ما أشدّ العمى على من كان بصيراً. فسمعت عفيرة فقالت له: يا عبد الله عمى القلب والله عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا، والله لوددت أن الله وهب لى كُنْهَ(٢) محبته وأنه لم تبق منى جارحة إلا أخذها.

---

(١) أى هالك خاسر.

(٢) اى لُبّها وحقيقتها.

وقال مالك بن ضَيْغم: سمعت عفيرة تقول: عصيتك بكل جارحة منى على حدتها، والله لئن أعنت لأطيعنك ما استطعت بكل جارحة عصيتك بها.

لقد وضعت «عفيرة» أيدينا على حقيقة التوبة وأجلى معانيها، فليست التوبة فقط هى تعصير العيون من الدموع ولا اعتذار اللسان وإقراره بالخطأ، وإنما حقيقة التوبة هى استعمال الجوارح التى عصت ربها بعد ذلك فى طاعته ومرضاته ومحبوباته، فمن عصى ربه بعينه بالنظر إلى الحرام تاب من ذلك بدوام النظر فى مخلوقات الله للعبرة والاتعاظ مع دوام النظر فى القرآن كلام الله للتأمل والتدبر، فكلا النظرين إلى الآيات الكونية والآيات القرآنية يربو معه الإيمان فى القلب كما يربو الماء فى القدر إذا استجمعت غلياناً، وكما يفيض الماء من القِدْرِ لشدة غليانه، فهكذا يفيض الإيمان من القلب أيضاً على الجوارح حتى يغمرها بالنور والعصمة والحفاظة.

وإذا كان التواضع هو التاج الموضوع على رءوس الصالحين الصادقين، فهكذا كانت عفيرة فى نفسها متواضعة منكسرة لا تتكبر ولا تتعالى، ولا يدعوها كثرة بكائها ورقة قلبها إلى الفخر والخيلاء على من حولها، وهذا التواضع هو الذى يكيد الشيطان حيث لا يجد مدخلاً لقلوب هؤلاء الكبار المخلصين الذين أجهدوا شيطانهم وهزموه شر هزيمة حتى خرج من حربهم مُنَكَّسَ الأعلام مكسور الجناح.

قال محمد بن عبيد: دخلنا على امرأة بالبصرة يقال لها عفيرة، فقيل لها: يا عفيرة ادعى الله لنا. فقالت: لو خرس الخاطئون ما تكلَّمت عجوزكم، ولكن المحسن أمر المسيئ بالدعاء، جعل الله قِراكم(١) من بيت الجنة، وجعل الموت منى ومنكم على بال.

---

(١) القرى: ما يُقدم للضيف.

المؤمن هكذا لا يرى فرصة للدعوة وتوجيه قلوب العباد إلى رب العباد إلا اغتنمها وجعل منها سبباً لتغيير الأفكار من التجوال فى الدنيا وزينتها وشهواتها إلى التجوال فى ملكوت الآخرة حيث دار الحق والنعيم المقيم الذى لا يفنى ولا يزول، رحم الله «عفيرة» البَكَّاءة بالليل من خشية الله المستغفرة بالأسحار بعد طول الصلاة والقيام والمجاهدة ابتغاء رحمة الرحمن.

* * *

فصــل

زجلة العابدة مولاة معاوية

هذه إحدى عابدات البصرة الصالحات والتي اشتهرت بالتقوى والصلاح، وقد اجتهدت فى الطاعة حتى ضعف جسدها ووهنت قوتها وأشفق عليها من حولها.

قال أحمد بن سهل الأزدى: دخل على «زجلة العابدة» نفر من القرَّاء فكلموها فى الرفق بنفسها، فقالت: مالى وللرفق بها؟ فإنما هى أيام مُبادرة[1]، فمن فاته اليوم شئ لم يدركه غداً. والله يا إخوتاه لأُصلِّين له ما أقلَّتنى جوارحى، ولأصومنَّ له أيام حياتى، ولأبكين له ما حملت الماء عيناى. ثم قالت أيكم يأمر عبده بأمر فيحب أن يقصِّر فيه؟؟

إن الجوارح مخلوقة لتستعمل فى معرفة الخالق وطاعته، فإذاتعطلت عن هذه الوظيفة واستعملها العبد لشهوته وهواه فحينئذ فهذه الجوارح عليه نقمة لا نعمة، وتكون سبباً يسوقه إلى النار بعدما كانت سبباً يأخذ بيده إلى الجنة، وهكذا لا ترى «زجلة» جوارحها سوى أنها أمانة يجب حفظها واستعمالها فقط لما خُلقت له، وإذا أهملتها وعطَّلتها عن وظيفتها فمن ذا الذى سيأتيها بعُمْر جديد وأيام جديدة حتى تعمل فيها صالحاً تتقرب به إلى ربها؟؟ ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال أبو عتبة الخوَّاص: دخلنا على زجلة العابدة، وكانت قد صامت حتى اسودّت،وبكت حتى عمشت، وصلَّت حتى أُقعدت، وكانت صلاتها

---

(١) سريعة المرور والانقضاء.

قاعدة. فسلَّمنا عليها ثم ذكَّرناها شيئاً من العفو أردنا أن نُهوِّن عليها الأمر هناك.

فشهقت ثم قالت: علمي بنفسي قرَّح فؤادى، وكَلَم قلبى[1]، والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أكن شيئاً مذكوراً. ثم أقبلت على صلاتها وتركناها فخرجنا من عندها.

وكان لها فوق حظها من العبادة حظ من المشاركة في الجهاد لإعلاء كلمة الله، فالمؤمن الذى يغار على دينه لا يستحى أن يقدم أى جهد لمؤازرة الحق ودحض الباطل مهما كان جهده ضئيلاً صغيراً، فالعبرة كلها هي بالتضحية بالموجود دون تكلف المفقود. قال كليب بن عيسى بن أبى حجير: كانت زجلة لا ترفع بصرها إلى السماء، وكانت تخرج إلى الساحل فتغسل ثياب المرابطين. وقال كليب: سمعت سعيد بن عبد العزيز يقول: ما بالشام ولا بالعراق أفضل من زجلة. فهذه كانت مكانتها بين خيار قومها، وكانت فوق عبادتها وتقواها وصلاحها لها باع طيب فى العلم ورواية الحديث فقد حدثت عن سالم بن عبد الله ونافع مولى ابن عمر وأم الدرداء وابن أبى زكريا وعمر بن عبد العزيز. وقد حدث عنها بعض رواة الحديث مثل صدقة بن خالد وكليب بن عيسى الثقفى وسليمان بن أبى داود، وهكذا يجتمع الفضل كله حينما يكون العلم مشفوعاً بالعمل، ويكون العمل صحيحاً بنور العلم والمعرفة..

---

(١) أى جرحه.

فصـــل

ميمونـة السـوداء

لله تعالى أولياء أتقياء أخفياء لا يعلمهم كثير من الناس، ولذلك لا يجب على المسلم أن يحقر مسلماً أيًّا كان شأنه فلعله من أولياء الله وخاصة عبادة المؤمنين، فرُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لا يُؤبه له لو أقسم على الله لأبره.

وهذا كان شأن «ميمونة السوداء» العابدة الصالحة التقية وهى فى بادية من البوادى ترعى بعض الغنم، فهل لهذه البدوية الراعية شأن عظيم عند الله؟ نعم. فالله لا ينظر إلى الصور والمناصب والألقاب وإنما ينظر إلى القلوب والنوايا، وأكرم خلقه عنده أطهرهم قلباً وأزكاهم نفساً وأَرَقُّهم فؤداً.

قال ابن الجوزى عن الفضيل بن عياض قال: قال عبد الواحد بن زيد: سألت الله عز وجل ثلاث ليال أن يرينى رفيقى فى الجنة. فرأيت كأن قائلاً يقول: يا عبد الواحد رفيقك فى الجنة ميمونة السوداء. فقلت: وأين هى؟ فقال: فى آل بنى فلان بالكوفة.

قال: فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها فقيل: هى مجنونة بين ظهرانينا ترعى غُنيمات لنا، فقلت: أريد أن أراها. قالوا: اخرج إلى الجبَّان(1)، فخرجت فإذا بها قائمة تُصلى، وإذا بين يديها عُكَّاز لها وعليها جبة من صوف، عليها مكتوب: لا تباع ولا تشترى. وإذا الغنم مع الذئاب، فلا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تخاف الذئاب.

فلما رأتنى أوجزت فى صلاتها ثم قالت: ارجع يا ابن زيد ليس الموعد

---

(1) أى مكان المقابر.

هنا إنما الموعد ثَمَّ. فقلت: رحمك الله ومن أعلمك أنى ابن زيد؟ فقال: أما علمت أن الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف؟ فقلت لها: عظينى؟ قالت: واعجباً لواعظٍ يوعظ ثم قالت: ياابن زيد إنك لو وضعت معايير القسط على جوارحك لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها، يا ابن زيد إنه بلغى أنه ما من عبدٍ أُعطى من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حب الخلوة معه، وبدله بعد القرب البُعْد، وبعد الأنس الوحشة، ثم أنشدته شعراً.

فقال لها: إنى أرى هذه الذئاب مع الغنم، فلا الغنم تفزع من الذئاب، ولا الذئاب تأكل الغنم، فأى شئ هذا؟ فقالت: إليك عنِّى فإنى أصلحت ما بينى وبين سيدى فأصلح بين الذئاب والغنم !!

هل يخطر ببال أحد أن تكون هذه الحكمة والبلاغة والروعة كامنة فى بدوية ترعى غنيمات فى بادية من البوادى، ويُظهر الله لها كرامة كتلك التى ظهرت فى عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز؟ نعم هؤلاء هم صنعة الإسلام وأولئك هم جنوده الذين صانوه وحملوه وحفظوه فأعزَّهم الله به فى الدنيا والآخرة.

فصـل

حبيبـة العدويـة

أتى حين من الدهر على مـدينة البـصـرة كـانـت تموج بالصـخب واللهـو والترف والفساد، وفي مقابل هذا التيار الجارف من الضلالة والفجور فقد كان هناك تيار الزهد والتقوى والصلاح، وكما تجرى سنة الله الباقية فالزبد ذهب جفاءً ورحل الفجار والمترفون من الدنيا وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم، وخرجوا من الحياة وقد خلَّفوا فيها الذكر السَّيِّء والسيرة الفاسدة، أما الزُّهاد والعُبَّاد الصالحون فحدِّث عنهم ولا حرج، فقد بلغوا قمة الطهر والنقاء، وإذا كان غيرهم على قمة الفجور والفساد فهم قد وصلوا بإيمانهم وطاعتهم إلى قمة الهدى والصلاح، وقد سَجَّل التاريخ أقوالهم المأثورة وكأنها حروف من نور تهدى الحائر في دياجير الظلام، وتدل الضال على طريق الفوز والفلاح، ومن هؤلاء الذين اشتهرت بهم البصرة في الزهد والصلاح « حبيبة العدوية » وما أشبهها بـ « رابعة العدوية » في مناجاتها وصلاتها وزهدها وورعها وتقواها.

عن عبد الله المكِّي أبي محمد قال: كانت حبيبة العدوية إذا صلَّت العتمة[1] قامت على سطح فشدت عليها درعها وخمارها. فقالت:

« إلهي، غارت النجوم، ونامت العيون، وغلَّقت الملوك أبوابها، وبابك مفتوح، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك »

فإذا كان وقت السحر قالت:

« اللهم وهذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر[2]، فليت شعرى هل

---

(١) صلاة العشاء.

(٢) أى أضاء.

قبلت منى ليلتى فأُهنَّى أم رددتها علىَّ فأعزَّى ، فوعزَّتك لهذا دأبى ودأبك أبداً ما أبقيتنى، وعزَّتك لو انتهرتنى ما برحت من بابك ولا وقع فى قلبى غير جودك وكرمك ».

هذا الود الذى تنبض به هذه الكلمات يدل على صلة حية بين « حبيبة » وبين ربها، فليست العلاقة علاقة رسمية روتينية، ولكنها صلة الحب التى ينبغى أن تكون بين العبد وربه ، ورغم أنها لم تقض ليلها فى غفلة أو معصية إلا أن قلبها يحوطه الخوف والوجل خشية أن يكون الله لم يقبل منها هذا القيام والدعاء والمناجاة، وتلك علامة الصدق والإخلاص، فالمؤمن لا يَمُنّ على ربه بعبادته ولا يخلد إلى الأمان والراحة ويعتقد أنه حتماً من أهل الجنة، فهو يقدم أعماله الصالحة مع الخوف والخشية والوجل أن تُرد عليه أعماله وهذا هو حال أهل المعرفة الحقة وليس حال المغرورين المخدوعين الذين يَمُنّون على الله بأعمالهم.

والإصرار على الطاعة ولزوم الاستقامة من علامات ثبات النفس على الحق، فهذا الصلاح هو دأبها ما دامت فى دنيا الناس لا تغيرها الظروف ولا يثنى عزمها توالى الليالى والأيام.

* * *

فصـــل

نفيسة بنت الحسن بن زيد

كانت تدعى «نفيسة العلم» فهى فقيهة عابدة من ربات العبادة والصلاح والزهد والورع، ولدت بمكة سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة ونشأت بالمدينة ودخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق، وقيل: مع أبيها الحسن الذى عُين والياً على مصر من قبل أبى جعفر المنصور فأقام بالولاية خمس سنين، ثم غضب عليه المنصور فعزله واستصفى كل شئ له وحبسه ببغداد فلم يزل محبوساً حتى مات المنصور وولى المهدى فأخرجه من محبسه ورد عليه كل شيء كان قد ذهب له.

ونفيسة حفيدة الحسن بن علىّ - رضى الله عنهما - فهى من آل بيت النبى ﷺ وتجرى فى عروقها نفحة من نفحات النبوة العطرة، ولكنها لم ترتكن إلى هذا النسب الشريف وتترك العمل والمجاهدة، فيوم القيامة هناك لا أنساب ولا ألقاب اللهم إلا ما كان من عمل صالح خالص لوجه الله وحده دون سواه، وهذه وصية جدها المصطفى ﷺ لآل بيته جميعاً حينما وضعهم أمام الموازين الحقة التى لا تجامل ولا تداهن فقال لهم: «سلونى من مالى ما شئتم، لا يأتينى الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم، واعلموا أن من بَطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه».

نعم، فالأعمال وحدها هى محل الصدق ومقياس الإخلاص واليقين، ومن قَلَّت أعماله عن المراد أو شابها شبهة من رياء وسمعة فحينئذ لا نسب يسرع به إلى الدرجات العلى التى لا يرقى إليها إلا الطيبون الصادقون الصالحون.

* الفقيهة العابدة :

لقد حفظت «نفيسة بنت الحسن» القرآن الكريم وتفسيره، ويروى أن الإمام الشافعى لما دخل مصر حضر إليها وسمع منها الحديث، وفى هذا دلالة قوية على أنها ثقة حجة فى الرواية عن النبى ﷺ حتى قصدها العلماء يبتغون عندها العلم النافع وعلى رأس هؤلاء الشافعى - رحمه الله - إمام أهل عصره وأحد الأئمة المشهورين صاحب المذهب الذائع الصيت فى الفقه والأحكام الشرعية.

وكانت «نفيسة» كثيرة البكاء تديم قيام الليل وصيام النهار، وكانت لا تأكل إلا فى كل ثلاث ليال أكلة واحدة، ولا تأكل من غير زوجها شيئاً[1].

ولقد حَجَّت ثلاثين حجة، رغم شدة الأحوال وقسوة ظروف الأسفار فى تلك الأزمان، فقد كان الحجاج يتعرضون فى طريقهم للحج إلى المخاطر والمهالك كاللصوص وقُطَّاع الطُرُق والمجرمين الذين يقطنون الجبال والبرارى ويعيشون على النهب والسرقة، وهذا فضلاً عن وحوش الصحارى أو نفاد الطعام والماء، وكان الناس فى تلك الأزمان يعتبرون الحاج الذى يعود من الحج من أولياء الله المجاهدين، لأنه تكبَّدَ هذه المشقة حتى بلغ البلد الحرام ووفقه الله للطواف والسعى وأداء المناسك. وكانت «نفيسة» تبكى بكاءً شديداً وتتعلق بأستار الكعبة وهى تقول: «إلهى وسيدى ومولاى متعنى وفرحنى برضاك عنّى».

وقالت زينب بنت يحيى المتوِّج: خدمت عمتى نفيسة أربعين سنة فما رأيتها نامت الليل ولا أفطرت بنهار، فقلت لها: أما ترفقين بنفسك؟ فقالت: كيف أرفق بنفسى وقدامى عقبات لا يقطعها إلا الفائزون.

وكان بشر بن الحارث الحافى يزورها فمرض بِشْر مرة فعادته نفيسة فبينا

(١) أى لا تقبل طعاماً ولا مالاً من أحد ولا تأكل إلا بما يأتيه به زوجها من ماله وكسبه.

هى عنده إذ دخل الإمام أحمد بن حنبل يعوده كذلك، فنظر إلى نفيسة فقال لبشر: من هذه؟ قال له بشر: هذه نفيسة بلغها مرضى فجاءتنى تعودنى. فقال الإمام أحمد لبشر: فاسألها تدعو لنا. فقال لها بشر: ادعى الله لنا. فقالت: اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين.

هذان إمامان من أئمة الأمة الكبار: بشر بن الحارث الحافى قمة الورع وأحمد بن حنبل قمة التقوى والعلم والصرامة فى الحق، هذان يطلبان إلى نفيسة الدعاء لهما، وهكذا المؤمن لا تأتيه فرصة من فرص الخير إلا ويأخذ منها بسهم ونصيب، فالدعاء من الصالحين غنيمة لا يزهد فيها إلا جاهل أحمق، والجهل والحمق لا يعرفان إلى قلوب الصالحين سبيلاً، فهم أهل العلم والبصيرة وأولى الناس بالخير والفضيلة.

وكانت نفيسة ذات مال وإحسان إلى المرضى والزمنى[١] والجذماء[٢]، وكانت تحسن إلى الإمام الشافعى حينما ورد إلى الديار المصرية، وربما صلّى بها إماماً، وذكروا أن الإمام الشافعى زارها وهى من وراء حجاب وقال لها: ادعى لى وكان فى صحبته عبد الله بن الحكم.

ولما توفى الشافعى أمرت بجنازته فأدخلت إليها فصلّت عليه، وقيل إنها لما بلغها الخبر قالت: رحم الله الشافعى فقد كان يحسن الوضوء !!

وهل للوضوء هذه الفضيلة وتلك المَنْقبة[٣] حتى تذكرها نفيسة للإمام الشافعى بعد موته؟ إن هذا التعقيب على خبر الوفاة لا يخرج إلا من فقيه عالم بدينه بصير بطاعة ربه، فلولا صحة الوضوء لما صحَّت الصلاة، والصلاة هى صلة العباد بربهم، فلو وهنت هذه الصلة وطرأ عليها الخلل فأى حظ

---

(١) أصحاب الأمراض المزمنة التى لا يُرجى شفاؤها.

(٢) المرضى بمرض الجذام.

(٣) أى الفضيلة والخصلة الحميدةُ.

بقى للعبد من طاعته ربه؟ والصلاة هى عماد الدين وهى معراج المؤمن الذى تعرج عليه روحه ليزداد من ربه قرباً وأنساً وحبًّا؟؟

* **شجاعة آل البيت :**

صفات الجرأة والإقدام والشجاعة قد تحلى بها الإمام علىّ -رضى الله عنه- منذ كان فتىً صغير السن، ولم تفارقه هذه الصفات والشمائل الكريمة حتى فارق الدنيا إلى الرفيق الأعلى، وقد توارث أبناؤه وأحفاده هذا الميراث العظيم، فصار آل البيت لا يهابون أى مخلوق مهما كان جبروته وبطشه وسلطانه، وأصبحوا لا يخشون فى الحق لومة لائم ويجهرون بهذا الحق حتى لو كان مُرّاً ولا يعبأون بالعواقب التى قد تصير إليها الأمور، فليكن الحق عالياً وليكن بعد ذلك ما يكون..

قيل: لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها. فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: فى غد، فكتبت رقعة ووقفت بها فى طريقه وقالت: يا أحمد بن طولون. فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه وأخذ منها الرقعة وقرأها فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم(١)، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها وأكباد جوعتموها وأجساد عريتموها فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم. اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا بالله مستجيرون، واظلموا فإنا إلى الله متظلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. فعدل لوقته.

لقد واجه آل البيت محنة شديدة بعد صدامهم مع بنى أمية وعقب ما كان من قتلهم للحسين وكثير من أهل البيت معه فى كربلاء، ولكن هذه المحن والشدائد لم تضعف عزمهم ولم توهن قوتهم، وحينما تعرضوا لهذا

---

(١) أى أعطاكم الله نعمة وحملكم أمانة فظلمتم وجرتم ولم تعدلوا.

الظلم الجائر والآلام القاسية لم تلن لهم في الحق قناة، وإنما كانوا يصدعون به في وجوه الظلمة والجائرين حتى يرجعوا بالحق إلى أصحابه من المقهورين المظلومين.

وما هي العدة والسلاح الذى يواجهون به ظلم الظالمين؟ إنه لم يكن سيفًا ولا رمحًا ولا سهامًا، ولكنه كان كلمة الحق الجريئة، والنصيحة المجردة عن الغرض والهوى، فكان كلماتهم تنزل على الظالمين كالصواعق المحرقة فلا يصمدون أمامها ولا يستطيعون الهرب أو الفرار منها، فتزلزل أقدامهم وترعب قلوبهم فتستيقظ ضمائرهم حينما يتذكرون أن عين المظلوم لا تنام، ودعاؤه فى الليل تفتح له أبواب السماء، وشكواه تصعد فوق الغمام وليس بينها وبين الله حجاب، والله بعزته وجلاله يقول لهذا المظلوم: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين، وفوق ذلك كله التصفية الكبرى للحساب يوم الحساب.

إن هذا السلوك فى نصيحة الأمراء والملوك هو أسلوب أهل العلم والفقه والحكمة، فليس المراد هو إحراج الحاكم أو تحقيره أو التنقيص من شأنه، وإنما المراد أن يقوم فى رعيته بالعدل ويضع بينهم موازين القسط ويجعل ضميره هو الحارس القابع فى صدره الذى يمنعه من الجور ويصده عن الظلم، وهكذا تكون نصيحة العلماء الربانيين، فهم لا يريدون ملكاً ولا مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً، وإنما مرادهم من وراء النصيحة إرادة الخير بالراعى والرعية، وهذا ما فعلته «نفيسة بنت الحسن» رحمها الله – فقد وجهت الراعى إلى العدل والحق وذكرته بالله والورود بين يديه، كما وجهت الرعية إلى الدعاء بالأسحار واللجوء إلى الدعاء والتحلى بالصبر حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

*** مكانتها فى قلوب أهل مصر :**

بعد محنة آل البيت فى كربلاء، وتحملهم للمهانة والشدة والأذى، فقد

تأثر بمصابهم الأليم هذا أهل مصر، وتحركت عواطفهم بالمحبة والاحترام والمواساة لآل البيت، وأصبح لحبهم وتقديرهم في قلوب المصريين أكبر رصيد وأعظم قدر ومكانة.

وقد مرضت نفيسة بعد أن أقامت بمصر سبع سنين، فكتبت إلى زوجها إسحاق المؤتمن كتاباً، وحفرت قبرها بيدها في بيتها فكانت تنزل فيه وتصلى كثيراً فقرأت فيه مائة وتسعين ختمة(١)، وما برحت تنزل فيه وتصلى كثيراً وتقرأ كثيراً وتبكى بكاءً عظيماً حتى احتضرت سنة ثمانية ومائتين للهجرة وهى صائمة فألزموها بالفطر وألحوا وأبرموا فقالت: واعجباً منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه وأنا صائمة أأفطر الآن؟! هذا لا يكون ثم قرأت سورة الأنعام، وكان الليل قد هدأ فلما وصلت إلى قوله تعالى: «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون» غشى عليها ثم شهدت شهادة الحق وقبضت إلى رحمة الله.

فوصل زوجها إلى مصر في يوم وفاتها فقال: إنى أحملها إلى المدينة وأدفنها بالبقيع. فاجتمع أهل مصر إلى أمير البلد واستجاروا به عند إسحاق ليرده عما أراد فأبى، فجمعوا له مالاً جزيلاً حتى وسق بعيره الذى أتى عليه وسألوه أن يدفنها عندهم فأبى، فباتوا منه فى ألم عظيم، فلما أصبحوا اجتمعوا إليه فوجدوا منه غير ما عهدوه بالأمس فقالوا له: إن لك لشأناً عظيماً. قال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لى: رد عليهم أموالهم وادفنها عندهم. فدفنها في المنزل الذى كانت تسكنه فى محلة كانت تعرف قديماً بدرب السباع، وقد بادت ولم يبق منها سوى قبرها. ولأهل مصر اعتقاد بها عظيم فيقال: إن الدعاء يستجاب عند قبرها. ولكن الذهبى تتبع هذا القول فقال: ولم يَبْلُغْنا من مناقبها، ولِلُجُّهال فيها اعتقاد لا يجوز

---

(١) الختمة قراءة القرآن كله من أوله إلى آخره.

وقد يبلغ بهم إلى الشرك بالله فإنهم يسجدون للقبر ويطلبون منه المغفرة. وهذا كله جهل وشرك وعمى، فالواجب هو حب آل البيت والدعاء لهم والاقتداء بهم والتأسي بسيرتهم فى التقوى والصلاح والدين وليس الاعتقاد فى أنهم أرباب ينفعون أو يضرون، فلا نافع ولا ضار إلا الله وحده..

* * *

فصــل

امرأة رياح القيسى

الزوجة الصالحة هى خيرة متاع الحياة الدنيا، وما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة تعينه على أمر دينه ودنياه، إذا نظر إليها سَرَّتْهُ وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله، وهكذا كانت زوجة رياح القيسى – رحمها الله.

إنها إحدى عابدات البصرة المعروفة بامرأة رياح القيس وهو زوجها وكان أيضاً من الصالحين، ولم تكن كغيرها من النساء تبحث عن الزينة والمتاع، وتسعى خلف الحُلىّ والجواهر واللآلئ، وإنما كانت تعرف قيمة دقائق الليل الغالية وتراها أغلى من الذهب والفضة فلا تفرِّط فيها ولا تتركها تضيع دون أن تغتنم فيها عملاً صالحاً يقربها إلى ربها.

قال أبو يوسف البزاز: تزوج رياح القيسى امرأة فبنى بها. فلما أصبح قامت إلى عجينها. فقال: لو نظرت إلى امرأة تكفيك هذا. فقالت: إنما تزوَّجت رياحاً القيسى ولم أرنى تزوجت جباراً عنيداً. فلما كان الليل نام ليختبرها. فقامت ربع الليل ثم نادته: قم يا رياح. فقال: أقوم. فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يارياح. فقال: أقوم. فلم يقم. فقامت الربع الآخر ثم نادته فقالت: قم يارياح، فقال: أقوم. فقالت: مضى الليل وعسكر المحسنون وأنت نائم، ليت شعرى من غَرَّنى بك يا رياح. قال: وقامت الربع الباقى.

هذه همة زوجة صالحة مؤمنة تدفع زوجها إلى الطاعات وتأخذ بيده إلى الصالحات، ولا تكلفة فى أعباء البيت فوق المزيد، وحينما رأت منه كسلاً وفتوراً حزنت وتألمت، فقد كانت تظنه من قُوَّام الليل والمستغفرين

بالأسحار، فوجدته ينام الليل كله ولا يأخذ له مكاناً فى صفوف المحسنين الطيبين، فرأت نفسها كأنها خسرت وخُدعت وغُرّرَ بها، فلم تغضب من قلة المال أو الثياب أو الطعام أو الأثاث، ولم تنكر على زوجها تقصيره معها فى النفقة والإكرام والإحسان والمعاملة، ولكنها غضبت لربها لا لنفسها، حينما رأت زوجها على فراشه نائماً وليس له حظ من قيام الليل وهو زاد المحسنين، فكيف سيأخذ زاده لسفر الآخرة الطويل المديد؟؟

ومن هوان الدنيا عليها ما حكاه زوجها رياح حينما قال: اغتممت مرة فى شئ من أمر الدنيا، فقالت: أراك تغتمّ لأمر الدنيا، غرَّنى منكم شُميط(١) بن عجلان. ثم أخذت هُدبة(٢) من مقنعتها(٣) فقالت: الدنيا أهون علىّ من هذه.

فإذا رأى الزوج دنياه التى غَمَّته قد صارت هيّنة فى عين زوجته حتى ما تساوى خرقة بالية أو قطعة قماش لا تساوى درهماً فهل ينشغل قلبه بهموم صغيرة لا ينبغى أن يكون لها مكان فى قلب مؤمن؟؟

هذه هى الزوجة التى تخفف عن زوجها لأواء(٤) الحياة وهموم الدنيا، فبهذا اليقين الراسخ والصدر الواسع والعقل الناضج والفؤاد الكبير تمسح الجراح عن زوجها وتُصغِّر فى عينه ما يراه من أحزان وهموم، فمن جعل الهموم همّاً واحداً هَمَّ آخرته كفاه الله هَمَّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله فى أى واد من أودية الدنيا هلك.

ولم يكن تعبد امرأة رياح القيسى مدعاة لتكبرها على زوجها أو الإجحاف بحقه كزوج يريد أن يحصن فرجه ويُعِف نفسه، فلم تأخذها

---

(١) شميط هو الذى كان سبباً فى زواجها من رياح القيسى.

(٢) قطعة.

(٣) المقنعة: ما تقَنّعُ به المرأة رأسها كخمار ونحو.

(٤) اللأواء: الشدة.

نشوة الطاعة إلى نسيان حقوق العباد وأولاهم عليها هو حق زوجها ولى أمرها.

قال رياح القيس: ذُكرت لى امرأة فتزوجتها، فكانت إذا صلّت العشاء الآخرة تطيبت وتدخَّنت[1] ولبست ثيابها ثم تأتينى فتقول: ألك حاجة؟ فإن قلت: نعم، كانت معى، وإن قلت: لا، قامت فنزعت ثيابها ثم صفَّت بين قدميها حتى تصبح.

هذا سلوك المسلمة الواعية الفقيهة بدينها، فأيما أمرأة باتت وزوجها عنها راضٍ إلا وأصبح الذى فى السماء راضياً عنها، وأى امرأة دعاها زوجها لفراشه فأبت وبات غاضباً عليها إلا لعنتها الملائكة حتى تصبح وأصبح ربها غاضباً عليها حتى يرضى عنها زوجها.

ولذلك كان كثير من النساء الصالحات العابدات يحجمن عن الزواج خشية عدم الوفاء بحقوق الزوج انشغالاً عنه بالعبادة والطاعة، ومن هؤلاء «حسنة العابدة» وهى من عابدات البصرة، هجرت نعيم الدنيا وأقبلت على العبادة فكانت تصوم النهار وتحيى الليل وليس فى بيتها شىء. وحُكى أنها عطشت فخرجت إلى النهر فشربت بكفيها وكانت جميلة فقالت لها امرأة تزوجى. فقالت: هات رجلاً زاهداً لا يكلفنى من أمر الدنيا شيئاً، وما أظنك تقدرين عليه، فوالله ما فى نفسى أن أعبد الدنيا ولا أنعم من رجال الدنيا، فإن وجدت رجلاً يبكى ويُبكينى، ويصوم ويأمرنى، ويتصدق نعمت وإلا فعلى الرجال السلام!!

هذه هى العواطف الصحيحة لخيار النسوة، وإن كان ذلك لا يمنع أيضاً أن القيام بحقوق الزوج وطاعته وحسن تربية الأولاد والسهر عليهم يعدل أجر المجاهد في سبيل الله، ولكن المقصود من كلام السلف وسلوكهم هو الحرص على الأعمال الصالحة وطلب العون من الآخرين على القيام بها،

(1) البخوروالطيب.

وطلب المؤازرة عليها، حتى نجمع من الدنيا زاداً لنعيم الآخرة، فالضيف لا يأخذ من دار الضيافة إلا قدر إقامته، والذى يعبر جسراً لا يبنى على الجسر بيتاً ليقيم فيه، وكذلك نحن فى الدنيا ضيوف راحلون، نعبر جسر الحياة إلى حيث دار الإقامة الأبدية، وكل إنسان يسعى إلى النهاية التى يختارها بعمله ونيته..

* * *

فصـــل

بردة الصريميـــة

البكاء من خشية الله دليل على حياة القلب، فالقلوب الميتة أصحابها لا تبكى عيـونهم، فـالدمع لا يفـيض من العين إلا إذا تأثر القلب بجلال الله سبحانه، فبكى شوقاً إليه أو خوفاً منه وخشية له، ولا تجتمع هذه الخلال إلا فى مؤمن يُوحد ربه.

وإذا ذرف العابد دمعة لخشوعه وتأثره فهذا حسن جميل، أما أن يبكى بكاءً كثيراً حتى يذهب بصره وتعمى عيناه، فذلك هو الذى يدعونا إلى الوقوف على صاحب هذا القلب الذى لا تكف عيناه عن البكاء والدموع، وهكذا كانت «بردة الصريمية» إحدى عابدات البصرة الصالحات التى بكت حتى ذهب بصرها.

قال أشرس أبو شيبان – وكان عابداً من البكَّائين – عن ثابت البنانى أن امرأة من الصدر الأول كان يُقال لها «بردة» وكانت تكثر البكاء حتى فسد بصرها: فقيل لها: اتقى الله، أما تخافين على بصرك أن يذهب؟ قالت: دعونى فإن أكن من أهل النار فأبعدنى الله وأبعد بصرى، وإن أكن من أهل الجنة فسيبدلنى الله عينين خيراً من عينيَّ.

وفى رواية عن الحسن قيل له: يا أبا سعيد إن ههنا امرأة يقال لها بردة فَسَدَتْ عيناها من البكاء، فدخل عليها فقال لها: يا بردة إن لبدنك عليك حقاً، وإن لبصرك عليك حقا. قالت: يا أبا سعيد إن أكن من أهل الجنة فسيبدلنى الله بصراً خيراً من بصرى، وإن أكن من أهل النار فأبعد الله بصرى.

ولم يكن هذا البكاء على فقد محبوب أو ضياع مال أو موت عزيز وإنما هذا البكاء سببه ما وقر فى القلب من تصديق الغيب وأخذ الأهبة والاستعداد والزاد لسفر الآخرة.

وكانت «بردة» قصيرة الأمل لا تحدث نفسها إذا أصبحت أن يأتى عليها المساء، وإذا أمست لا تنتظر الصباح، وكانت إذا قيل لها: كيف أصبحت؟ تقول: أصبحنا أضيافاً منتجعين[1] بأرض غربة ننتظر إجابة الداعى.

وإذا جاءها الليل فلها مع ربها شأن آخر، حيث تتقلب مع الساجدين فى هدأة الليل بين قيام وسجود وركوع ودموع ومناجاة، عن عطاء بن المبارك قال: كانت بالبصرة امرأة جليلة متعبدة يقال لها «بردة» وكانت تقوم الليل، فإذا سكنت الحركات وهدأت العيون نادت بصوت لها حزين: «هدأت العيون وغارت النجوم وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك يا محبوبى أفتراك تعذبنى وحبك فى قلبى؟؟». وقد ذكرها صالحو قومها بالثناء والذكر الحسن، فحينما ذكر سفيان الثورى يوماً بردة قال: رحمها الله ما كان ههنا من أولئك النساء المجاورات أشد اجتهاداً منها بكت حتى ذهب بصرها.

---

(١) أى ناخذ قسطاً من الراحة فى طريق سفر حتى نواصل بها المسير.

فصــل

ابنة أم حسان الأسدية

حينمـا يجلو صـدأ القلوب بطول المجاهدة ولزوم الطاعة، فإن القلوب حينئذ تنطق بالحكمة حيث يتصاغر أمامها علوم العلماء ومعارف العارفين.

وابنة أم حسان الأسدية في مواقفها مع سفيان الثورى من أئمة عصرها فى التقوى والعلم والورع كانت بمثابة المعلم الأستاذ وليس المتعلم طالب العلم، وهذا ما أخبر به سفيان نفسه حينما رأى همته تتقاصر أمام همتها العالية.

قال سفيان: دخلت عليَّ بنت أم حسان الأسدية وفي جبهتها مثل ركبة العنز من أثر السجود، فقلت لها: يا ابنة أم حسان ألا تأتين عبد الله بن شهاب بن عبد الله؟ فلو رفعت إليه رقعة -أى طلباً مكتوباً- فلعله أن يعطيك من زكاة ماله ما تُغَيرين به بعض الحاجة التى أراك بها. فدعت بمعجر(١) فاعتجرت به وقالت: يا سفيان قد كان لك في قلبي رجحانٌ(٢) كثير فقد أذهب الله برجحانك من قلبي، يا سفيان تأمرني أن أسأل الدنيا مَنْ لا يملكها؟؟

قال سفيان: وكان إذا جَنَّ عليها الليل دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ثم نادت: «إلهي خلا كل حبيب بحبيبه، وأنا خالية بك يا محبوب، فما كان من سُخْن يسخِّن مَنْ عصاك إلا جهنم ولا عذاب إلا النار فكى».

قال سفيان: فدخلت عليها بعد ثلاث فإذا الجوع قد أثَّر في وجهها، فقلت لها: يا بنت أم حسان إنك لن تُؤْتَىْ أكثرمما أوتى موسى والخضر عليهما السلام، إذ أتيا أهل قرية استطعما أهلها. فقالت: يا سفيان قل

(١) المعجر: ما تشده المرأة علىَ رأسها من ثياب.

(٢) أى قدر ومكانة.

الحمد لله. فقلت: الحمد لله. فقالت: اعترفت له بالشكر؟ قلت: نعم. قالت: وجب عليك من معرفة الشكر شكر، وبمعرفة الشكرين شكر لا ينقضى أبداً. قال سفيان: فَقَصُر والله علمي، وَفَهَّ[1] لسانى فولّيت أريد الخروج. فقالت: يا سفيان كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه، وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله. اعلم أنه لن تُنَقَّى القلوب من الردى حتى تكون الهموم كلها فى الله همًّا واحداً.

قال سفيان: فَقَصُرت إليَّ والله نفسى.

إن ثبات اللسان وقوة الحجة من ثبات القلب وسلامة الفؤاد، فالمؤمن لا يتلعثم ولا يتردد ولا يتخبط، فقلبه مطمئن بربه وفؤاده ساكن بمعرفته، والحجب التى كانت تعلوه بسبب الهوى والشهوة قد زالت، ولذلك حينما يتكلم أصحاب هذ القلوب نرى لكلامهم بريقاً وهّاجاً ونوراً ساطعاً وذلك أنه خرج من مشكاة الحق، وترجمه اللسان عن قلب حى سليم وليس عن قلب ميت مريض.

وسفيان الثورى لم يكن كعامة العلماء والمحدثين، بل كان له شأن عظيم فى الطاعة والاجتهاد والعبادة، وقد نشأ نشأة طيبة وكانت أم سفيان كذلك امرأة صالحة أحسنت تربية ولدها من أول يوم على العلم والعمل معاً، فقد ذكر ابن الجوزى عن وكيع قال: قالت أم سفيان الثورى لسفيان: يا بنى اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلى –أى ما أبيعه من غزل الصوف أنفق عليك منه لتتفرغ لطلب العلم– وقالت له: يا بنى إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى فى نفسك زيادة فى مشيك وحلمك ووقارك، فإن لم يزدك فاعلم أن يضرك ولا ينفعك.

لقد وضعت يد ابنها على حقيقة العلم وجوهره الثمين، فلا قيمة لعلم لا يثمر فى صاحبه خشية ووقاراً يظهر فى سلوكه ومشيته وأخلاقه وسيرته،

---

(١) أى صَمَتَ وسكت عن الكلام.

فأى علم يتحصل عليه لا يتبعه تغيير واضح تظهر بصماته على السلوك فهو علم ميت على اللسان فقط لا يجلب لصاحبه نفعاً فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وهذه الهمم العالية لم تكن مقصورة على كبار القوم فحسب بل تَعدّت إلى الخدم والعبيد والإماء حتى بلغ بعضهم مراتب عالية فى العبادة والصلاح والتقوى، ومن هذه الإماء من أهل البصرة جارية لخالد الورّاق قال عنها: كانت لى جارية شديدة الاجتهاد فدخلت عليها يوماً فأخبرتها برفق الله وقبوله يسير العمل. فبكت ثم قالت: يا خالد إنى لأؤمل من الله تعالى آمالاً لو حملتها الجبال لأشفقت من حملها كما ضعفت عن حمل الأمانة، وإنى لأعلم أن فى كرم الله مستغاثاً لكل مذنب، ولكن كيف لى بحسرة السباق؟

قال: قلت: وما حسرة السباق؟ قالت: غداة الحشر إذ بعثر ما في القبور وركب الأبرار بجانب الأعمال فاستبقوا إلى الصراط. وعزة سيدى لا يسبق مقصرٌ مجتهداً أبداً، ولو حبا المُجِدُّ حبواً. أم كيف لى بموت الحزن والكمد إذا رأيت القوم يتراكضون وقد رُفعت أعلام المحسنين وجاز الصراط المشتاقون ووصل إلى الله المحبون وخُلِّفت مع المسيئين المذنبين؟ ثم بكت وقالت: يا خالد انظر لا يقطعك قاطع عن سرعة المبادرة بالأعمال فإنه ليس بين الدارين دار يُدركُ فيها الخُدَّام ما فاتهم من الخدمة، فويل لمن قصَّر عن خدمة سيده ومعه الآمال، فهلا كانت الأعمال توقظه إذا نام البطَّالون؟؟

هذه هى همَّة جارية من الجوارى فى ذلك العهد الطيب وسط هذه الجمهرة من أولياء الله الأبرار الصالحين، فقد عَمَّت بركاتهم جميعَ من حولهم حتى خدمهم وعبيدهم وإماءهم حتى أصبحت البيئة كلها صالحة طاهرة فيها ميادين التنافس فى الطاعات والخيرات، فالهداية إذا دبَّت فى القلوب ظهرت بشائرها على الجوارح ونطقت عندها الألسن بالحكمة.

وهذا سعيد بن عطارد يقول: ذُكرت لى امرأة بالبصرة متعبِّدة فأتيتها فوجدتها تصلّى فانصرفت: فقالت: ما اسمك؟ فقلت: سعيد. قالت: يا سعيد، كل شى شغلك عن الله فهو عليك مشئوم. ثم أقبلت على صلاتها وتركتنى. هذه هى هموم الصالحات فلا وقت لديهن يضيع فى لغو باطل ولا لهو فاسد، فالعمر أغلى من أن يضيع فى سفاسف الأمور.

* * *

فصل

عبيدة بنت أبى كلاب

هذه العابدة هى التى رؤيت فى المنام أعلى درجة من رابعة العدوية وإن لم يكن لها شهرة كرابعة رحمها الله، فلماذا رُفعت إلى هذا المقام العالى والمرتقى السامى؟ إنه زهدها الذى لم يبلغه أحد من الزُّهاد حيث لم تكن تبالى على أىّ حال أصبحت وأمست.

كانت صوَّامة قوَّامة بكَّاءة حتى ذهب بصرها، وهكذا كان شأنها كشأن أخواتها من الصالحات العابدات، قال شُعيب بن محرز: حدثتنى سلاَّمة العابدة قالت: بكت عبيدة بنت أبى كلاب أربعين سنة حتى ذهب بصرها.

وكم كان خوفها من الحساب ووجل قلبها من القدوم على الله؟ لقد خافت حتى كان الموت هو مطلبها خشية أن تسىء إساءةً لا تخرج منها بتوبة وندم فتهلك هلاكاً ليس بعده نجاة. عن يحيى بن بسطام الأصغر قال: حدثنى سلمة الأفقم - وكان ينزل الطُّفاوة(١) - قال: قلت لعبيدة بنت أبى كلاب ما تشتهين؟ قالت: الموت. قلت: ولم؟ قالت: لأنى والله فى كل يوم أصبح وأخشى أن أجنى على نفسى جناية يكون فيها عطبى(٢) أيام الآخرة.

وقال عبد العزيز بن سلمان: اختلفت عبيدة وأبى إلى مالك بن دينار عشرين سنة، قال أبى فما سمعتها تسأل مالكاً عن شئ قط إلا مرة، قالت: يا أبا يحيى متى يبلغ المتقى الدرجة العليا التى ليس فوقها درجة؟ قال مالك: بَخٍ بَخٍ يا عبيدة إذا بلغ المتقّى تلك الدرجة العليا التى ليس فوقها

---

(١) الطفاوة قبيلة عربية عدنانية.

(٢) هلاكى وعذابى.

درجة لم يكن شيء أحبَّ إليه من القدوم على الله. قال فصرخت عبيدة صرخة سقطت مغشياً عليها.

المؤمن قلبه حي ينفعل بالموعظة ويتأثر بالذكرى وينتفض قلبه عند ذكر الحساب والقدوم على الله للجزاء، ورغم أنه طائع لربه مستقيم على أمره حافظ لعهده معه إلا أنه يخشى أن تُردَّ عليه أعماله فيبقى في حسرة عظيمة، وهذا المؤمن الذى يحذر عذاب الآخرة تراه أيضاً يرجو رحمة ربه ويطمع في رضاه ومغفرته، وأما المغرور المُسوِّف فيلهو ويلغو ويضيع أيام عمره في العبث والباطل ثم يرجو مع ذلك مغفرة ذنبه وعفو ربه !! فهذه أماني الحمقى وآمال السفهاء الذين لا يعرفون جلال الله ولا يخشون عقابه وعذابه، فهؤلاء لايعرف الوجل والخوف إلى قلوبهم سبيلاً، فهم مغرورون ينتظرون الجنة بلا عمل ويريدون النجاة بلا جهد وعرق، وهيهات. فالكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني.

وكانت عبيدة لها مكانة عظيمة في قلوب من حولها من صالحى قومها، وظهر هذا حينما ودَّعت الدنيا ورحلت إلى الآخرة، فقد روى عن داود بن المُحَبَّر قال: سمعت البراء الغنوى يقول يوم ماتت عبيدة بنت أبى كلاب: ما خَلَّفت بالبصرة أفضل منها.

وقال عبد الله بن رشيد السعدى -وكان قد صحب عبد الواحد بن زيد-: رأيت الشيوخ والشباب والرجال والنساء من المتعبدين فما رأيت امرأة ولا رجلاً أفضل ولا أحسن عقلاً من عبيدة بنت أبى كلاب.

وحتى نعرف قيمة الإخلاص والتجرد وإنكار الذات والبعد عن الشهرة والسمعة، نرى كيف تكون الموازين عند الله التى يزن بها عباده الصالحين، فليس كل مشهور عند الناس مقبولاً عند الله، وليس كل محبوب يُشار إليه بالأصابع يكون محبوباً عند ربه، وليست آراء الناس في تقييم الصالحين هى

المعتبرة عند الله، فالله ينظر إلى النوايا والسرائر والضمائر، وحكمه العدل لا يخضع لزيف ولا ضغط ولا هوى، فهو سبحانه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك : ١٤].

قال عيسى بن مرحوم: حدثتني عبدة بنت أبي شوال -وهي التي كانت تخدم رابعة العدوية - قالت: رأيت رابعة في المنام فقلت: ما فعلت عبدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العُلى، قلت: وبمَ وقد كنتِ عند الناس؟ أي أكثر منها شهرة وصيتاً. قالت: إنها لم تكن تُبالي على ما أصبحت من الدنيا أو أمست.

نعم، هذه الصفة هي التي بلغت بها ما بلغت من تلك المكانة، فالزهد والعبادة والتقوى والصلاح كانت قاسماً مشتركاً بينها وبين جميع من سبقوها وعاصروها من أولياء الله المتقين، وإنما يتميز الصالحون بصفاتهم وأخلاقهم وطرائقهم وليس بشهرتهم ومدى معرفة الناس بهم، فكم لله من أولياء لا يعرفهم الناس لو أقسموا على الله لأَبرَّهم، فالعبرة كلها بالقبول هناك عندما تُنصب الموازين بين يدى الله.

وكم تحوى بطون كتب التاريخ والسيرة من قصص لعابدات صالحات مجهولات الأسماء مشهورات الأعمال، فإن لم نكن نحن نعرفهم فيكفيهم أن الله يعرفهم ويَطَّلع على أعمالهم ويجزيهم عنها أحسن الجزاء يوم يسعدون بلقائه وما أجمله من لقاء وما أعظمه من جزاء.

فمن هؤلاء ما حكى عنها الحسين بن جعفر عن أبيه قال: صلَّيت العيد في الجبَّان ثم تفَردت، فإذا أنا بعجوز رافعة يديها وهي تقول: انصرف الناس ولم أُشْعِر قلبي اليأس يا صاحب الصدقة، هاأنذه منصرفة فليت شعري ما زوَّدتني، رب ارحم ضعفي وكبر سني، خرجت أرجوك فلا تخيب ظني بك - وهي تبكي، فما انتفعت بنفسي يومي كلّه.

وعن بكر بن عبد الله المزنى قال: كانت امرأة متعبدة، فكانت إذا أمست قالت: يا نفس، ليلتك لا ليلة لك غيرها، فاجتهدى. فإذا أصبحت قالت: يا نفس اليوم يومك لا يوم لك غيره فاجتهدى. وكم غير هؤلاء كثير فى المدن والبوادى والقرى والنجوع لا يعلمهن إلا الله، والأرض لا تخلو من أولياء الله الصالحين حتى تنقضى الدنيا وتذهب الأيام والليالى.

* * *

فصـــل

شعوانــــة

هذه عابدة من عابدات الأبلة(١) وقد اشتهرت بالبكاء حتى أصبح من صفاتها التي تُذكر حينما يأتي ذكرها في أي مجلس من مجالس الصالحين.

قال مالك بن ضيغم: كان رجل من أهل الأبلة يأتي أبي كثيراً فيذكر له شعوانة وكثرة بكائها فقال له أبي يوماً: صِفْ لي بكاءها؟؟

فقال: يا أبا مالك أصف لك، هي والله تبكي الليل والنهار لا تكاد تفتر قال: ليس عن هذا أسألك، كيف تبتدئ بالبكاء؟ قال: نعم يا أبا مالك تسمع الشئ من الذكر فترى الدموع تنحدر من جفونها كالقطر. قال: فمجاري الدموع من المآق الذى على الأنف أكثر أم مؤخر العين مما يلي الصدغ؟ قال: يا أبا مالك إنّ دموعها أكثر من أن يُعرف هذا من هذا، ما هي إلا أن تسمع الذكر فتجيء عيناها بأربع نجوماً متبادرة جداً.

فبكى أبي وقال: ما أرى الخوف إلا قد أحرق قلبها كلّه، ثم قال: كان يقال إن كثرة الدموع وقلّتها على قدر احتراق القلب، حتى إذا احترق القلب كله لم يشأ الحزين أن يبكى إلا بكى، والقليل من التذكرة يحزنه.

وكانت «شعوانة» لا ترى لنفسها مكانة ولا قدراً، بل كان تواضعها يجعلها في عين نفسها عاصية مذنبة مُقصرة في حق ربها، لقد كانت تتحدث يوماً مع مالك بن ضيغم هذا ثم قالت عن نفسها: ومَنْ شعوانة؟ وما شعوانة؟ أمة سوداء عاصية. قال مالك: ثم أخذت في البكاء فلم تزل تبكى حتى خرجنا وتركناها.

---

(١) الأبلة: بلدة على شاطيء دجلة البصرة العظمى وهى أقدم من البصرة.

وعندما يشفق عليها مَنْ حولها من خيرة أهلها لا تقبل منهم فى هذا الأمر نصيحة ولا رأياً، فقد كانت ترى حقيقة الرفق بنفسها هى ما تصنعه من جهد وتعب فى عبادة ربها فليس الرفيق بنفسه من أعطاها أطايب الطعام والشراب وبسط لها بساط الراحة والدعة، فهذه راحة مؤقتة وتلك شفقة مزيفة، فالدنيا دار عناء ومجاهدة وصبر، وأما الراحة فهى هناك فى الجنة حيث دار آمنة طيبة فيها صحة بلا مرض وسرور بلا حزن وخلود بلا موت.

قال أبو عوف: بكت «شعوانة» حتى خفنا عليها العمى، فقلنا لها فى ذلك، فقالت: أعمى والله فى الدنيا من البكاء أحبّ إلىّ من أن أعمى فى الآخرة من النار.

ولقد كان مجلس «شعوانة» مجلس علم ووقار وخشية ورقَّة للقلوب، فما جلس إليها أحد إلا رَقَّ قلبه وتأثر فؤاده ودمعت عيناه من كثرة ما يراها باكية دامعة، فكانت رؤيتها سبباً في تليين القلوب القاسية واستخراج الدموع من الأعين الجامدة والعزم على التوبة من النفوس الجامحة الشاردة.

قال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس «شعوانة» كثيراً فكنت أرى ما تصنع بنفسها، فقلت لصاحب لى يقال له عمران بن مسلم: لو أتيناها إذا خَلَت. قال: فانطلقنا أنا وهو إلى الأبلّة فاستأذنّا عليها فأذنت لنا فإذا منزل رثُّ الهيئة أثر الجدب عليه بَيِّن. فقال لها صاح: لو رفقت بنفسك فقصرت عن هذا البكاء شيئاً كان أقوى لك على ما تريدين. قال: فبكت ثم قالت: والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى، ثم أبكى الدماء حتى لا تبقى فى جسدى جارحة فيها قطرة من دم، وأنَّى لى البكاء؟ قال: فلم تزل تردِّد ذلك حتى انقلبت حدقتاها، ثم مالت ساقطة مغشياً عليها. فقمنا فخرجنا وتركناها على تلك الحال.

وقال رَوْح بن سلمة: قال لى مُضَر: ما رأيت أحداً أقوى على كثرة البكاء من شعوانة، ولا سمعت صوتاً قط أحرق لقلوب الخائفين من صوتها إذا هى

نشجت ثم نادت: «يا موتى وبنى الموتى وإخوة الموتى».

وقال محمد: وقلت لأبى عمر الضرير: أتيت شعوانة؟ قال: قد شهدت مجلسها مراراً ما كنت أفهم ما تقول من كثرة بكائها. قلت: فهل تحفظ من كلامها شيئاً؟ قال: ما حفظت من كلامها شيئاً أذكره الساعة إلا شيئاً واحداً، قلت وما هو؟ قال: سمعتها تقول من استطاع منكم أن يبكى فليبك وإلا فليرحم الباكى فإنّ الباكى إنما يبكى لمعرفته بما أتى إلى نفسه.

لقد كانت تبكى ويبكى الناس معها ببكائها، وهذا الحال الذى كانت عليه كان أبلغ من كل كلام وموعظة، وحينما جاءها الفضيل بن عياض يشكو إليها حاله ويسألها أن تدعو له بدعاءٍ، قالت: يا فضَيل أمَا بينك وبين الله ما إن دعوتَه استجاب لك؟ قال: فشهق الفضيل وخَرَّ مغشياً عليه.

إنها كلمة واحدة ولكنها مَسَّت أوتار القلب فانتفض من رقدته مذعوراً، فالأبواب كلها تفتح للعبد إذا كان ما بينه وبين ربه عامراً، فالطرق لا تُسد إلا بالمعاصى، فالعاصى الذى يسد طرق الإجابة فأى دعاءٍ حينئذ سينفعه؟ وإذا لم يفتح بنفسه مع ربه بابا للقبول فمن ذا الذى سيفتح له هذا الباب أيّاً كان شأنه؟؟ رحم الله «شعوانة» وجزاها عنّا خيراً، فهذه الكلمة التى خَرَّ منها الفضيل مغشياً عليه إنما هى منهج عمل لجميع السائرين إلى الله حتى لا يرتكن أحد على أحد ولا يعتمد مخلوق على مخلوق ولا يلجأ ضعيف إلى ضعيف ولا يلوذ عاجز بعاجز، فلا ملجأ ولا ملاذ إلا الله وحده، فمن يشكو حاله عليه أن ينظر فى حاله مع ربه ويُراجع صلته مع خالقه ومولاه، فمن أصلح ما بينه وبين ربه أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح آخرته أصلح الله دنياه، فهذه هى الموازين التى لا تخيب، وتلك هى السنن التى لا تتبدل ولا تتغير، والبصير الحاذق هو الذى يضعها دائماً نصب عينه حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها.

وكانت «شعوانة» تتردد إلى مالك بن دينار فسمعت شخصاً يقول: لا

يبلغ المتقى حقيقة التقوى حتى لا يكون شيء أحَبَّ إليه من القدوم على الله، فخرجت مغشياً عليها.

إن ذكر القدوم على الله له رهبة في النفس وله وقع عظيم في القلب، فهذه اللحظة بين العبد وربه لحظة صدق وحق وجزاء، فلا مجال فيها للمراوغة والعبث والمداهنة، فمن يستطيع أن يفرّ من لقاء ربه؟؟ ومن يستطيع أن يستر أعماله وأفعاله وهو يقف أمام الديان الذى لا تخفى عليه خافية؟؟

والعبد العاصى إذا خاف ووجل من لحظة اللقاء فذلك أمر لا يثير فى النفس عجباً ولا دهشة، ولكن الذى يقف المرء أمامه مبهوراً هو أن قمة الخشية تصدر من أناس كانوا على القمة الزهد والصلاح والتقوى، فلم كلُّ هذا الخوف والوجل؟ ولماذا كلُّ هذه الخشية والرهبة؟ هل عصوا ربهم فيخافون عقابه؟ أم تجرأوا على محارمه فيخشون غضبه وانتقامه؟ كلا، ولكنه الإيمان الذى يملأ القلوب ويتربع على الأفئدة، فالإيمان حب وخوف، حب كامل وخوف تام، وإذا اختلَّ أحدهما اختلَّ الإيمان فى الصدر، ولا يتحقق معنى الإيمان إلا بوجودهما معاً كقطبى المغناطيس أو طرفى الكهرباء لا غنى لأحدهما عن الآخر...

ومن زهدها فى دنياها عدم مبالاتها بنقص دنياها ولا بزيادتها، فقد قالت: لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت. ولذلك قال الشعراني: كان الناس يقدمونها على «رابعة العدوية» فى جميع أحوالها.

وإذا كانت هذه أخبار من عُرِفن من أهل الفضل والأدب والصلاح، ففى عصرهن وما بعدهن من مجهولات الأسماء كثيرات لا يقفن عند حصر، وقد أعماهن البكاء أيضاً وذهب بأبصارهن، وخرج أيضاً من قلوبهن الحكمة على ألسنتهن. ومن هؤلاء ما نقله عبد الملك بن هاشم قال: سمعت ذا النون يقول: كنت سائراً فى بعض جبال الشام فإذا أنا بكوخ

فقصدته فإذا أنا بعجوزٍ قد عميت من البكاء. فدنوت منها فسلَّمت وقلت: يا عجوز حدثيني ما الغنى؟ قالت: الزهد فى الدنيا. قلت: فما الزهد فى الدنيا؟ قالت: ترك طلب المفقود حتى يُفقد الموجود.

وهذه أخرى يحدث عنها عبيد الله بن محمد فيقول: إنه سمع امرأة من المتعبدات تقول وبكت : والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يُباع لاشتريته شوقاً إلى الله وحباً للقائه. قال: قلت لها: أَفَعَلَى ثقةٍ أنت من عملك؟ قالت: لا والله، ولكن لحبى إيَّاه وحسن ظنى به، أفتراه يعذبنى وأنا أحبه؟

هذه هى العواطف الصحيحة التى عاش أصحابها فى أكنافها، فلم يستهويهم متاع الأرض ، ولم تشغلهم زخارف الحياة عن نعيم الآخرة، ولا يصل لهذه الدرجة من العمق فى الفهم والبصيرة فى إدراك الأمور إلا من زكَّى نفسه بالطاعات وأقبل على شأنه يشغل أوقاته بالطاعات، وهكذا كانت «شعوانة» ورفيقاتها من العابدات الصالحات..

* * *

فصل

أم الأسود بنت زيد العدوية

إن أكل الحلال من أسباب قبول الأعمال والتوفيق لها، فالعبد إذا دفع إلى جوفه لقمة واحدة من حرام لا يتقبل منه عمل أربعين صباحاً، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به. ولذلك كانت فراسة الصالحين ثاقبة صادقة لأنهم يتَحرَّوْن ما يدخلونه إلى بطونهم، فما كان فيه شبهة واحدة لفظوه وتركوه، وما دخل إلى أمعائهم منه استقاوه وطلبوا إلى الله أن يطهر منه أمعاءهم وما تشرَّبَتْه العروق.

وأم الأسود بنت زيد قد أرضعتها معاذة العدوية زوجة صلة بن أشيم -رحمهما الله- وهى عابدة صالحة طيبة، وكانت نعم المرضعة ونعم الفاطمة، وقد أوصت معاذة العدوية أم الأسود بهذه النصيحة الغالية ألا وهى الأكل من الحلال وهجر الحرام والحذر فيما تدخله إلى جوفها من طعام حتى يخلو من كل شبهة وشك

قالت أم الأسود: قالت لى معاذة: لا تفسدى رضاعى بأكل الحرام، فإنى جهدت جهدى حين أرضعتك حتى أكلتِ الحلال فاجتهدى أن لا تأكلى إلا حلالاً لعلك أن تُوفَّقى لخدمة سيدك والرضا بقضائه.

وربما يسأل سائل ما العلاقة الحميمة بين أكل الحلال والتوفيق لطاعة الله حتى يحرص عليها الصالحون والزهاد كل هذا الحرص الشديد؟؟ والعلة فى ذلك أن الحرام فيه ظلمة ينطفأ معها نور القلب فيصبح مظلماً، والقالب إنما يتحرك بنور القلب، ومَنْ لا نور له لا بصيرة له، ومن طُمست بصيرته فلا يرى قيمة الغيب ولا يعرف قدر الأعمال الصالحة فلا يشتاق إليها ولا ينشرح لها ولا يفرح بها بل يزهد فيها لأنه جاهل بقيمتها وقدرها، ومِن هنا فإنه

يُحرم التوفيق لأىّ عمل صالح مادام قلبه مُظلماً.

ولذلك كانت أم الأسود تقول: ما أكلت شبهة إلا فاتتنى فريضة أو وِرْد من أورادى. فانظر كيف ربطت بين طعام مشبوه وبين ضياع طاعة من الطاعات، وهذا هو الفهم العجيب الذى تميز به سلف هذه الأمة الصالح، ولا عجب فى هذا فهم يقتدون بأئمة الهدى من قبلهم وهم أصحاب النبى ﷺ حيث تركوا بعض الحلال خشية الوقوع فى حرام واحد.

ومن مناقب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى هذا، أنه كان له غلام يأتيه بخراجه، فجاءه الغلام يوماً بقطعة لحم فأكلها أبو بكر، فقال له الغلام: هل تدرى من أين أتيتك بهذا اللحم؟ قال: لا. قال: كنت فى عرس قوم وقد كنت تكهنت لهم فى الجاهلية فأعطونى هذا اللحم!! فانتفض أبو بكر كأنما لدغه عقرب فور سماعه هذا النبأ وأدخل أصبعه فى فيه واستقاء كل ما فى بطنه قيل: حتى خرجت قطعة اللحم مبللة بالدماء وإذا بأبى بكر يقول والله لو لم تخرج إلا مع خروج نفسى لأخرجتها، اللهم لا تؤاخذنى بما خالط الأمعاء وتشرَّبته العروق، فهذا هو ورع الصِّديق ومنه تعلم الزاهدون كيف يكون الورع عن أكل الشبهات والحرام.

* * *

فصل

منيفة بنت أبى طارق

إحدى عابدات البحرين من عُشَّاق الليل الذين يَحنُّون إليه كما تحن الطيور إلى أوكارها حتى يخلوا بمحبوبهم ويأنسوا بمناجاته وطول القيام بين يديه.

قالم مسمع بن عاصم المسمعى: كانت بالبحرين امرأة عابدة يقال لها مُنيفة، فكانت إذا هجم الليل عليها قالت: نخ نخ يا نفسى قد جاء سرور المؤمن، فتتحزَّم وتلبس وتقوم إلى محرابها فكأنها الجذع القائم حتى تصبح، فإذا أصبحت وأمكنت الصلاة فإنما هى فى صلاة حتى يُنادى بالعصر، فإذا صلَّت العصر هجعت إلى غروب الشمس هذا دأبها، قيل لها: لو جعلت هذه النومة فى الليل كان أهدأ لبدنك، فقالت: لا والله لا أنام فى ظلمة الليل ما دمت فى الدنيا.

قال أبو سفيان فحدَّثنى رجل من أهلها قال: فمكثت كذلك أربعين سنة ثم ماتت.

إن هذ ا الشوق الذى كان يدفع هؤلاء الصالحين إلى طاعة ربهم قد طَيَّر النوم من جفونهم وجفاهم عن مضاجعهم فلا يتلذذون بالفراش وهم يجدون فرصة يخلون فيها بمحبوبهم، وهذا الحب والود الذى بينهم وبين ربهم قد أنساهم تعب الأجساد، وصدق من قال:

وإذا كانت الهموم كباراً . ` . تعبت فى مرادها الأبدان

وقدكانت فى الدنيا نموذجاً للصلاح والتقوى، وكذلك بعد موتها كانت داعية إلى الحق ناصحة إلى طريق الفلاح والفوز. قال أبو سفيان: حدثنى

رجل من البحرين يقال له عامر بن مليك قال: رأيت منيفة بعد موتها في منامي فقلت: يا منيفة ما حال الناس هناك؟ فأقبلت عليَّ وقالت: عن أيّ حالهم تسأل؟ الدار واحدة لأهل الطاعة يتعالون فيها بالأعمال، ولا تسأل عن حال أهل النار. قال: فبكيت والله من قولها «لا تسأل عن حال أهل النار». ثم وليت فأتبعتني صوتاً: يا عامر عليك بالجد والاجتهاد لعلّك أن تجري في مساعي السابقين غداً.

قال عامر: فمرضت والله من هذه الرؤيا شهراً.

إن الموتى في دار الحق، وأرواح الأحياء في المنام تلتقي مع أرواح الموتى فيخبرونهم بما يكون في دار الحق من أخبار قطعية لا ظنَّ فيها، و المنازل العالية هناك لا يدركها إلا المشمرون عن ساعد الجد الصابرون على المكاره القابضون على الجمر حتى يفضوا إلى موعود الله الغيبيّ. وباب الليل هو أوسع الأبواب وأقربها إلى الله وربما لا تجد كثيراً يزاحمون عليه، أما الذين دخلوا جنة ربهم من باب الليل حيث القيام والدعاء والمناجاة فهؤلاء الذين فازوا بكرامة الدنيا وعز الآخرة.

قال أبو سيَّار: وحدثني عامر بن مليك البحراني عن أمه قالت: بتُّ ذات ليلة عند منيفة ابنة أبي طارق فما زادت على هذه الآية من أول الليل إلى آخره تردّدها وتبكي وتقول: ﴿ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [آل عمران: ١٠١].

* * *

فصـــل

ماجـدة القرشـية

من أكبر الآفات التى تصيب القلب طول الأمل ونسيان الموت والحساب ، ومن تطهـر قلبـه من هذه الآفـات المهلكة فـإن جـوارحـه تـنشط فى الطاعـة ويصبح بدنه خـفيفاً إلى كل عـمل صالح يقربه من ربه ويدنيه من رحـمته وجنته ورضوانه .

وماجدة القرشية إحدى عابدات البحرين الصالحات وكانت يقظة الفؤاد قصيرة الأمل لا تحدث نفسها بطول البقاء ولذلك كانت تسارع إلى الخيرات وتسعى لتحصيل الزاد الذى تحمله معها لسفر المعاد .

قال إياس بن حـمزة وهو رجل من أهل البحـرين : قالت امرأة من قريش يقال له ما جدة كانت تسكن البحرين : طَوى أملى طلوع الشمس وغروبها، فما من حركة تُسمع ولا من قدم تُوضع إلا ظننت أن الموت فى أثرها .

وكـانـت تقـول : سكان دار أوذنوا بالنقلة(١) وهـم حيـارى يـركضـون فى المُهْلة(٢) كأنَّ المراد غيرهم، أو التَّأذين(٣) ليس لهم والمَعْنِىُّ بالأمر سواهم، آهٍ من عقولٍ ما أنقصها، ومن جهالة ما أتمَّها، بؤساً لأهل المعاصى ماذا غُرُّوا به من الإمهال والاستدراج .

وكانت تقول : بسطوا آمالهم فأضاعوا أعمالهم، ولو نصبوا الآجال وطووا الآمال خفَّت عليهم الأعمال .

إن الشيطان دائمًا ما يدخل على العبد من باب التسويف وطول الأمل،

---

(١) أى بالارتحال والانتقال .

(٢) أى الغفلة والتوانى واللا مبالاة .

(٣) أى النداء عليهم بالرحيل .

فيغريه بالمعاصى ويزين له الخطايا ويُمَنّيه بالتوبة والندم، وهكذا يظل الغافل مخموراً بسُكرْ الغفلة حى يأتيه الموت فيأخذه وهو مُسَوِّف مُضَيِّعُ لحق الله مُفرط فى دينه وإيمانه، ولذلك قال على رضى الله عنه: إن مما أخاف عليكم طول الأمل والحرص على الدنيا، فأما طول الأمل فينسى الآخرة، وأما الحرص على الدنيا فيصد عن اتباع الحق.

ونصيحة «ماجدة القرشية» تحمل فى طياتها إشارات التحذير وعلامات الخطر بسبب هذا القادم على رءوس العباد ألا وهو الموت، فالناس مسافرون فى رحلة الحياة، وكلهم يمشون إلى المصير نفسه الذى صار إليه آباؤهم وأجدادهم، فليس هناك بعد متع الحياة وزينتها غير حفرة القبر، فكيف يُمهد الإنسان قبره قبل أن يسكنه ويرحل إليه وذلك بالأعمال الصالحة التى تؤنس وحشته وتوسع عليه حفرته وتنير له مرقده؟؟

والغايات دائماً لها مقدمات، فليس هناك نتائج إلا وتسبقها أسباب تؤدى لها وتحققها، والذى يريد الراحة والسعادة وسرور الأبد فلا بد أن يعرف الطريق التى توصله إلى هذه الغايات حتى لا يضل عن السبيل الموصل إلى هدفه ومقصده.

وهذه «ماجدة القرشية» تقول فى إحدى مواعظها: لم يَنل المطيعون ما نالوا من حلول الجنان ورضا الرحمن إلا بتعب الأبدان لله والقيام لله بحقه فى المنشط والمكره. وكانت تقول: كفى المؤمنين طول اهتمامهم بالمعاد شغلاً.

ولذلك من استراح فى الدنيا من كد الطاعة وتعب البدن فى العبادة وأخلد إلى الراحة والهدوء والدعة، فهذا هو الذى ستطول حسرته يوم القيامة حيث إنه لن يذوق طعم الراحة بعد موته أبداً لأنه ضَيَّع الفرصة من يده، ولها فى وقت الجد والعمل، فيبعث يوم القيامة مفلساً لا رصيد له.

وجاء فى الحكمة: مَنْ لم يُمرِّن نفسه على صعود الجبال عاش طيلة حياته بين الحُفَر. وقال أحد الصالحين: لا يتذوق طعم القُرْب من الله إلا مَنْ صعد جبل الجهد.

والذى يتطلع إلى الأجر تهون عليه مشقة التكليف، فالتصديق بخبر الغيب يبعث فى القلب همة للأعمال الصالحة، ويستثير فيها الطاقات الكامنة لتحصيل الموعود، ويوقظ فيها الحمية والشوق لإدراك الدرجات العلى من الجنة.

ولذلك قالت ماجدة القرشية -رحمها الله: لو رأت أعين الزاهدين ثواب ما أعدَّ الله لأهل الإعراض عن الدنيا لذابت أنفسهم شوقاً إلى الموت لينالوا من ذلك ما أَمَّلُوه من تفضّله تعالى.

وهذه الغشاوة التى يضعها الشيطان على القلوب من الشهوة العارمة والهوى الجامح والمطامع العاجلة إنما تحجب الرؤية عن القلب حتى لا يرى عظمة الغيب، وإذا جاء الإيمان فإنه يمزق بنوره هذه الحجب كلها فلا يستطيع الشيطان بعد ذلك أن يخدع المؤمن الذى استنار قلبه، فالحيل كلها ستصبح مكشوفة وجميع الإغراءات ستصبح واهية ممسوخة، فما يوازى متاع الدنيا الفانى إذا قورن بنعيم الآخرة الباقى؟؟

وكانت امرأة تدعى منفوسة بنت أبى يزيد تبكى وتقول: «إلهى إنك لتعلم أن العطشان من حبك لا يروى أبداً». وكانت التى تخدمها تقول: منذ وقع بصرى على منفوسة ما ملت قط إلى الدنيا ببركتها، ولا استصغرت فى عينى أحداً من المسلمين أبداً، وكان الفضيل بن عياض يأتيها ويتردد إليها ويسألها الدعاء.

إن المرأة إذا صدقت مع ربها جعلها إماماً فى الخير وقدوة فى البر والمعروف وأسوة فى المنهج والسيرة، وهذا ما جعل كثيراً من الرجال يتأثرون بمواعظ

النسـاء وعبـادتـهن وسلوكـهن، فإذا كانـت هـمـم النسـاء قـد ارتقت إلى هذه القـمم العـاليـة ألا يسـتـحي الرجـال أن يـدخلوا مـعـهن مـيـدان المنافسـة والسباق؟؟ بل من علو شأنهن أن أصبحن مقصداً يأوى إليه كثيرمن العلماء والأتقـيـاء الأبرار يطلبـون إليـهن الدعـاء ويسـألونـهن الدواء لما يجـدونه من أمراض وأدواء، فكان الله ينفعـهم بدعائهن ويسوق على ألسنتهن الحكمة والشـفـاء، فـانتـفع الناس بعلمـهن وفقـهـهن وكلامـهن،وهكذا يـفـهم الناس جميعاً أن الميدان كما يرون فيه الرجال فإن النساء قد جئن معهم للمنافسة على مرضاة الكريم سبحانه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

* * *

فصـــل

زبيـدة أم جعفـر

هل يمكن للغنى والزهد أن يجتمعا؟ وهل للأثرياء حظ فى السبق وبلوغ الدرجات العلى؟ وهل يحول الثراء والجاه بين أصحابهما وبين رحمة الله وعطائه الواسع الذى لا حدود له؟ لا، فالإسلام لا يمدح الفقر ولا يحبه وإنما يمدح الزهد ويرغب فيه، فليس الزهد هو أن لا يملك المرء شيئاً فذلك هو عين الفقر وإنما الزهد هو أن تملك الشئ ولا يملكك فيصبح فى يدك وليس فى قلبك.

ولذلك استعاذ النبى > من الفقر فى دعائه: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت»[1] وكان النبى > زاهداً ولم يكن فقيراً، فقد كان له خُمْس الفئ وحينما فُتحت زهرة الدنيا على المسلمين جاءه الذهب أكواماً ولكنه لم يكن يُمسى وفى بيته منه درهم ولا دينار، وهناك فرق شاسع بين الزهد والفقر، وأعداء الإسلام -عن عمد وسوء قصد- يريدون إذابة هذا الفارق الهائل حتى يعتقد الناس أن الفقر فضيلة وأنه محبوب عند الله وذلك حتى يُنَفِّروا الناس منه ويصرفوهم عن الدخول فيه ويخيفوهم بضياع الأموال والثروات إذا هم أسلموا لله، ومن ثَمَّ تصبح صورة الإسلام فى عيونهم مشوهة مشوشة كئيبة، ولكن الله من ورائهم محيط، والحق واضح لمن طلبه جليٌّ لمن يبحث عنه.

وزبيدة أم جعفر زوجة هارون الرشيد -رحمها الله- خير مثال وأوضح دليل وأقوى برهان لهذا الغنى الذى لا تشغله دنياه عن طاعة ربه، ويرى نفسه مُسخراً لخدمة دينه وأن المال الذى بين يديه هو مال الله وليس ماله

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن أبى بكر - رضى الله عنه.

هو، وأنه مؤتمن عليه حتى يصرفه فى الوجوه التى يحبها الله ويُرغب فيها.

لقد جاء حين من الدهر على هذه الأمة لَبَّس الشيطان عليها الأمر فى شأن الزهد والتقشف حتى ظَنَّ الناس أن لبس المرقعات والنوم على المزابل والانقطاع عن الخلق والخلوة فى المقابر مع الأموات هى علامات التقوى والدين والورع!! وما بهذا أمرنا الله ولا كانت هذه سنة رسول الله ﷺ ولم يكن هذا سلوك أصحابه ولا منهج السلف الصالح من هذه الأمة وهؤلاء هم أعلم الأمة بمقاصد الشريعة وأوامر الله.

ولقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف -رضى الله عنهما- وغيرهما كثير من الأصحاب والتابعين وتابعى التابعين أصحاب ثروة هائلة وجاه عريض ومال وفير، ولكن دنياهم كانت فى أيديهم ولم تنفذ إلى قلوبهم، واستعملوها فى مرضاة ربهم وأخذوا منها نِعْم الزاد لسفر الآخرة ولم تشغلهم هذه الزخارف والزينة عن الطاعة طرفة عين حيث كان عثمان فيما يُروى عنه يقوم الليل كله بالقرآن كله فى ركعة واحد!! فهذا هو الغنى الشاكر حقاً..

وكانت «زبيدة» -رحمها الله- سبباً فى بناء مساجد عديدة وحفر آبار وعيون كثيرة انتفع بها كثير من الخلق وعابرى السبيل، ولها آثار كثيرة فى طريق مكة والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من بِرَك وآبار وعيون قد أحدثتها على نفقتها الخاصة.

وكان لزبيدة مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة منهن ورد عُشْرُ القرآن، وكان يُسمع فى قصرها دوى كدوى النحل من قراءة القرآن، ورغم الغنى الواسع فلم يكن بيتها محلاً للفجور والميوعة والخلاعة كما اشتهرت بذلك كثير من بيوت الأثرياء حيث كانت فى ذلك الزمان تغص بالخمر والفواحش والفجور، وقد نهجت «زبيدة» منهجاً فريداً فى حسن معاملتها للخدم حيث أنها شغلتهم بالطاعة والأعمال الصالحة فأصبحت سبباً فى

حصولهن على الأجور العالية كما حظيت هى بذلك الأجر أيضاً لأنها كانت دالَّة عليه وسبباً فيه. فهل سمعنا عن إنسان يستأجر خدماً أو يستعمل عبيداً وإماءً له فقط للقيام بالقرآن وتعهده والمداومة عليه؟؟ هكذا كانت «زبيدة» العابدة الغنية الشاكرة.

*** فصاحتها وذكاؤها:**

تُسمى «زبيدة» وتُكنى بـ «أَمَة العزيز» ولقَّبها جدها أبو جعفر المنصور «زبيدة» بسبب بياض بشرتها ونضارتها، وكانت بليغة العبارة حادة الذكاء ناضجة العقل صائبة الرأى، وفى حياتها مواقف تدل على هذه الخصال كلها.

فمما يدل على فصاحتها وحُسْن عبارتها أنه حينما بلغها موت ابنها الأمين مقتولاً لم تقبل الثأر له والانتقام ممن قتله درءاً للفتنة وحقناً للدماء. ففى رواية أنه لما قُتل ابنها محمد الأمين دخل إلى زبيدة بعض خدمها فقال: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد. فقالت: ويلك وما أصنع؟ فقال: تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان. فقالت: اخسأ لا أم لك ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال، ثم أرسلت إلى الخليفة من بعده المأمون بأبيات شعر فبكى ثم قال: اللهم إنى أقول كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب -رضى الله عنه- لَمَّا بلغه قتل عثمان: والله ما أمرت ولا رضيت.

وفى رواية الخطيب البغدادى: أن زبيدة قالت للمأمون عند دخوله بغداد: أهنيك بخلافة قد هنَّأت نفسى بها عنك قبل أن أراك ولئن كنت قد فقدت ابناً خليفة لقد عوضت ابناً خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك ولا ثكلت أم ملأت يدها منك وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ وإمتاعاً بما عَوَّض. ثم أخذ المأمون بعد ذلك يزيد فى تكرمة زبيدة وأسرتها فكان يوجه إليها فى كل سنة بمائة ألف دينار جدداً وألف ألف درهم.

وكان المأمون أخاً لمحمد الأمين من هارون الرشيد ولكن أمه غير زبيدة فكان لها بمثابة ولدها حيث إنه ولد زوجها هارون الرشيد وكانت هي بمثابة أمه حيث إنّها زوجة أبيه.

ومما يدل على ذكائها ما يحكيه الرواة أنها أرسلت إلى الأصمعي –وهو من علماء اللغة العربية– وأحضرته لتسأله فقالت له: إن أمير المؤمنين هارون الرشيد استدعاني وقال: هلمِّي يا أمَّ نهر، فما معنى ذلك؟ فقال لها: إن «جعفراً» في اللغة هو النهر الصغير وأنت أم جعفر!! وأنشد بعض الشعراء مدحاً في زبيدة وهي تسمع فقال:

أزبيدة ابنة جعفر . ٠ . طوبى لزائرك المثاب

تعطين من رجليك ما . ٠ . تعطى الأكف من الرِّغاب

فوثب إليه الخدم يضربونه. فقالت: لا تفعلوا فإنه إنما أراد الخير فأخطأ، ومن أراد الخير فأخطأ، أحب إلينا ممن أراد الشر فأصاب، وإنما أراد أن يقول على قول الشاعر: شمالك أجود من يمين غيرك، وقَفَاك أحسن من وجه غيرك!! فظنّ أنه إذا ذكر الرِجْلَين أنه أبلغ في المدح، أعطوه ما أمَّل وعرِّفوه ما جهل، وأمرت له بجائزة، فقال أبو نواس: لقد ورد عليها شئ لو ورد على العباس بن عبد المطلب ما كان عنده من الحلم والاحتمال وتسهيل الأمر أكثر مما كان عند هذه المرأة وهي من بنات أبنائه ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وأي حلم أعظم من حلم القادر على العقوبة، ولكنها لقوة ذكائها أدركت مال يدركه الآخرون، فهي لم تنظر إلى زلة الشاعر وسوء تعبيره ولكنها نظرت إلى قصده النبيل من المدح والثناء، وأخذت تعلّم جواريها درساً عظيماً لهن ولغيرهن ألا وهو: أن الذي يريد الخير فيخطئ أحب ممن يريد الشر فيصيب. وهذا الحديث الذي يذكر الرجل الذي فَقَد ناقته وعليها

طعامه وشرابه ثم استيقظ وهى قائمة عند رأسه فقال: اللهم أنت عبدى وأنا ربك!! أخطأ من شدة الفرح فلم يعذبه ربه ولم يعاتبه بل غفر له زلّة لسانه لأنه أراد الشكر والثناء والمدح فأخطأ لسانه ولكن أصاب قلبه، والعبرة كلها بصواب القلب حتى لو أخطأ اللسان.

*** جودها وكرمها:**

مما نقله أبو الفرج ابن الجوزى من آثارها الجليلة التى خَلَّفتها وانتفع بها العالم خير انتفاع وهى كثيرة جداً منها: أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وأسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم ومهدت الطريق لمائها فى كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر، وعرفت هذه العين بعين الشماش وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: اعملها ولو كانت ضربة فأسٍ بدينار، فبلغت النفقة عليه ألف ألف وسبعمائة ألف دينار.

ووصف اليافعى فى القرن الثامن للهجرة تلك العين فقال: إن آثارها باقية ومشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة ذات بنيان محكم فى الجبال تقصر العبارة عن وصف حسنه وينزل الماء منه إلى موضع تحت الأرض عميق ذى درج كثيرة جداً لا يوصل إلى قراره إلا بهبوط كالبير يسمونه لظلمته يفزع بعض الناس إذا نزل فيه وحده نهاراً فضلاً عن الليل.

وبلغت نفقاتها فى بعض حجاتها ألف ألف دينار وبلغت نفقتها فى ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم. فرفع إليها وكيلها حساب النفقة، فنهته عن ذلك وقالت: ثواب الله بغير حساب. وهكذا يكون السخاء والجود والكرم، فالذى يتعامل مع ربه لا ينظر كم أنفق ولا مقدار ما أعطى، فالله غنى عن نفقته وماله وإنما هو الذى ينفع نفسه ويقدم لها الخير حيث سيلقاه عند ربه أحوج ما يكون إليه، وليس فى طاعة الله سرف،

وليس فى الجود والإنفاق فى وجوه الخير تبذير، وإنما التبذير حينما ينفق المال فى غير طاعة، والسرف حينما يوضع فى غير فائدة ومصلحة تعود على صاحبه، وأما فى طاعة الله فلا قيد ولا حرج، ومن زاد فهو خير له وعطاء ربه خير وأفضل وأعظم من عطائه.

وقال ابن جبير بعد أن ذكر المصانع والبرك والآبار والمنازل التى شيدتها «زبيدة» من بغداد إلى مكة: إن كل ذلك من آثار زبيدة، فانتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت فى هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن ولولا آثارها الكريمة فى ذلك لما سُلكت هذه الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضا عنها.

لقد ماتت زبيدة كما سيموت كل البشر ولكن ذكراها خالدة فى أفئدة ملايين من الحجاج الذين انتفعوا بهذه الآثار العظيمة والتى جرى ثوابها عليها بعد موتها، وقد جاءت البشريات لزبيدة بمغفرة الله لها وحسن ثوابه وجزائه على أعمالها. فقد روى ابن خلكان فى كتابه «وفيات الأعيان» عن عبد الله بن المبارك أنه رآها فى المنام فقال لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لى الله بأول معول[1] ضُرب فى طريق مكة، قال: قلت ما هذه الصفرة فى وجهك؟ قالت: دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسىّ فزفرت جهنم عليه زفرة فاقشعرّ لها جسدى، فهذه الصفرة من تلك الزفرة.

وقيل إن ابنتها رأتها أيضاً فى المنام فسألتها: ماذا فعل الله بك؟ قالت: يا بنية غفر لى ورحمنى، فقالت لها: بماذا نجوت؟؟ فقالت: يا بنية لولا ركيعات كنت أركعهن قبل النوم لهلكت.

هذه «زبيدة» – رحمها الله – زوجة هارون الرشيد التى قطعت حجة كل غنى يتعلل بغناه وكثرة جاهه وأمواله، فمنذ متى والدنيا هى الحجاب بين العبد وربه إلا أن يضعه العبد بنفسه؟ فالدنيا دار صدق لمن صدق الله فيها

---

(١) أى فأس.

ودار بلاء لمن انشغل بزينتها وزخرفها، فمن شاء جعلها حجاباً ومن شاء جعلها معراجاً يصل به إلى مرضاة ربه، وحينما نزل قول الله تعالى﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر: ٩] قال الصحابة: ذاك عثمان بن عفان رضي الله عنه لم تشغله دنياه عن طاعة ربه.

وكم من غني زاهد وكم من فقير راغب، فالغنى والفقر ليس هو الدلالة على التقوى أو الفجور، ولكن المراد كيف يكون العبد مع ربه في جميع الأحوال، إن أصابته سراء شكر ربه فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر لأمرالله فكان خيراً له، فهذا هو المؤمن بربه حقاً وصدقاً.

* * *

فصـــل

لبـابـــة

ما أحلى الخلوة بالله بعيداً عن أعين الخلق حيث يرى العبد نفسه غنياً بربه مستغنياً به عن كل أنيس وجليس، وإذا كانت البصرة قد اشتهرت بكثير من العابدات الصالحات، ففى الشام لهن أخوات على ذات السبيل ولهن السيرة نفسها فى التقوى والعبادة والصلاح، ومنهن «لبابة» -رحمها الله- إحدى عابدات بيت المقدس.

قال محمد بن روح: قالت لبابة المتعبدة فى بيت المقدس: إنى لأستحى منه أن يرانى مشتغلة بغيره. هذا هو حياء العابد الأوّاب الخاشع، لا يستحى من قلة ماله ولا من تواضع مسكنه وثيابه ولا من قلة جاهه وسلطانه، فليست هذه دواعى الاستحياء والخجل، إنما الغفلة عن الله والاشتغال بغيره هى سبب الخجل ممن يعرفون قدر الله وجلاله وعظمته وكبرياءه، فالصلة التى بينهم وبين محبوبهم لا تجعل لهم الخيرة فى قضاء أوقاتهم حسب الهوى، ولا شغل فكرهم وعقلهم بغير الله فى الخلوة أو الجلوة.

وقال محمد بن روح: قالت لبابة المتعبدة: مازلت مجتهدة فى العبادة حتى صرت أستروح[1] بها، وإذا تعبت من لقاء الخلق آنسنى بذكره، وإذا أعيانى الخلق روّحنى التفرغ لعبادة الله عز وجل والقيام إلى خدمته.

وقال لها رجل: ها أنذا أريد الحج فماذا أدعو بالموسم؟ فقالت: سل الله تعالى شيئين: أن يرضى عنك ويبلغك منزل الرّاضين عنهم، وأن يجعل ذكرك فيما بين أوليائه.

---

(١) أى تجد فيها الراحة والأمان والسكن.

لقد أوصته بالقمة فى الأمانى والمطالب والرجاء، فما غاية العبد من وراء الجهد والتعب والعبادة والعناء والمجاهدة إلا أن يرضى عنه ربه، فالمبتغى لجميع العُبَّاد والزهّاد هوا لرضا من الله عليهم، وأن يصبحوا فى زمرة أوليائه وعباده المخلصين. والأولياء الأبرار تتبين منازلهم من اختيارهم لألفاظ الدعاء وما يناجون به ربهم من عبارات الثناء والحمد والتمجيد، واختيار الدعاء يدل على عمق الفهم وقوة البصيرة، ولم يكن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يحمل هَمَّ الإجابة وإنما يحمل هَمَّ الدعاء، لأنه إذا رُزق الدعاء فإن الإجابة معه لأنه يدعو سميعاً بصيراً مجيب الدعاء.

ولم تكن لبابة وحدها فى بيت المقدس بل كان معها كثيرٌ من أخواتها فى الطاعة والأعمال الصالحة، ومنهن امرأة يُقال لها «طافية»، وكان وهب بن منبه يقول لها: يا «طافية» ما أشدّ العمل عليك؟ فتقول: ما أجدنى أجد شيئاً أشدّ علىّ من طول الفكر. قال: وكيف ذلك؟ قالت: إنى إذا تفكّرت فى عظمة الله عز وجل وأمر الآخرة طاش[1] عقلى وأظلم علىَّ بصرى، واسترخت لذلك مفاصلى، فقال لها وهب بن منبه: إذا أنت وجدت ذاك فافزعى إلى قراءة القرآن فى المصحف. نعم. ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] .

---

(١) أى ذهب وولّى.

فصــل

أم الدرداء الصغرى

إنها زوجة صحابى جليل عُرف عنه الحكمة وحب الذكر والطاعة، وقد أخذت عنه حب الذكر والشغف به حتى أصبح لقلبها بمثابة الماء للأرض والريِّ للظمآن، فلا تجد حياة فؤادها إلا حينما تذكر بلسانها أو تسمع بأذنها وذلك كله مع حضور القلب ويقظة النفس.

قال ابن الجوزى -رحمه الله- : اعلم أن أم الدرداء اثنتان : فالكبرى تُسمى خيرة بنت أبى حدرد ولها صحبة ورواية عن النبى > ويقال إنها ماتت قبل أبى الدرداء، وأم الدرداء الصغرى اسمها : هُجَيْمة بنت حُيَيّ الوصابية - قبيلة من حِمْيَر - وهى زوجة أبى الدرداء أيضاً وهى التى خطبها معاوية بعد موت أبى الدرداء فأبت أن تتزوجه، وهى التى سيكون الحديث عنها بإذن الله.

وقد كانت «أم الدرداء الصغرى» إحدى عابدات الشام، والتى كان لها السبق فى العبادة والصلاح حتى قصدها الناس يتعلمون منها رقة القلب وخشوع الجوارح عند ذكر الله وقراءة القرآن.

ولم تسمع أم الدرداء هذه من النبى ﷺ ولكنها روت عن زوجها أبى الدرداء حديثاً رواه عنها طلحة بن عبد الله بن كريز قال : حدثتنى أم الدرداء قالت : حدثنى سيدى -تعنى زوجها أبا الدرداء- أنه سمع رسول الله > يقول : «من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به : ولك بمثل»[1]. قال أبو بكر البرقانى : وهذه أم الدرداء الصغرى التى روت هذا

---

(١) رواه مسلم والبزار.

الحديث وليس لها صحبة ولا سماع من النبى ﷺ وإنما هو من مسند أبى الدرداء.

وحينما حدَّثت أم الدرداء عن زوجها فإنها تحدِّث بوقار واحترام شديد يَدلُّ على تقواها ودينها وصلاحها، فالمرأة الصالحة توقر زوجها وتتلطف فى الحديث معه ولا تؤذيه بلسانها، وقد ظهر هذا التوقير لزوجها الصحابى الصالح حينما كانت تحدث عنه فتقول: حدثنى سيدى، والمرأة المؤمنة حينما تحترم زوجها فإنما تحترم نفسها وتجعل لزوجها هيبة فى قلوب أبنائها، ومن ثَمَّ يستقر البيت وتنصلح الذرية ويستجيب الأولاد لأىِّ نُصح يصدر عن أبيهم، فتكون الطاعة منشؤها الاحترام وليس الخوف وسببها الود والحب وليس السوط والعصا، والفيصل فى هذا كله ما يراه الأبناء من سلوك أمهم مع أبيهم وكيف تتعامل معه حينما تناديه وتجالسه وتأخذ مشورته وتتعامل معه فى الأمور كلها.

* عابدة لا تمل ذكر الله:

عادة الإنسان أنه يحب التغيير ويمل طول الأمد على حالة واحدة، وأما الصالحون الأبرار فلا يملون ذكر الله أبداً، ولا تنقطع رغبتهم ولا ينتهى نهمهم منه لأنه حياة القلوب وغذاء الأرواح وشفاء النفوس من أمراضها وعللها.

قال عبد الله بن أحمد: حدثتنى خديجة أم محمد، وكانت تجيىء إلى أبى تسمع منه ويحدثها، قالت: حدثنا إسحاق الأزرق قال: حدثنا المسعودى عن عون بن عبد الله قال: كنا نجلس إلى أم الدرداء فنذكر الله عندها فقالوا: لعلّنا قد أملَلْناك؟ قالت: تزعمون أنكم قد أمللتمونى؟ فقد طلبت العبادة فى كل شئ فما وجدت شيئاً أشفى لصدرى ولا أحرى أن أصيب به الذى أريد من مجالس الذكر.

وقال ميمون بن مهران: ما دخلت على أم الدرداء فى ساعة صلاة إلا وجدتها مصلِّية.

وقال يونس بن ميسرة بن حَلْبَس: كنا نحضر أم الدرداء وتحضرها نساء متعبدات يقمن الليل كله حتى إن أقدامهنّ قد انتفخت من طول القيام.

كم من نساء يجتمعن على لغو باطل ولهو عابث وغفلة لا خير فيها، ولكن هؤلاء النسوة قد جمعتهن الصلاة والقيام والدعاء والبكاء، هكذا فلتكن صحبة النساء، وعلى هذه الأعمال الصالحة فليكن اجتماعهن، وعلى ذلك الفكر وهذا الهم يكون لقاؤهن، فهذه الهموم العالية لا تجعل هناك أىّ ميدان للغيبة والنميمة والعشرة الفاسدة، وستغلق جميع الأبواب أمام الشيطان فلا يجد إلى قلوبهن سبيلاً، ولا يستطيع أن يعبث بأفكارهن ولا أن يضيع أوقاتهن، فقد عرفن قيمة الوقت ونفاسة الزمن وقدر العمر، فلاساعة تضيع فى غفلة ولا يوم يَمُرُّ بغير عمل صالح وعزمة خير.

وقال يحيى بن معين: ماتت الدرداء قبل أم الدرداء، فلما دفنتها قالت: اذهبى إلى ربك وأذهب إلى ربى. فدخلت المسجد.

إن المؤمن لا يستسلم لأحزانه، ولا يُحمل نفسه من الآلام فوق ما تطيق، ولا يحب تجديد الأحزان حتى لا يُوحى هذا بالاعتراض على القضاء والشكوى من القدر، وهكذا كانت «أم الدرداء» -رحمها الله- حينما أصيبت بابنتها فلم تملأ الدنيا صراخاً وعويلاً، ولم ترغب فى اجتماع النسوة حولها للعزاء والتخفيف من المُصاب الأليم، ولكنها توجهت إلى المحراب حيث تأخذ زاد الصبر من الصلاة والدعاء والمناجاة ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وكانت فى نفسها متواضعة لا ترى لنفسها قدراً ولا قيمة، وإذا طلب أحد إليها الدعاء لم تر أنها أهلٌ لذلك، فقد قال إبراهيم بن أبى عبلة: قلت

لأم الدرداء ادعى لنا: قالت: أوبلغتُ أنا ذلك؟ أى هل بلغت درجة يُطلب مِنّى فيها الدعاء!!

ومن كلماتها فى الخشوع ووجل القلب عند ذكر الله وقبل الدعاء، ما رواه شهر بن حوشب عنها أنها قالت: إنما الوجل فى قلب ابن آدم كاحتراق السعفة، أما تجد لها قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: فادع الله إذا وجدت ذلك، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

إن هذه وصفة مَنْ جَرَّب احتراق القلب من خشية الله فاستجاب الله له دعاءه، وهكذا كانت نصائح السلف صائبة مفيدة، لأنها عاشوا حياة الإيمان بكل صدق وإخلاص فذاقوا حلاوتها فوصفوها للناس كما وجدوها، طيبة الريح حلوة المذاق فيها شفاء للناس.

*** قلبها معلق بالقرآن:**

القرآن يخاطب من كان حياً وليس من هو فى عداد الموتى، فمن ألقى سمعه وخشع قلبه فإن الله يفتح أقفال قلبه لهذا النور العظيم، فيقشعر البدن وتدمع العين وتنشط الجوارح فى الطاعة وينهض البدن إلى مرضاة ربه ولسان حاله يقول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

عن أبى عمران الأنصارى قال: كنت أقود دابة أم الدرداء فيما بين بيت المقدس ودمشق فقالت لى: يا سليمان أسمع الجبال وما وعدها الله عز وجل، فارفع صوتى بهذه الآية: ﴿ **وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٧].

والمؤمن يشعر بهذه الصلة التى تربطه بما حوله، ويشعر أن أصداء الكون تردد معه ذكر الله وهى فرحة مسرورة بهذا العابد الذى يطيع ربه، فقد جاء فى الأثر: إن الجبل ينادى على الجبل والوادى ينادى على الوادى كل يوم ويقول: هل مَرَّ بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل؟؟

وحينما كان النبى ﷺ واقفاً على جبل أحد فارتجف الجبل وكان معه أبو بكر وعمر وعثمان -رضى الله عنهم- فقال له النبى ﷺ : اسْكُن أحد فإن عليك نبى وصِدِّيق وشهيدان. وكان يقول ﷺ : «أحد جبل يحبنا ونحبه» فما العاطفة التى تربط بين النبى ﷺ وبين جبل لا توجد فيه إلا حجارة وحصى ورمال؟؟ إنها عاطفة التوحيد والذكر والطاعة والخضوع والاستسلام لله رب العالمين، فما من شيء إلا ويسبح بحمده وإن لم نكن نحن نفقه تسبيحه.

وقال سعيد بن عبد العزيز: أشرفت أم الدرداء على وادى جهنم(١) ومعها إسماعيل بن عبيد الله فقالت: يا إسماعيل اقرأ، فقرأ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فخرَّت أم الدرداء على وجهها وخرَّ إسماعيل على وجهه فما رفعا رءوسهما حتى ابتلَّ ما تحت وجوههما من دموعهما. هكذا آيات القرآن إذا مَسَّت قلوب المؤمنين فإنها تهزُّها هزاً وتنفض عنها الركام الذى ران عليها فتقشعر منه الجلود إجلالاً لله وتعظيماً له وتصديقاً بوعده ووعيده فالقرآن هو كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد جاءنا بأخبار الغيب وما سيكون بعد الموت، والذى يسمعه أو يقرأه فكأنما يرى هذا الغيب شهادة ماثلة أمام عينيه فيزداد خوفه وتزداد خشيته، وهذا هو فعل القرآن فى النفوس الطاهرة التى تستقبله بالتوقير والتصديق واليقين، وهذا هو النبى ﷺ حينما يسمع القارئ يقرأ قول الله تعالى: «هل أتاك حديث الغاشية» فيصغى إليه بسمعه ويقول: نعم أتانى حديث الغاشية.

وهذا عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- على بغلته فى الطريق فيسمع قارئاً يقرأ قول الله تعالى: «إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة» فسقط عن دابته مغشياً عليه وحملوه إلى بيته وصاروا يعودونه شهراً وما به مرض

---

(١) اسم وادٍ من الأودية بالصحراء.

إنما به خوف القيامة والإشفاق من هول يوم الواقعة. والمؤمنون الصادقون تتشابه أخلاقهم وطرائقهم وصفاتهم مهما اختلفت بهم الأزمان والأماكن، فالحق الذى جمعهم حق واحد، فمن أين يأتى إختلاف السيرة واختلاف العمل؟؟!!

وقد كانت «أم الدرداء الصغرى» فى مواعظها كثيراً ما تذكر الموت وتحذر الناس من فتنة الدنيا وتنصح لهم بالاستعداد ليوم المعاد. قال شيخ من بنى تميم: حدثنى هزَّان قال: قالت لى أم الدرداء: يا هزَّان هل تدرى ما يقول الميت على سريره؟ فقلت: لا. قالت: فإنه يقول يا أهلاه ويا جيراناه ويا حملة سريراه، لا تغرنَّكم الدنيا كما غرَّتنى، ولا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى، فإن أهلى لا يحملون عنى من وزرى شيئاً، ولو حاجّونى عند الجبار لحجّونى[1]. ثم قالت أم الدرداء: الدنيا أسحر لقلوب العابدين من هاروت وماروت، وما آثرها عبد قط إلا أضرعت خَدَّه[2].

وحينما توفى عنها زوجها أبو الدرداء -رضى الله عنه- تقدم لخطبتها معاوية -رضى الله عنه- فأبت أن تتزوجه رغم ما ستكون فيه من نعمة ومال وجاه، ولكنها آثرت أن تموت وهى على ذمة أبى الدرداء حتى تلحق به يوم القيامة وقد ذكرت فى ذلك حديثاً سمعته منه فى هذا الشأن، فقد قال ميمون بن مهران خطب معاوية أم الدرداء فأبت أن تزوجه وقالت سمعت أبا الدرداء يقول: قال النبى ﷺ: «المرأة فى آخر أزواجها» أو قال: «لآخر أزواجها» أو كما قال ولست أريد بأبى الدرداء بدلاً. وهكذا كان وفاؤها لزوجها بعد مماته وحبها له قد دفعها إلى الرغبة أن تكون زوجة فى الآخرة كما حظيت بشرف زواجه منها فى الدنيا.

وقد كانت أم الدرداء حافظة لكثير من الأحاديث التى روتها عن زوجها

---

(١) أى كانت لهم الحجة علىّ حيث لا يحمل أحدٌ وزر أحد ولا يغنى أحد عن أحد شيئاً.

(٢) أى جعلته ذليلاً.

الصحابى أبى الدرداء، وقد روى عنها جمع غفير من رواة الحديث الذين تعلموا منها ونقلوا عنها، قال أبو القاسم الطبرى: يروى عن الصغرى: اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر، وزيد بن أسلم، وطلحة بن عبد الله بن كريز، وصفوان بن عبد الله بن صفوان، وعثمان بن حيّان الدمشقى، وسالم بن أبى الجعد، ويونس ابن ميسرة بن حلبس.

إن المرأة المؤمنة فى الصدر الأول زمن القرون الثلاثة الخيرة لم يكن لها سهم واحد من أعمال الطاعة، ولكنها ضربت فى كل غنيمة بسهم، فهى فقيهة فى دينها محدثة تروى أحاديث نبيها ﷺ، وهى مضرب الأمثال فى الصبر والرضا بالقضاء والقدر، وهى فى صفوف المتهجدين بالليل والمستغفرين بالأسحار، وهى لا تفتر عن ذكر الله ولا تمل قراءة القرآن، وهى بالنهار صائمة وتمشى بين الناس بالنصيحة، وهكذا فلتكن المؤمنة الصالحة الصادقة فى كل زمان وكل مكان..

* * *

فصـل

ميمونة بنت شاقولة الواعظة

إنها إحدى ربات الوعظ والإرشاد، فلم تكن الدعوة يوماً مقصورة على الرجال وحدهم، فالأمانة تحملها الأمة جميعاً نساءً ورجالاً، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فالمسئولية فى أعناق الجميع ولن يفلت أحد من السؤال عنها، فهذه الأمة تظل محفوظة من الهوان والذل مادام دينها حياً فيها، فإذا ضاع الدين منها هانت وسقطت من عين الله وصارت نهباً لكلاب الأرض ينهشونها نهش الذئاب، ولن يبقى بعد ذلك كرامة لامرأة ولا رحمة بطفل ولا شفقة على عجوز ولا كبير السن، فأعداء الأمة فيهم شراسة وقسوة وغلظة تظهر كل حين عندما يرون فى المسلمين تخاذلاً وتهاوناً ورضًا بمتاع الحياة الدنيا، ولهذا وجب الحذر والحيطة من الغفلة كما وجبت الحمية والغيرة على دين الله حتى تلوح أعلامه خفاقة فى جميع الآفاق.

ومن مواعظ «ميمونة بنت شاقولة الواعظة» ما رواه أبو على بن المهدى قال: أخبرنى أبى قال: سمعت ميمونة بنت شاقولة الواعظة تقول: هذا قميصى له اليوم سبع وأربعون سنة، ألبسه وما تخرق غزلته لى أمى وصبغته بماء السنابك، الثوب إذا لم يعص الله فيه لا يخترق سريعاً.

ما أعظم هذه النصيحة وأغلاها، فالثوب نعمة من نعم الله، وشكر هذه النعمة ألا تُستعمل فيما يغضبه وإنما تستعمل فيما يرضيه، وبركة الثوب تزداد كلما زادت طاعة العبد لربه فيه، ولذلك من السنة إذا رُزق العبد ثوباً جديداً أن يقول: «اللهم إنى أسألك خير هذا الثوب وخير ما لُبس له، وأعوذ بك من شر هذا الثوب وشر ما لُبس له.

ومن كرامات «ميمونة بنت شاقولة» التي أظهرها الله لها مما يدل على حسن ثقتها بربها وقوة يقينها بقدرته ومدى رجائها في عطائه وفضله ما حدَّث به ابنها من آية عجيبة رآها بعد موتها:

قال عبد الصمد - ابن ميمونة بنت شاقولة الواعظة -: كان في دارنا حائط له جوف[1] فقلت لها: أمضي أستدعي البَنَّاء؟ فقالت: هات رقعة والدواة فناولتها، فكتبت فيها شيئاً وقالت: دعه في ثقب منه، ففعلت فبقي الحائط نحواً من عشرين سنة، فلما ماتت ذكرت القرطاس، فقمت فأخذته لأقرأه فوقع الحائط، وإذا في الرقعة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا** ﴾ [فاطر: ٤١].

﴿بسم الله، يا ممسك السموات والأرض أمسك!!﴾.

وقد استجاب الله دعاءها وأمسك الجدار من السقوط، وكان يقينها على الدعاء يقيناً لا يدخله شك ولا يتطرق إليه ريب،وهذه هي أسباب القبول واستجابة الدعاء، وهي بذلك تعلمنا وتعلم الأمة الطريق المختصر لقضاء جميع مصالح الدنيا، ولا يعرف قيمة الدعاء وقوة اللجوء إلى الله إلا المؤمن، فالغافل واللاهي والعاصي لا يدرك قوة الدعاء ولا يؤمن إلا بما تراه عينه وتلمسه جوارحه ولذلك ستظل خزائن العطاءات الغيبية وقف على أهل اليقين والإيمان الراسخ وحدهم.

* * *

(١) أي يخشى عليه السقوط والانهيار.

فصــل

رابعة بنت إسماعيل الشامية

الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة، والذى رزقه الله امرأة تعينه على أمر دينه ودنياه فقد حباه نعمة عظيمة لا يعرف طعمها إلا من حُرم منها أو اعترف لله بفضلها فشكره عليها وسأله أن يحفظها من الزوال وأن يديمها عليه فلا يسلبها منه بعد أن أعطاها إياه.

ورابعة الشامية شبيهة بأختها البصرية رابعة العدوية فى سيرتها وأخلاقها وزهدها وعبادتها وصلاحها، فإذا كان الله قد أكرم أهل العراق فى ذلك الزمان بهذه الدرة الغالية «رابعة العدوية» فقد أكرم الله أهل الشام أيضاً بدرة غالية ألا وهى «رابعة الشامية» زوجة أحمد بن أبى الحوارى وهو رجل عابد صالح زاهد.

وقد تجلَّت صفاتها وطيب معدنها فى معاشرتها لزوجها وحياتها معه، فمع واجباتها كزوجة لم تنس واجباتها كمسلمة مؤمنة مكلفة بطاعة ربها، والزوجة التى تجمع بين الواجبين تحظى بحب زوجها ورضا ربها وإذا ماتت على تلك الحال تفتح لها أبواب الجنة الثمانية لتدخل من أيها شاءت.

قال أحمد بن أبى الحوارى: قلت لرابعة وهى امرأتى وقد قامت بليل: قد رأينا أبا سليمان وتعبَّدنا معه، ما رأينا مَنْ يقوم من أول الليل. فقالت: سبحان الله مثلك يتكلم بهذا؟ إنما أقوم إذا نُوديت. قال: وجلست آكل وجعلَت تُذكِّرنى. فقلت لها: دعينا يهنينا[1] طعامنا. قالت: ليس أنا وأنت ممن يتبغض عليه الطعام عند ذكر الآخرة.

---

(١) أى نهنأ بطعامنا.

لقد كانت أجوبة رابعة على زوجها أجوبة مُسْكتة، فالذى يتهجد بالليل لا يستطيع أن يقوم إلا بإذن الله وتوفيقه للقيام بين يديه، فمن أيقظه الله بالليل من أوله أو آخره أو وسطه فإنما أراد به خيراً، فما أيقظه إلا ليعطيه ويمنحه ويجعله محلاً لمغفرته ورحمته ورضوانه، فالبصير العاقل هو الذى يتقبل منحة ربه وعطيته بالحب والشكر والعرفان، والسفيه الأحمق الغافل هو الذى يُضَيع هذه المنحة الربانية التى تتحول عنه إلى غيره، فإذا كان هو قد زهد فيها فهناك من يشتاقون إليها ويتطلعون إلا نوالها والتشرف بها.

والأكل ضرورة بشرية يومية، وإذا كان على سنة النبى ﷺ صار عبادة يؤجر العبد عليه، واليهود لا يتكلمون على طعامهم ولذلك أمر النبى ﷺ بمخالفتهم والكلام على الطعام ولو بالشيء اليسير، ورابعة قد أحيت هذه السنة الجليلة حينما كانت تحادث زوجها بالحديث الطيب عن الآخرة أو الأعمال الصالحة أو التذكير بما يجب علينا عمله فى اليوم والليلة، وهى وزوجها أحرى أن يكون هَمُّ الآخرة هو الغالب عليها حتى حين الطعام والشراب، فليست هى وزوجها ممن يتغبض عليه طعامه عن ذكر الآخرة..

ومن نصائحها الغالية لزوجها العابد الصالح ما توصيه بغض الطرف عن مساوئ العباد والانشغال بإصلاح العمل وتهذيب النفس حتى تكتمل فضائلها وتسمو صفاتها وشمائلها. قال أحمد بن أبى الحوارى: قالت لى رابعة: أى أخى أعلمت أن العبد إذا عمل بطاعة الله أطلعه الجبّار على مساوئ عمله فيتشاغل به دون خلقه؟

حقاً من شُغل بنفسه شُغل عن غيره، ومن شُغل بربه شُغل عن نفسه، والوقت المطلوب لإصلاح الطاعة وجبر ما فيها من نقص وتقصير لا يدع فرصة للعبد كى يفتش فى عيوب الآخرين أو يطلب عثراتهم أو يبحث عن زلاتهم وعوراتهم، فالنفس فيها ما يكفيها من العيوب والمساوئ، والعاقل من جعل عينه على نفسه ولها عن عيوب الآخرين حتى يستكمل مؤهلات

الجنة من صفات الخير والإيمان.

* زاهدة في صومعة الحياة:

الذي يتطلع إلى ما عند الله من الكرامة والنعيم حتماً ستصغر في عينه جميع متع الحياة الدنيا وسيراها سجناً يرجو الخروج منه ويتحين لحظة الإفراج حتى يصل إلى محل الراحة والكرامة والأمان، فهناك في جنة الخلد يكون السكن وطمأنينة القلب ولذة النظر إلى وجه الله الكريم.

وقد كانت «رابعة» صائمة معظم أيامها، ولا ترى نفسها أهلاً للطعام والشراب، بل كانت تبخل على جسدها باللقمة ولا ترى أنها تستحق هذه النعمة!! أإلى هذا الحد وصل زهد رابعة وانكسارها بين يدى ربها حتى لا ترى نفسها أهلاً للقمة تضعها في فيها أو شربة ماء تشربها؟؟!!

قال أحمد بن أبى الحوارى: سمعت رابعة تقول: إنى لأضِنّ(١) باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسي، وإنى لأرى ذراعي قد سمن فأحزن!! قال: وربما قلت لها: أصائمة أنت اليوم؟ فتقول: مامثلي يُفطر في الدنيا. قال: وربما نظرت إلى وجهها ورقبتها فيتحرك قلبي على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكراتي أصحابنا من أثر العبادة. وقالت لى: لست أحبك حبّ الأزواج إنما أحبك حبّ الإخوان(٢)، وإنما رغبت فيك رغبة في خدمتك!!

لقد أصبحت هيئة رابعة لا تفارق خيال زوجها، وأصبحت صورتها مظهراً للتضحية والصدق مع الله، حتى أنه تصاغرت أمام عينيه مجاهدات أصحابه وتضحياتهم في البذل والجهاد والعبادة، وأصبحت هيئتها تحرك القلب إلى الأعمال والطاعات وتبعث فيه الهمة والنشاط، فهل بعد ذلك من درجة يبلغها العابدون والزاهدون والصالحون من أولياء الله الأبرار؟؟

---

(١) أى ابخل.

(٢) أى إخوانها في الله الذين يطيعون ربهم ويتفانون في عبادته.

ولقد أبدت لزوجها نيتها حتى فى زواجها منه وارتباطها به كزوجة، فهى لا تحبه حباً روتينياً رسمياً فقط لأنه زوجها، ولكنها تحبه لكونه عابداً مسلماً مؤمناً صالحاً عالماً تقياً يحب ربه ويخدم دينه ويجتهد لإصلاح نفسه وإصلاح غيره، فهى تخدمه حتى تعينه على ما هو فيه وتفرغه لما وهب نفسه له، وبهذه النية الصالحة الطيبة فهى تخدم زوجها ابتغاء الأجر والثواب من ربها لا خوفاً من زوجها ولا طمعاً فى ماله ودنياه وإنما طاعة لربها ورغبة فى خدمة مسلم يحب ربه ويتفانى لخدمة دينه. ألا ياليت نساء الأمة يصححن نيتهن عند ارتباطهن بأزواجهن، فكم من امرأة صالحة سبقت زوجها فى ميدان العبادة والصلاح والتقوى ببركة صدقها مع ربها وإخلاصها فى نيتها وصلاح ضميرها وسريرتها.

ولم تبخل بمالها عن زوجها، ولم تُعيِّرْهُ بالنفقة عليه أو على بيته، وأثناء إعدادها للطعام كانت ذاكرة لربها، والطعام إذا طُهى بالذكر والتسبيح كان سبباً لتقوية الجسد على الطاعة ولا يكون سبباً فى زيادة الشهوة ولا يصبح مجلبة للأمراض والتخمة.

قال أحمد بن أبى الحوارى: وكانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها علىّ. وكانت إذا طبخت قِدْراً قالت: كُلْها يا سيدى فما نضجت إلا بالتسبيح.

وكانت لا تفرغ من عمل فى ليلها ونهارها فخافت بذلك أن تضيع حقوق زوجها، وربما تكون معذورة بهذه العاطفة العجيبة التى جذبتها للأعمال الصالحة حتى ما عادت ترى لذة فى حياتها إلا فيها، قال زوجها أحمد: وكنت إذا أردت جماعها نهاراً قالت: أسألك بالله لا تُفطِّرنى اليوم، وإذا أردتها بالليل قالت: أسألك بالله لما وهبتنى لله الليلة. فهى لا تمتنع ولا تتكبر ولا تتعالى ولكنها تستأذن متوسلة إليه بالله ليتركها، فإذا أراد زوجها أن يقضى وطره فى الحلال فأين يذهب؟ هل تتركه يصارع شهوته ويتمزق وجدانه ويتحرق فؤاده ثم يدخل إليه الشيطان ليغريه بالحرام مادام الحلال قد

صار محظوراً عليه؟ كلا. فقد كانت صالحة تعرف حدود ربها، ولا تكون سبباً في لجوء زوجها إلى الحرام، فماذا فعلت هذه التقية الصالحة؟؟

قال أحمد: قالت لى رابعة: لست أستحل أن أمنعك نفسى وغيرى، اذهب فتزوج!! قال: فتزوجت ثلاثاً، وكانت تطعمنى اللحم وتقول: اذهب بقوّتك إلى أهلك!!

سبحان الله!! فأين ذهبت الغيرة من قلبها؟ ولماذا لم تُشنّع عليه كما تفعل بعض النسوة وكأن الأمر يقارب الكفر والردة؟ وكيف صغرت هموم الدنيا فى عينها حتى لم تعد تبالى بهذه الهموم الصغيرة؟ نعم. هذه هى همم الكبار من خاصة أولياء الله وأحبابه، فالذين آمنوا أشد حباً لله، وليست هذه دعوى يدعيها اللسان أو يفتريها الإنسان ولكنها حقيقة راسخة فى القلوب وخصلة مركوزة فى النفس من خصال الخير والمعروف.

وكانت رابعة حاضرة القلب والفكر مع آيات الله، فلا تمر بها الأحداث دون التقاط العبرة وأخذ الفائدة وجنى الثمار، قال أحمد بن أبى الحوارى: سمعت رابعة تقول: ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى القيامة، ولا رأيت الثلج[١] إلا رأيت تطاير الصحف، ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر[٢].

---

(١) تعنى تساقط الثلج وتطايره متفرقاً من السماء يشبه تطاير الصحف فى الهواء يوم القيامة.

(٢) أى عند خروج أسراب الجراد هكذا سيكون حشر العباد يوم القيامة مصداقاً للآية: ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر﴾ [القمر: ٧].

فصـل

فاطمة النيسابورية

نور العلم يعـصـم أصـحـابه من الشطط والزلل، والإسـلام يوجب طلب العلم على الرجال والنساء جميعاً، فهو الحصن المتين الذى يتحصن به المسلم من شيطانه وهواه ووسوسة نفسه الأمارة بالسوء، فالشيطان يلعب بالجاهل كـمـا يلعب الصـبـيـان بالكرة، أمـا العـالـم فـهـو أشـد على الشيطان من ألف عابد، وذلك أن نور العلم يطفىء نار الشيطان.

وفـاطمـة النيـسـابورية إحـدى عابدات نيـسـابور الصـالحـات، وكـانـت من العابدات اللاتى تميزن بالعلم والفهم والمعرفة، فصارت بعلمها هذا إمامًا لغيرها وموردا عذبا لكل ظامئ يريد أن ينهل من عيون العلم ما يروى به ظمأه ويشفى به غليله.

قال محمد بن الحسن بن على بن خلف: سمعت ابن ملوك وكان شيخاً كبيراً رأى ذا النون المصرى قال: وسألته مَنْ أجَلُّ مَن رأيت؟ قال: ما رأيت أجلَّ من امرأة رأيتها بمكة يقال لها فاطمة النيسابورية وكانت تتكلم فى فهم القرآن، وتعجَّبت منها، فسألت ذا النون عنها فقال لى: هى وليَّة من أولياء الله عز وجل وهى أستاذى. فسمعتها تقول: من لم يكن الله عز وجل منه على بال فإنه يتخطى فى كل ميدان ويتكلَّم بكل لسان، ومن كان الله منه على بال أخرسه إلا عن الصدق وألزمه الحياء منه والإخلاص.

هذه الكلمات تضع الميزان الصحيح أمام الدعاة والعلماء ومن يتصدرون لجهد الإصلاح، فعلى من يجتهد فى ميدان الدعوة أن يراقب نيته حتى يثبت الله لسانه ويُسدد حجته، وإلا أصبح تائهاً لا يدرى ماذا يقول ولا ماذا يريد، ولكنه حينما يصحح مراده ويتضح أمامه غرضه فالله سيتولاه بعنايته

وسيمسك لسانه عن النطق إلا بالحق والصدق، فإن إطلاق اللسان وإمساكه بيد الله تعالى، ومن كتب الله له التوفيق والقبول ساق على لسانه الحكمة وأنطقه بها وفتح له قلوب العباد حتى يجدوا عنده مالا يجدونه عند غيره، فالحكمة لها أهلها الذين يصطفيهم الله من بين عباده.

وفى المراقبة أيضاً تقول «فاطمة» – رحمها الله: مَنْ عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومَنْ عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص. وهذان هما الشقان والدرجتان اللتان يتألف منهما الإحسان، فالإحسان كما جاء به الحديث: «هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ومن يستحضر نظر الله إليه فسيلزمه ذلك بالحياء والصدق، وأما من يقوم بالعمل وكأنه يرى ربه فتلك هى قمة القرب والوصول، والخير كله درجات ومنازل، والصادق المخلص لا يزال يترقى فى منازل القرب حتى يصل إلى أعلى درجات الفضل والكرامة، فليس لهذه المنازل الطيبة نهاية إلا منزل النبوة. والصادقون ما زالوا يشمرون عن ساق الجد ويجدّون فى السير حتى يبلغوا أعلى المنازل والله بفضله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وفى الدعاء مع حضور القلب تكون الإجابة قريبة وأبواب السماء لها مفتوحة، وفى هذا تقول «فاطمة» – رحمها الله: «الصادق المقرَّب فى بحر تضطرب عليه أمواج، يدعو ربه دعاء الغريق يسأل ربه الخلاص والنجاة». وكلما خرج الدعاء من قلب حاضر وكان الدعاء دعاء مضطر فإنه أقرب للقبول، وقد جاء فى بعض الآثار أنه يأتى على هذه الأمة زمان لا يستجاب فيه الدعاء إلا من دعا بدعاء كدعاء الغريق المتغوث. وكلما صدق العبد مع ربه زادت عليه أمواج البلاء وعصفت به رياح الفتن العاتية وأصبح غرضاً للشيطان وناصبه العداوة واجتهد فى إضلاله وغوايته، وهنا لن يعصمه من ظلمات هذه الفتن إلا اللجوء لربه ورفع اليدين إليه بالدعاء طلباً للنصرة

والحفاظة، ولذلك جاء فى الحديث: «أَلِظُّوا[1] بياذا الجلال والإكرام»[2] وفى حديث آخر: «إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل ساهٍ لاهٍ»[3].

وقد كانت فاطمة فى زمرة الأولياء الأبرار الذين يقصدهم كثير من العُبَّاد والزّهاد طلباً للدعاء أو طلباً للعلم النافع، قال السُّلمى: كانت فاطمة النيسابورية من قدماء نساء خراسان أتى إليها أبويزيد البسطامى، وسألها ذو النون عن مسائل، وكانت مجاورة بمكة، وربما دخلت إلى بيت المقدس ثم رجعت إلى مكة.

وقال أبو يزيد البسطامى: مارأيت فى عمرى إلا رجلاً وامرأة[4]، والمرأة فاطمة النيسابورية ما أخبرتها عن مقام من المقامات إلا وكان الخبر لها عياناً.

أى لديها من العلم الغزير ما توضح به للسائلين مرادهم وكأن الإجابة حاضرة ماثلة أمام عينها تُخبر بها كمن يقرأ من كتاب، وهذا مما يرفع من شأن المرأة فى الإسلام فلم يكن طلب العلم وتعليمه وبذله ونشره قصراً على الرجال وحدهم، بل لقد زاحمهم فيه النساء وقد توفقن على كثير من الرجال،وشهد لهن بالفضل والعلم والفهم أئمة عصورهم من كبار الفقهاء والعلماء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإذا كان فى الرجال أصحاب همم كبار وتقوى طاهرة عالية فهناك من النساء أيضاً ما وصلن إلى أعلى درجات الفضل والخير.

قال لها ذو النون: عظينى؟ – وقد اجتمعا ببيت المقدس – قالت له: الزم الصدق وجاهد نفسك فى أفعالك.

فهذه موعظة تعظ بها مَنْ؟ إنها تعظ رجلاً قد اشتهر بين أهل زمانه

---

(١) أى الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

(٢) رواه الترمذى عن أنس والنسائى عن ربيعة بن عامر.

(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة وهو ضعيف.

(٤) أى كاملين فى صفات الخير.

بالتقوى والصدق والورع والزهد حتى ما يكاد يقاربه أحد، ولكنها نصحته بلزوم الصدق مع الله حتى يكون ظاهره كباطنه وعلانيته كسريرته، فلا يختلف ما يبديه للناس عما يخفيه فى قلبه فيما بينه وبين ربه، ثم دلَّته على مجاهدة النفس فى الأعمال حتى لا ينفلت زمامها وتجنح به إلى مهاوى الضلالة، وهكذا كان التواضع حيث لم يتكبر الصالحون عن طلب الموعظة، وهكذا تكون النصيحة حيث لا يجاملون أحداً فى التذكرة بالآخرة ومراقبة الله فى السر والعلن.

* * *

فصـــل

عائشة بنت أبى عثمان النيسابورى

الأم المربية الفقيهة بدينها العالمة بشرع ربها فإن أولادها يرضعون منها العلم والحكمة كما يرضعون اللبن، ويمتزج حب الله ورسوله بدمائهم وجلودهم، فالطفل فى مهده وأولى سنوات عمره يتأثر بأخلاق أمه ويمتص منها القيم والفضائل، ثم يشيب هذا الطفل على ما شَبَّ عليه، فإذا أُحكمت أُسُسُه قوى بناؤه واشتد عوده، وإذا طابت جذوره طابت ثماره وأصبح فى الحياة صالحاً فى نفسه مصلحاً لغيره.

وعائشة بنت أبى عثمان كان لها نصائح غالية لابنتها تعطينا بذلك القدوة الصالحة فى حسن تربية الأولاد والاعتناء بشأنهم. قال أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي: كانت عائشة بنت أبى عثمان من أزهد أولاد أبى عثمان وأورعهم وأحسنهم حالاً ووقتاً، وكانت مجابة الدعوة، سمعت ابنتها أم أحمد بنت عائشة تقول: قالت لى أمى: لا تفرحى بفانٍ، ولا تجزعى من ذاهب، وافرحى بالله عز وجل، واجزعى من سقوطك من عين الله – عز وجل.

وسمعتها تقول: قالت لى أمى: الزمى الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب فى الظاهر إلاعوقب ظاهراً ولا أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

ما أحوج الأولاد إلى فهم هذه الأمور صغاراً حتى يشيبوا عليها كباراً، فلا يكون الفرح بزينة عاجلة ولا يكون الحزن على فوات حظوظ فانية، وإنما وضعت الميزان الصحيح للحزن والفرح، فلا يكون هناك فرح بغير طاعة الله ولا يكون هناك خوف إلا من الغفلة والمعصية التى يسقط معها العبد من عين ربه، فهى لم تحذر ابنتها من الجوع أو الفقر أو المرض، ولكنها حذرتها

من الغفلة والمعصية، ولم توصها بالاعتناء بطعامها وشرابها وصحتها وإنما أوصتها بما هو أولى من ذلك وأوجب ألا وهو الحفاظة على الصحة الإيمانية فهى أهم وأعظم من الصحة البدنية. ثم لفتة منها إلى الإخلاص وحفظ الجوارح فى الظاهر، وبهذا تكتمل معانى الإيمان ظاهراً وباطناً.

ومما يؤثر عن عائشة من الحكم الغالية الواردة عنها قولها: من استوحش من وحدته فذاك لقلة أنسه بربه. وهذا ترغيب فى الخلوة الصحيحة حيث يتعود العبد المؤمن على الاستئناس بربه والتلذذ بدعائه ومناجاته، فهنا يتربى فيه حقيقة الإخلاص، حيث يخلو بربه بعيداً عن أعين الناس التى ترمقه وتحصى أعماله، وهنا سيسقط محل الخلق من قلبه ويجد للإخلاص حلاوة لا توازيها مرارة الرياء.

وقالت «عائشة» – رحمها الله: من تهاون بالعبد فهو من قلّة معرفته بالسيد فمن أحبَّ الصانع أحبَّ صنعته. وهذا الفهم فى السلوك والمعاملة يربى فى النفس التواضع لجميع الخلق، فهؤلاء الناس صنعة مَنْ؟ إنهم صنعته وخلقه وعبيده، فلا ينبغى احتقار أى إنسان مهما كان شأنه حتى لو كان عاصياً فالبغض والكره يكون لمعصيته لا لشخصه ولا لذاته، فلا ينبغى أن يخضع ميزان الاحترام للجنس أو اللون أو المنصب أو الجاه وإنما يخضع لميزان الطاعة والتقوى، فأكرمنا عند الله أتقانا له وأطوعنا لأوامره.

* * *

فصــل

أم البنين بنت عبد العزيز

هذه هي أخت عـمـر بن عـبـد العـزيز – رحـمـه الله – خـامس الخلفـاء الراشـدين الذي ملأ الأرض عـدلاً في خلافتـه والتي ما تجاوزت سنتين حتى ذاق الناس فـيـهـمـا طعـم العـدل والأمـان بعـدمـا ذاقـوا من قـبل مـرارة الظلم والخوف والطغيان.

وإذا كان عمر قد اشتهر بعدله وزهده وورعه فهذه أخته «أم البنين» قد اشتهرت بجودها وسخائها وكرمها وحبها للإنفاق في سبيل الله، وكانت تعبر عن حبها للجود والكرم وبغضها للبخل والشح بهذه الكلمات التي رواها عنها علي بن أبي جملة حيث قال: سمعت أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان تقول: أُفٍّ للبخل، لوكان قميصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته. وهذه هي مشاعر المؤمن الحقة، فالشح والإيمان لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن أبداً، لأن الإيمان كله عطاء وسخاء وجود وبذل وكرم، كما أن الحديث يبين أن الكريم قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد عن النار، وأما البخيل فإنه بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار.

وقد تعدَّى كرمها وجودها إلى من حولها من النساء وقد أعطتهن فوق المزيد ورغبتهن في الإنفاق على ذويهن والمحتاج من فقرائهن، وبهذا فهي قد علمتهن عملياً حب النفقة والرغبة في الصدقة والإعطاء، فهل هناك أبلغ أثراً في النفوس من هذا المنهج العملي الذي وجَّهت به النساء إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات؟؟!!

قال سعيد بن مسلمة بن هشام الأموي: كانت أم البنين ابنة عبد العزيز

بن مروان تبعث إلى نسائها فيجتمعن ويتحدثن عندها وهى قائمة تصلى ثم تنصرف إليهن فتقول: أحبُّ حديثكن فإذا قمت فى صلاتى لهَوْت عنكنّ ونسيتكن. قال: وكانت تكسوهن الثياب الحسنة وتعطيهن الدنانير وتقول: الكسوة لَكُنَّ والدنانير اقسِمْنَها بين فقرائكن.

وكانت تقول: جعل لكل قوم نهمة فى شىء، وجعلت نهمتى فى البذل والإعطاء، والله لَلصِّلة والمواساة أحب إلىّ من الطعام الطيّب على الجوع، ومن الشراب البارد على الظمأ، وكانت تقول: وهى يُنال الخير إلا باصطناعه؟

قد يوجد من أهل الخير والمعروف من يصل أحبابه وجيرانه ومعارفه بالعطاء والهدايا والهبات، أو يتصدق على الفقراء بالصدقات والقربات، أما أن نرى من يعطى غيره لكى يبذله بيده على فقرائه ومحتاجيه، فهذا هو الذى يثير فى نفس الأغنياء الخجل ويحثهم على الإنفاق والبذل وينزع من قلوبهم الشح والبخل ويطهر نفوسهم من الأثرة والأنانية وحب المال، فإن المال يزكو بالنفقة، والنفس تطهر بالإعطاء والكرم، ومن هذا القليل النادر كانت «أم البنين» - رحمها الله - التى سبقت إلى هذه المكرمة وكان لها فضيلة المسارعة إلى هذا الخلق الكريم والذى قَلَّما أن يوجد لمثله نظير فى دنيا الناس.

ومن شمائلها الطيبة فى شغفها بالبذل والإنفاق أن نفسها تَوَّاقة إلى كل خير حتى أنها لا تسمع بأحد قد سبقها إلى مكرمة وخصلة من خصال الخير إلا وتود أن تزاحمه فى الأجر وتشاركه فى هذا الفضل والخير، ولذلك كانت تقول: ما حسدت أحداً قط على شىء، إلا أن يكون ذا معروف فإنى كنت أحب أن أشركه فى ذلك.

وهذه الغبطة قد ذكرها النبى ﷺ فى حديثه حينما نهى عن الحسد المذموم كله وهو تمنى زوال النعمة عن الغير إلا حينما تكون الرغبة هى المنافسة فى

الطاعات وتمنى التوفيق من الله لفعلها كما قام به الغير ووفقهم الله له، فحينئذ لا يُسمى هذا حسداً، وذلك من وجهين:

الأول: أنه لا يريد زوالها من صاحبها بل يفرح بتوفيق الله له فيها.

الثاني: أنه يتمنى من الله أن يرزقه التوفيق لعملها والتشبه بمن سبقه فيها دون تمنى زوالها عن صاحبها.

فهنا يسمى هذا الحسد المحمود: غبطة، والغبطة هى تمنى حصول النعمة التى تحصل عليها الآخرون دون تمنى زوالها عنهم، وذلك أن المعطى كريم والآخذون كثير، مهما أخذ العباد من خزائن ربهم فإنها ملأى لا تنفذا أبداً.

وقد روى الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته[1] فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» والمراد بالحسد هنا هو الغبطة ومعناها كما سبق أن يتمنى مثله.

وقد كان كلام «أم البنين» مشفوعاً بالعمل، وكانت تجود بالنفقة ولا تبالى كم أنفقت، فلا سرف فى طاعة الله ولا تبذير فى النفقة فى وجوه الخير، قال أحمد بن سهل: حدثنى منصور مولى بنى أمية، قال: كانت «أم البنين» تعتق فى كل جمعة رقبة، وتحمل على فرس فى سبيل الله – عز وجل.

ولقد أوصى النبى الكريم ﷺ معاشر النساء بكثرة الصدقة لعلها تكون سبباً فى رفع النار عنهن يوم القيامة. ومما قالته فى التحريض على المراقبة وخشية الله وامتلاء القلب بجلاله وهيبته: ما تحلّى المتحلّون بشىء أحسن عليهم من عظم مهابة الله فى صدورهم.

وقد كان لها مع ذلك سهم من العلم والرواية للحديث الشريف، فقد

---

(١) هلكته: أى إنفاقه وبذله فى القربان إلى الله تعالى.

ذكر ابن عساكر: أن «أم البنين» كانت فيمن حدَّث من النساء، وروى عنها إبرهيم بن أبى عقيلة.

ما أجمل أن يكون الأغنياء كرماء وسمحاء، فالبخل آفة فى القلب تمنع الأيدى عن الإنفاق والبذل، وأما من جعل ماله خادماً له فهو ينفقه ونفسه طيبة، فحينئذ يتحرر من العبودية للثروة والمال ولا يصبح خادماً لماله بل يصبح ماله خادماً له. و «أم البنين» مَثَل ظاهر للغنى الشاكر، وقدوة لأصحاب الأموال يتعلمون منها كيف تكون السيرة الحسنة الطيبة فى هذا المال الذى استخلفهم فيه وائتمنهم عليه.

* * *

فصـل

أم هارون الخراسانية

إنهـا من ربات العـبادة والزهد والصلاح والتـقوى وقد تتلمـذ عليـهـا أبو سليمان الداراني الزاهد الكبير، وحكى عنها عبد الرحمن بن صالح الداراني وأحمد بن أبي الحواري وغيرهم، وقد سألها أبو سليمان الداراني فقال: يا أم هارون ما تقولين في الرجل يحب لقاء الله؟ قالت: ويحك ذاك رجل ثقلت عليه الطاعة وأحب الراحة منها. فقال لها: فإنه إذًا أحب البقاء في الدنيا؟ قالت: بخٍ بخٍ ذاك رجل أحب الطاعة وأحب أن يبقى لها وتبقى له ثم سلم.

إذا كان لكل مقام مقال، فهذه الإجابة من أم هارون تناسب حال السائل وتأتي بجانب خفيّ لا يلتفت إليه كثير من خواصِّ الصالحين، فمن أحب لقاء الله هرباً من الطاعة وتفلتاً من وطأة التكاليف وفراراً من المجاهدة والصبر على أمانة الدين فهذا الشوق إلى لقاء الله شوق مدخول غير صحيح وإنما هو شهـوة خفـيـة من النفس حيث ثقلت عليـهـا الطاعة وأرادت أن تخلد إلى الراحة والدعة، وأما من أحبَّ لقاء الله فرحاً بربه وحباً له ورغبـة في لقائه وليس هرباً من التكاليف والأوامر فـهـذا حب صـحـيح وتلك رغبـة صـادقـة مخلصة.

ومن أحب البقاء في الدنيا ليذكر فيها ربه ويجعلها محراباً يسبح فيه بحمد الله العظيم، فهذا الحب حب صحيح، فالرغبة هنا هي المزيد من الطاعة وتقديم تضحيات أكثر وأكبر، ولهذا المعنى أشار معاذ بن جبل -رضي الله عنه- حينما كان على فراش الموت وهو يقول لمن حوله: والله ما أحب دنياكم هذه لغرس الأشجار ولا جرى الأنهار ولكن لظمأ الهواجر والقيام بالليل بين يدى الله ومزاحمة العلماء بالركب في حلق العلم. وأيضاً

مـا يؤثر عن عـمـر بن الخطاب -رضى الله عنه- حـيث قـال: لولا ثلاث لأحببت أن ألحق بالله -عز وجل- لولا أن أسير فى سبيل الله عز وجل، أو يغبر جبينى فى السجود، أو أُقاعد قوماً ينتقون طيب الكلام كما ينتقى طيب التمر.

هذا هو الفهم الصحيح لسلف هذه الأمة رجالها ونسائها، فلا غُلُوَّ ولا تفريط وإنما هو اعتدال واستقامة على جادة الطريق. ومما يؤكد هذا الفهم ويقويه ما يؤثر عنها من صحة العاطفة واستقامة الفهم ونضج العقل ما يرويه أحمد بن أبى الحوارى حيث قال: قلت لأم هارون: أتحبين الموت؟ قالت: لا. قلت: ولِمَ؟ قالت: لو عصيت آدمياً ما أحببت لقاءه، فكيف أحبُّ لقاء الله وقد عصيته؟؟!!

وهكذا قلب المؤمن دائماً يحيط به الخوف والوجل من خشية ربه، فهو لا يطمئن إلى عمله، ويرى نفسه مهما بذل من جهد وطاعة مُقَصِّراً فى حق ربه، فلا تدعوه طاعته وجهده إلى الكِبْر والعُجْب والدلال، وإنما كلما ازداد علماً وفقهاً وجهداً وطاعة ازداد تواضعاً وخشية وانكساراً بين يدى ربه، ولذلك سألت عائشة رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون» قالت: يارسول الله أهم الذين لا يقومون بعمل صالح ويرجون رحمة الله؟ فقال لها: لا ياعائشة، ولكنهم الذين يقومون بالأعمال الصالحة ويخشون أن لا يُتَقَبَّلَ منهم».

وأما عن أشواقها بالليل فى الدعاء والمناجاة فَحَدِّث ولا حرج، وشأنها فى ذلك شأن جميع المخلصين الصادقين الذين لا يغفلون بالليل عن محبوبهم وقرة عيونهم، قال عبد العزيز بن عمير: قالت أم هارون - وكانت من الخائفين العابدين: قد أنزلت الدنيا منزلتها. أى أعطيتها من الفكر والهم الشيء الضئيل الذى يليق بقدرها وسرعة زوالها وانقضائها، فاعتبرتها دار

ممر وليست دار مستقر، ولذلك عبرتها إلى الآخرة ولم تعمرها وتتخذها دار إقامة.

وكانت تأكل الخبز وحده، وقالت: بأبي الليل ما أطيبه، إني لأغتَمُّ بالنهار حتى يجيىء الليل، فإذا جاء الليل قمت أوله، فإذا جاء السَّحَرُ دخل الرَّوْحُ قلبي. وقال قاسم: كانت أم هارون تأتي بيت المقدس من دمشق كل شهر مرة على رجليها. وكان أبو سليمان يقول عنها: ما كنت أرى أن يكون بالشام مثلها.

إن قلوب الصالحين رقيقة صافية فما إن تسمع شيئاً عن الآخرة حتى تدمع العيون وتقشعر الأبدان وتتأثر الأفئدة، وهكذا كانت أم هارون حينما تسمع القرآن أو ذكر الجنة أو ذكر النار، فما إن تسمع شيئاً يحرك الأشواق أو، يثير الخشية والخوف إلا وتخر مغشياً عليها أو تدمع عينها وكأنها ترى هذا الغيب رأى العين.

ومما يرويه إبراهيم بن محمد المخزومي قال: بكت امرأة من بني مخزوم يقال لها «عاتكة» حتى ذهب بصرها، فعوتبت في ذلك وقيل لها: ما بعد ذهاب البصر شيء؟ فقالت: ما ينبغي للمُخَوَّفِ بالنار أن تجف له دمعة حتى يَعْرِفَ موقع الأمان من ذلك، فلم تزل على ذلك البكاء حتى ماتت عليه - رحمها الله.

وهذه امرأة أخرى تُدعى «منيرة السدوسية» يحدث عنها أبو سلمة وهو رجل من بني سدوس يقول: كانت لنا عجوز في الحيّ لم ندركها نحن، أدركها أشياخنا يقال لها: منيرة، فكانت تقول إذا جاء الليل: قد جاء الهول، قد جاءت الظلمة، قدجاء الخوف ما أشبه هذا بيوم القيامة، ثم تقوم فلا تزال تُصلى حتى تُصبح.

إن التشبه بالكرام فلاح، ومن لم يستطع بلوغ هذه الدرجات العالية فلا

عيب عليه أن يتشبه بسلوكهم ويقتفى آثارهم فى حياتهم، فقد كانوا بشراً مثلنا ولم يكونوا ملائكة معصومين، ولكنهم اجتهدوا على نفوسهم حتى طهرت وخرج منها الخبث وأصبحت صافية من كل كدر. والباب مفتوح أمام كل راغب مشتاق، حتى يصل إلى ما وصلوا إليه من كرامة الله، ويتحصل على ما تحصلوا عليه من ثمار الطاعة والمجاهدة ولكل مجتهد نصيب.

والجنة محفوفة بالمكاره وما لا تهواه النفس ولذلك وجبت المجاهدة ومخالفة الهوى حتى يصل العبد إلى دار الكرامة، وأما النار فهى محفوفة بالشهوات وما تهواه النفس ولذلك وجب الحذر من مهاوى الضلالة، فالنفس كالدابة تحتاج إلى حسن قيادها حتى لا تُهلك صاحبها أو تعوقه عن المسير فلا يصل إلى مقصوده ويضيع منه مراده وما يصبو إليه..

* * *

فصل

عائشة بنت عمران بن سليمان المنوبى

هذه من فواضل نساء عصرها وقد وُلدت بإحدى قرى مدينة تونس، فنشأت فى حجر أبيها فاعتنى بتربيتها فعلمها القرآن الكريم فأتقنت حفظه، ثم عكفت على الزهد والصلاح وكانت تغزل الصوف تقتات من مورده.

إن عناية الآباء بالأبناء لها أعمق الأثر فى صياغة فكرهم وصيانة قلوبهم واستقامة سلوكهم ونضج عقولهم، فالتربية الصالحة لها بصمة واضحة المعالم فى نشأة الوليد الصغير، وهذه المرأة «عائشة بنت عمران» وهبها الله أباً صالحاً اعتنى بها فعلّمها القرآن منذ الصغر حتى استنار بنوره قلبها وفؤادها.

وقد شغفت حباً بالقرآن العظيم فكانت تلهج بذكره وترتيله آناء الليل وأطراف النهار، حتى ذكر المؤرخون من مناقبها أنها ختمت القرآن فى حياتها ألفاً وخمسمائة وعشرين مرة. وهكذا الطائع لا وقت لديه للفراغ، ولا يسمح ليوم من أيام عمره أن يمر دون جهد وعمل صالح يُزين به صحيفته ويثقل به موازينه.

وكانت بارة بالفقراء والمساكين ولديها شغف كبير بالنفقة وسد حاجات المحتاجين وكشف كرب المكروبين، وكانت لا تدخر من كسبها شيئاً، فقد كانت تغزل الصوف وتقتات مما يخرج منه ولا تكنز ما يفيض عن حاجتها بل تنفقه احتساباً للأجر والثواب وحباً للصدقة والإنفاق فى وجوه الخير، وروى عنها أنها كانت تقول إذا بات بجيبها درهم ولم تتصدق به:

الليلة عبادتى ناقصة.

ومن كلماتها المأثورة عنها: لا خير فى ذكر اللسان ما لم يكن القلب حاضراً.

وهذا أصل عظيم تُبنى عليه ثمار الذكر كلها، فإذا تحرك اللسان بالذكر دون مواطأة القلب له فهو كالجسد الذى لا روح فيه، والمُراد كله هو القلب وليس القالب، ولا يزال الذاكر فى مجاهدة وتمرين ورياضة حتى يعتاد موافقة قلبه لما يتحرك به لسانه، حتى يتأثر بجلال الله ويخشع لذكره ويطمئن به ويسكن إليه فلا يجد له قراراً مع غير ربه.

وحينما حضرتها الوفاة قالت: «إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» وتوفيت عن عمر يناهز السادسة والسبعين وحضر جنازتها أكثر علماء تونس فى زمانها.

والمشهور عن معظم النساء الصالحات هو تنافسهن فى وجوه الخير وأبواب القربات من الأعمال الصالحة، ومما اشتد فيه ميدان المنافسة هو الجهد لختم القرآن، فبعضهن كان يختم القرآن كل يوم وأخرى كل ثلاثة أيام أو سبعة أيام، ومن واظب على الختمة كل أسبوع فإنه يختمه فى العام ما يقارب خمسين مرة، أى كل عشر سنوات خمسمائة ختمة، وهذا باب مفتوح لمن أراد أن يدخل فيه حتى يتنافس مع المجتهدين المشمرين الذى لا يشغلهم عن ربهم شاغل فى الليل ولا فى النهار، وحسب هؤلاء أن القرآن جليسهم فى الدنيا ويكون شفيعهم بين يدى الله يوم القيامة.

* * *

فصــل

ميمونة أخت إبراهيم الخواص

لقد تأثر كثير من النساء بمحارمهن من الرجال سواء أكانوا أزواجاً أو آباءً أو إخوة لهن، فالقدوة الصالحة داخل البيت لها جاذبية قوية تدعو من يراها إلى المحاكاة والتشبه، وهكذا كانت «ميمونة» – رحمها الله – عابدة زاهدة وقد سلكت مسلك أخيها إبراهيم في الورع والتوكل والزهد والتقلل من زخارف الدنيا، وقد كان إبراهيم إماماً لأهل زمانه يضربون به المثل في الورع والصلاح والتقوى، وتلك كلها ذرية صالحة بعضها من بعض.

دخل إبراهيم الخواص يوماً على أخته ميمونة فقال لها: إني اليوم ضَيِّق الصدر. فقالت: مَنْ ضاق قلبه ضاقت عليه الدنيا بما فيها، ألا ترى الله يقول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٨]، لقد كانت لهم الأرض متسعاً ولكن لما ضاقت عليهم أنفسهم ضاقت عليهم – بما فيها – الأرض.

هذا هو الحق في بيان معنى الضيق والسعة، فليس المحبوس من حُبس في السجن إنما المحبوس من حبسه هواه داخل شهواته حتى أصبح صريع الشهوة والهوى، وحينما سُجن ابن تيمية – رحمه الله – قال لمن سجنوه: «إن سجني خلوة، وخروجي من بلدي سياحة، وقتلي شهادة» فالمحبوس من حبسه هواه، والمسجون من سجن نفسه في قفص الهوى.

فالضيق والسعة إنما يبدآن من النفس وينشآن داخلها، فالذي ضاقت عليه نفسه بالمعاصي والذنوب وأحاطت به الخطايا من كل جانب فهو يختنق ولو كان في فضاء فسيح، والذي انشرحت نفسه وطاب قلبه بمعرفة ربه وحبه

والشوق إليه فهو فى سعة ورحمة لا نهاية لها حتى لو كان فى سجن ضيق مظلم أو فى بطن حوت بين ظلمات ثلاث.

وجاء رجل ذات يوم يدق باب إبراهيم فقالت له أخته ميمونة: من تطلب؟ فقال: إبراهيم الخواص، فقالت: قد خرج. فقال: متى يرجع؟ فقالت له: من روحه بيدغيره من يعلم متى يرجع!! لعل هذه الإجابة قد فاجأت الرجل وسرت فيه كسريان الكهرباء فى الأسلاك فانتفض وانتبه وأخذته الدهشة، وهكذا كان فكر الزهاد والعباد من الأولياء الأبرار، حتى فى كلامهم وردودهم. وسيرتهم متعلقة بالغيب والآخرة حتى حوّلوا قلوب الناس وأفكارهم من الدنيا إلى الآخرة، فما هى إلا كلمة واحدة ولكنها أيقظت فى القلب الانتباه والحذر، فالأرواح والأنفاس حقاً ليست بأيدينا ولا نملك منها شيئاً وإنما هى ملك لله وحده إذا شاء قبضها إليه فلا معقب لأمره ولا رادَّ لقضائه وحكمه.

إن الحكمة التى نطق بها السلف الصالح لم تأت من فراغ وإنما هى ثمار لجذور طيبة راسخة فى القلوب، فهناك الورع عن الحرام والتهجد بالليل والناس نيام، والاستغفار بالأسحار، والصيام فى الهواجر، والصبر عن شهوات النفس الحرام، والانصراف عن اللهو واللغو إلى حياة الجد والعمل والمجاهدة والصلاح.

ومن هؤلاء اللاتى زخرت بهن البصرة من أمثال ميمونة من العابدات الصالحات «أم حبّان السلمية» والتى كانت من أصبر وأقوى النساء على طول القيام حتى أنها كانت تقوم كأنها نخلة قائمة تعصفها الرياح يميناً وشمالاً، وكانت تقرأ القرآن فى كل يوم وليلة، وكانت لا تتكلم إلا بعد العصر وبالحاجة والشيء الذى تريده.

وهذا النموذج المكرور هو الصورة المُثْلى لهؤلاء العابدات الزاهدات الصالحات اللاتى زَخَر بهن التاريخ حتى صرن مفخرة عظيمة لجميع

المسلمين على مدار القرون والأزمان.

وهذه امرأة أخرى يقول عنها أبو جعفر السائح: بلغنا عن امرأة متعبدة كانت تصلى الضحى مائة ركعة كل يوم، وكانت تقرأ ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ [سورة الإخلاص] النهار عشرة آلاف مرة، وكانت تصلى بالليل لا تستريح، وكانت تقول لزوجها: قُم ويحك إلى متى تنام؟ قم يا غافل إلى متى أنت فى غفلتك؟ أقسمت عليك أن لا تكسب معيشتك إلا من حلال، أقسمت عليك أن لا تدخل النار من أجلى، برَّ أمَّك، صل رحمك، لا تقطعهم فيقطع الله بك.

وقال الحسن بن جعفر أنه سمع أباه يقول: مررت بدارٍ فإذا أنا بعجوز مكفوفة تبكى وتقول: يا حليم تقرَّب الناس إليك بالأعمال يدعونك بها، فكيف أدعوك بالذنوب ولا عمل أرضاه؟ يا رب هب من حِلمك ما تكفينى به وتنجينى من عذابك. قال: فوقفت عليها فوعظتها وقلت: هل لك ولد؟ قالت: لا. قلت: مَنْ معك فى دارك؟ قالت: سبحان الله معى مَنْ أناجيه، فهل علىَّ وحشة معه وهو أنيسى؟ قال: فأبكتنى، فقلت لها: ما معاشك؟ قالت: دع عنك ما لا تحتاج إليه، بلغت السن فما أحوجنى إليك ولا إلى غيرك، أما تقرأ القرآن: ﴿ **وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠]، فقلت: إيذنى لى فى زيارتك. فقالت: أعزم عليك إن فعلت أو ذكرت لى اسماً، ثم أجافت الباب(١).

لقد رفضت زيارتها ولم ترغب فى معرفته باسمها وهى فى التاريخ كذلك عابدة مجهولة الاسم، ولكنها إذا كانت مجهولة لأهل الأرض فهل هى مجهولة لأهل السماء؟ وإذا كانت لا يعرفها الناس فهل لا يعرفها الله؟ وإذا عرفها ربها وأجزل لها العطاء أليس فى هذه المعرفة ما فيه كفاية واستغناء بمعرفة الله عمَّن سواه؟؟ وماذا يعطيها الناس لو عرفوها وماذا يملكون لها إذا

---

(١) اى ردته واغلقته.

أحبوها وذكروا لها فضلها؟؟ هكذا كان الدعاء وكان الإخلاص والتجرد والرغبة فيما عند الله.

وإبراهيم الخواص أخو ميمونة كان يقول: على قدر إعزاز المرء لأمر الله يُلبسه الله من عزِّه، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين. وهكذا سمعت ميمونة من أخيها ما ألبسها رداء الكرامة والعزة حتى دخلت ميدان الشرف والرفعة والدرجات العلى..

* * *

فصــل

فاطمة بنت أحمد بن يحيى

اشتهر كثير من المحدثات فى التاريخ بسعَة علمهن وفقههن حتى أجاز لهن بعض المشايخ التحديث والرواية بل وكان بعضهن يُجيز بعض العلماء ممن تتلمذوا على أيديهن بالرواية عنهن، وقد كانت « فاطمة بنت أحمد » عالمة فاضلة فقيهة متفقهة بدينها وكانت تستنبط الأحكام الشرعية من النصوص وتتباحث مع والدها فى مسائل فقهية كمسئلة الخضاب بالعصفر حتى شهد لها والدها – مع علمه وفضله – فقال: إن فاطمة ترجع إلى نفسها فى استنباط الأحكام.

والعلم تاج على رءوس العابدين والصالحين، وما سبق مَن سَبق إلا بزيادة علمه وفهمه عن ربه، فالله يرفع الذين أوتوا العلم درجات، ولا يستوى جاهل مع عالم أبداً، ولذلك كانت النسوة من السلف الصالح حريصات على طلب العلم والشغف به حتى صار لبعضهن شهرة واسعة فى ا لتحديث والرواية، ووفد عليهن العلماء من كل فج عميق ليسمعوا منهن الحديث ويأخذوا عنهن العلم النافع الصحيح.

وقد ذكر « فاطمة » وترجم لها الإمام الشوكانى فى كتابه « البدر الطالع » وذكر من شأنها ما يدل على شرفها وفضلها ومكانتها العلمية العالية فقال:

وكان زوجها الإمام المطهر يرجع إليها فيما يشكل عليه من مسائل وكان يدخل عليها فيستفتيها إذا أشكل عليه بحث فى خلال تقريره الدرس لتلاميذه فترشده إلى الصواب ثم يخرج إليهم فيشرح لهم ما أشكل عليهم، فيقولون: ليس هذا منك بل من خلف الحجاب!!

وقد توفيت « فاطمة بنت أحمد » سنة ثمانمائة وأربعين للهجرة.

وممن كان على شاكلتها فى العلم والفقه امرأة تُدعى « فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندى » وكانت هى الأخرى عالمة فاضلة محدثة ذات خط جميل أخذت العلم عن جملة من الفقهاء وأخذ عنها كثيرون وتصدرت للتدريس وألفت مؤلفات عديدة فى الفقه والحديث، وقد عاصرت الملك العادل نور الدين الشهيد المتوفى سنة خمسمائة وتسع وستين للهجرة، واستشارها فى بعض أموره الداخلية وسألها فى بعض المسائل الفقهية وأنعم عليها. وقال ابن العديم: حكى والدى أنها كانت تنقل المذهب نقلاً جيداً وكان زوجها الكاسانى ربما يهم فى الفتيا فترده إلى الصواب وتعرفه وجه الخطأ فيرجع إلى قولها وقال: وكانت تفتى وكان زوجها يحترمها ويكرمها.

ومنهن « فاطمة بنت حسين الآمدى » وهى محدثة راوية، فقد روت الجامع الصحيح للبخارى عن ابن الزبيدى، وروت عن الفخر الإربلى وغيره، وسمع منها الذهبى.

وكتب التراجم والسير زاخرة بمئات من المحدثات اللاتى أخذن العلم عن كبار العلماء كما أخذ عنهن كذلك كبار العلماء، فهذا الميدان لم يكن مقصوراً على الرجال وحدهم كما يظن الكثيرون بل لقد زاحمهم فيه النساء وبلغوا شأناً عظيماً، ولا عجب فى هذا فالعلم حياة القلوب وغذاء الأرواح ونور البصائر وزاد السائر إلى ربه وهو أعظم الطاعات التى يتقرب بها الأبرار إلى ربهم.

* * *

فصــــل

أخت فضيل بن عبد الوهاب

من أيقن بقرب الآخرة ومجيء الحساب وشدة الموقف هناك بين يدى الله فإنه سيغلب عليه الهم والحزن خوفاً من الزلل والبوار والهلاك، فالميزان سيزن الأعمال بالذرة والقطمير، والناقد بصير يعلم السر والعلن، وما خاف الصالحون إلا من أن تُردَّ عليهم أعمالهم أو لا تنال القبول والرضا من الله، فالله يريد أعمالاً خالصة وقلوباً مخلصة، وصدق من قال: الناس كلهم هلكى إلا العالمين، والعالمون هلكى إلا العاملين، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. فكيف بعدهذا كله لا يخاف المؤمن ويحذر الآخرة ويخشى شدة الحساب.

وكانت أخت الفضيل بن عبد الوهاب يغلب عليها هذا الحزن ويحيط الخوف بقلبها حتى قال أخوها فضيل: ما رأيت أحداً قط، رجلاً أو امرأة، أطول حزناً منها.

لقد كانت هذه الصالحة من عابدات الكوفة اللاتى دخلن ميدان المنافسة مع الأولياء والأتقياء وقد سبقت هى الأخرى إلى درجة طيبة من حسن الأحوال وجميل الصفات.

قال فضيل بن عبد الوهاب: سمعت أختى تقول: الآخرة أقرب من الدنيا، وذلك أن الرجل يهمُّ بطلب الدنيا فلعله أن ينشئ لذلك سفراً يكون فيه تعب بدنه وإنفاق ماله، ثم لعله أن لا ينال بغيته. والرجل يطلب الآخرة فمنتهى طلبته في حسن نيته حيث ما كان من غير أن ينشئ سفراً أو ينفق مالاً أو يتعب بدناً، ما هو إلا أن يُجمع على طاعة الله فإذا هو قد أدرك ما عند الله.

رحمها الله، فقد شرحت أصلاً من أصول معاملة العبد مع ربه وهو أن نية المرء خير من عمله، فربما يموت العبد دون أن يدرك هذا العمل فيعطيه الله أجره كاملاً وإن لم يتلبس بالفعل ذاته، وما أطيب هذا الجزاء وأزكاه، وأما عطاءات الدنيا فإنها لا تخضع لقانون النية بل لا بد من السعى والأخذ بالسبب وهذه سنة الله فى الحياة حيث إن من تحرك تحصَّل ومن كسل وأخلد إلى الخمود والراحة والدعة فإنه يقعد محروماً مع المحرومين.

ومن هنا نضع أيدينا على هذين الأمرين:

١ - عطاءات الإيمان وثمار الهداية الغيبية والمادية إنما هى وعد الله.

٢ - عطاءات الدنيا المادية الظاهرية المحسوسة التى تدركها الحواس وتلمسها الجوارح إنما هى تجربة الإنسان.

فربما يتعب الإنسان فى الدنيا فى أسبابه المادية دون أن يتحصل على نتيجة أو ثمرة، ولكن الأمر على العكس تماماً فى شأن الأعمال الصالحة، فمن قام بأى طاعة ولو قليلة صغيرة فإنه سيؤجر عليها حتماً لأن هذا وعد الله الذى لا يتخلف أبداً، ولذلك كثرة السعى فى الأسباب الدنيوية لا يقتضى كثرة الأرزاق كما أن قلة السعى أيضاً ليست سبباً فى نقصان الأرزاق، وذلك حتى يمشى الإنسان فى دنياه مطمئناً بلا لهفة ولا صراع ولا عراك، فهو يأخذ بما أمره به ربه من أسباب الأرزاق وبعد ذلك فلا يتحصل إلا على ما قسمه الله له دون زيادة أو نقصان.

وقال فضيل: سمعتها تقول: مابيننا وبين أن نرى السرور أو ننادى بالويل والثبور إلا خروج هذه الأرواح من الأبدان، فانظروا أىَّ عبيد تكونون حينئذ؟ قال: ثم صرخت وغشى عليها.

إن حقيقة العذاب وحقيقة النعيم لا يدركها العبد إلا بعد موته، فما نراه فى الدنيا من عذاب وألم وشدة إنما هو قطرات تاتى من خلف سد عظيم،

وما نراه من النعيم واللذة والمتعة إنما هو قطرات تأتى من خلف سد عظيم، فإذا جاء الموت انهار هذا السد وأفضى المرء إلى حقيقة العذاب أو حقيقة النعيم، ولذلك فالناس فى الحياة نيام وإذاماتوا انتبهوا وأدركوا أنهم كانوا يعيشون فى وهم وخداع وغرور وأن الحقيقة كلها بحذافيرها تكمن بعد الموت وليس قبله.

ومما يُذكر من عابدات الكوفة على هذه الشاكلة أيضاً ما ذكر سفيان يوماً عن امرأة من أهل الكوفة كانت منقطعة للعبادة والخلوة فقيل له: أى شئ تحفظ من كلامها؟ قال: قالوا: إنها كانت تقول: لو نادى منادٍ من السماء لِيَمُتْ أعظم الناس جُرماً لرأيت أن نفسى أول نفس ذائقة للموت. وكانت تقول: طول الأمل بطأ بى عن سبيل النجاة.

وإذا كان هذا الحزن يملأ القلوب فكان أصحابه يجتهدون فى إخفائه عن عيون الناس خشية الرياء والسمعة، فالمؤمن حزنه فى قلبه وَبِشْرُه فى وجهه، ولا يحب لأحد أن يطلع على حاله مع ربه، فالصدق القبيح هو ثناء المرء على نفسه، والصادق الحق هو الذى لا يتقيأ النور من قلبه على لسانه وإنما يستر حاله مع ربه حتى لا يسقط فى هاوية العجب السحيقة وهى حفرة قَلَّ من ينجو من وقع فيها.

ومن صور هذا الستر الجميل والتحلى بالصبر العجيب، ما يرويه أبو عثمان وهو ثقة من أهل العلم قال: نظر رجل إلى امرأة فقال: ما رأيت مثل هذا الحسن وهذه النضارة، وما ذاك إلا من قلة الحزن، فقالت: يا عبد الله، والله إنى ليذبحنى الحزن ما يشركنى فيه أحد. قال: وكيف؟ قالت: ذبح زوجى شاة مضحياً(١)، ولى صبيَّان يلعبان، فقال أكبرهما للأصغر: أريك كيف صنع أبى بالشاة؟ فعلَّقه فذبحه فما شعرنا به إلا مُتَشَحِّطًا(٢)، فلما

---

(١) أى ذبيحة الأضحية فى يوم عيد الأضحى.

(٢) أى مضرجاً بدمه.

استَعْلَت الضجة هرب الغلام ناحية الجبل فرهقه[1] ذئب فأكله، ونحن لا نعلم، واتبعه أبوه يطلبه فمات عطشاً، فأفردنى الدهر!! قال: فكيف صبرك؟ قالت: لو رأيتُ فى الجزع مُدركاً ما اخترت عليه.

فهذا البلاء العجيب الشديد لم يخرج المرأة عن صبرها ورضائها بالقضاء والقدر، رغم أنها فَقَدت زوجها وولديها ولكن هذا ما دعاها إلى الكفر واليأس والقنوط من رحمة الله، وذلك أن هَمَّ الآخرة وانشغال القلب بها تَصْغُر أمامه هموم الدنيا الصغيرة، فكلنا إلى القبور محمولون، وبمن سبقونا من الأموات لاحقون، وما هى إلا أيام خالية ثم يبعث الله بعد ذلك مَنْ فى القبور..

* * *

---

(١) أى تبعه ولحقه.

فصل

أم عاصم بنت عاصم

قوة البصيرة فى القلب ودقة الفراسة والذكاء فى الفكر والرأى من ثمار التقوى والصلاح والورع، وهكذا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقد كانت صرامته فى الحق وزهده فى متاع الدنيا وحرصه على العدل بين الرعية وشغفه بإقامة القسط بين الناس وشيوع الأمن والاستقرار بينهم كل ذلك جعل فراسة عمر لا تخطئ ورأيه فى الأمور لا يخيب أبداً.

وإذا كانت الفروع الطيبة تنحدر من أصول صالحة، فهكذا كانت نظرة عمر للأنساب واختيار الأرحام التى توضع فيها النُّطَف، فالذى يريد تنشئة أولاده على أصول التقى ومكارم الأخلاق وحميد الصفات فإنه حتماً سيتخيَّر لهم أماً صالحةً من بيت مؤمن طاهر، فإن الأم هى المدرسة الأولى فى حياة الأطفال التى يتعلمون منها مبادئ الحياة ونظراتهم إلى الأمور.

*** إذا نام الناس فالله لا ينام:**

فى هدأة الليل بالمدينة المنورة يأوى الناس إلى دورهم ومضاجعهم أو إلى مصلاهم حيث يبادرون بقيام الليل وقراءة القرآن، وفى إحدى هذه الليالى الشاتية الباردة التى يلتمس الناس فيها الدفء من هذا البرد الزاحف إذا رجل هناك أفزعته الأمانة وأهمته المسئولية وأسهرته التبعة على هذه الرعية، فنفض غطاءه وخرج يتجول ليلاً فى طرقات المدينة التى خلت من الناس ولم يبق فيها إلا الظلام الدامس ولفحات البرد يلتمس محتاجاً يعطيه أو مكروباً يكشف عنه كربته أو مستغيثاً يغيثه أو ملهوفاً يقضى له حاجته، أو ابن سبيل لا يجد له مأوى، أو مريضاً أسهره الألم ليخفف عنه أو جائعاً لا يجد ما يسدّ به الرمق فيطعمه حتى يشبع، فهذا الرجل هو عمر - رضى الله

عنه – الذى قال عنه عليّ كرم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى القوى الأمين فلينظر إلى عمر بن الخطاب.

وذات ليلة بعد عناء التطواف فى الطرقات وقد أوشك الظلام أن يرحل وأوشكت خيوط الفجر أن تظهر، استند إلى جدار لدار صغيرة يستريح بعض الشيء فقد كان يطوف على قدميه طوال الليل قائماً بهذه الأمانة والمسئولية خير قيام. وفى تلك اللحظة يسمع حواراً بين امرأتين داخل هذه الدار الصغيرة، وإذا هو حوار بين أم وابنتها وقد جذب الحديث آذان عمر وأخذ الحديث بعواطف قلبه حينما يرى هذه البنت ترفض طلب أمها بخلط اللبن بالماء حيث قد نهى عمر عن ذلك، فما ذلك الحوار؟؟

كانت الأم تقول: يا بنية قومى فامزجى اللبن بالماء.

فقالت البنت: إن أمير المؤمنين عمر منع عن مزج اللبن بالماء، ألم تسمعى يا أمى مناديه بالأمس ينهى عن ذلك؟

فقالت لها الأم: يا بنية إن عمر الآن نائم لا يرانا.

فردَّت ابنتها على الفور: يا أمى إذا كان عمر نائماً لا يرانا فإن رب عمر لا ينام وهو يرانا، والله ما كنت لأفعله وقد نهى عنه.

وهكذا تَمَّ الحوار بين طلب الأم ورفض البنت، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولكن هذه الصفات العمرية التى بدت ملامحها على تلك البنت ما كانت لتمر هكذا على – عمر رضى الله عنه – دون أن ينال منها نصيب، فهذه جوهرة غالية لا ينبغى التفريط فيها أو المرور عليها مرور الكرام ولا يصح تجاوزها دون أن تكون هناك وقفة أمام هذا الإيمان الراسخ ومراقبة النفس سراً وعلانية، فقد كانت تلك اللحظة فيها من الصدق والإخلاص ما أخذ بقلب عمر فلم يطق صبراً حتى يسارع إلى إيصال نسبه الطاهر بهذا النسب الطيب النقى.

فأسرع عمر إلى المسجد النبوى وصلى بأصحابه صلاة الفجر ثم حينما عاد لبيته دعا ولده عاصماً وكان مزمعاً على الزواج وأرشده إلى بيت الفتاة وحدَّثه بما سمع وقال لابنه قولته المشهورة:

«اذهب يا بنى فتزوَّجها، فما أراها إلا مباركة، ولعلَّها تلد رجلاً يسود العرب».

وهل تخطئ لعمر فراسة؟ وهل يجانبه الصواب وهو ناصر الحق؟ كلا، فقد صدقت فراسة عمر وتحققت بشارته، وتزوج عاصم تلك الفتاة الصغيرة الورعة، واسمها أم عمارة بنت سفيان بن عبد الله بن ربيعة الثقفى فأنجبت له ابنة أسموها ليلى وكنوها(١) «أم عاصم» وهى أم عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - خامس الخلفاء الراشدين الذى ملأ الأرض كلها عدلاً فى خلافته التى ما تجاوزت السنتين.

إن سلوك عمر هذا هو المنهج الصحيح لجميع الآباء والأمهات الذين يبغون لأبنائهم حياة طيبة طاهرة تقية، فلا نظر لمال ولا جاه ولا سلطان ولا عبرة بثروة ولا عشيرة، إنما الخلق الطيب هو خير نسب يبحث عنه من يريد الفضيلة ويعشق الحياة النظيفة الصالحة.

فمن أراد أن يتخيَّر لابنته أو لولده فليتخيَّر له اختياراً كاختيار عمر حتى يكون أميناً مع أولاده تاركاً لهم خير ميراث وأفضل هبة وعطاء.

وقد نشأت «أم عاصم» فى أحضان أبوين صالحين تقيين، فأبوها هو عاصم ابن عمر وقد وُلد فى حياة الرسول الكريم ﷺ وكان خيِّراً فاضلاً، وأمها أم عمارة الثقفية أكمل أهل دهرها أخلاقاً وأكرمهن خلالاً وصفات، وهى التى اختارها عمر زوجة لابنه عاصم لأنه رأى بعيون قلبه ما سيأتى من صلبها من ذرية صالحة تكون سيرتها فى الحياة سيرة عمرية تملأ الأرض قسطاً وعدلاً ورحمة وأماناً وسلاماً. وقد اقتبست «أم عاصم» هذه الخصال الكريمة

(١) أى صارت كنيتها «أم عاصم».

من جدِّها - عمر رضى الله عنه - ومن أبويها الكريمين الصالحَيْن فكانت من صفوة خيار نساء التابعيات وممن يؤخذ عنهن العلم ويؤثر عنهن الصدق والزهد والتقوى والورع.

* تخيروا لنطفكم:

شاءت إرادة الله تعالى أن تنتقل جذور عمر بن عبد العزيز من الأصلاب والأرحام الطاهرة التقية الصالحة إلى مثيلاتها حتى خرج إلى الحياة طيب الأعراق طاهره الجذور فأثمر فى حياة الناس أطيب الثمار التى تتحدث بها الدنيا بأسرها إلى يومنا هذا.

والسُّنة التى علَّمها النبى ﷺ لأمته حسن الاختيار عند القدوم على الزواج، فعلى الشباب المقبل على الزواج ألا ينخدع بخضراء الدمن(١) ولا يغترَّ بهذه الجيف الطافحة فى الطرقات ولا ينظر إلى الزينة الظاهرية والالتماع الكاذب الذى تتوارى خلفه بعض النساء ممن لا أخلاق لهن ولا دين، وإنما يكون بحثه وعينه على المعدن والسيرة والخلق، فهذه هى الضمانات الحقيقة لطيب العشرة واستمرار الحياة هادئة آمنة مطمئنة.

ولذلك قال النبى ﷺ: «تخيروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفاء»(٢).

وهذا المنطق السليم الذى يوجِّه النبى ﷺ أمته إليه إنما يلفت الأنظار للراغبين فى الزواج كى يختاروا زوجاتهم من بيئة صالحة قد انحدرن من أصول عريقة ليكتسب أولادهم العادات الأصيلة والأخلاق الطيبة فالولد ينزع إلى أصل أمه وطباعها.

ومن هنا كان عبد العزيز بن مروان - والد عمر بن عبد العزيز - ينظر نظرة فاحصة فيمن حوله من النسوة ليتخير زوجة صالحة من بينهن تكون

---

(١) خضراء الدمن: هى المرأة الحسناء فى المنبت السوء.

(٢) رواه ابن ماجه فى النكاح باب الأكفاء. «تخيروا لنطفكم»: أى لا تضعوا نطفكم إلا فى أصل طاهر.

ذات صلاح وتقوى ودين، وقد كان أميراً من أمراء بنى مروان وكان ولى العهد بعد أخيه عبد الملك بن مروان، وعندما أراد أن يتزوج طلب إلى خازن ماله أن يتخير من أطيب ماله وصالحه ليكون مهراً لزوجته فقال له:

اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح. ولم يشترط عبد العزيز ما يشترطه الأمراء والكبراء من الأغنياء من الجمال أو المنزلة ولكنه طلب العرق الطيب فى المنبت الطاهر، فاختار ليلى «أم عاصم» بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فهكذا هداه عقله وفكره إلى مصاهرة آل عمر لما فيهم من العلم والورع والزهد، وهو بذلك يرجو لأولاده حياة كحياة آل الخطاب، فالولد ينزع نحو أخواله.

وقد كانت «أم عاصم» فيما يُروى عنها عابدة صالحة محسنة كريمة، طاهرة القلب نقية النفس سخية اليد، ورثت ميراث التقوى والصلاح عن أمها وأبيها.

وحينما أراد عبد العزيز الزواج فإنه تخير كذلك أطيب ماله حتى يضعه مهراً لزوجته، وهكذا ترسخ قواعد الفضيلة والأخلاق والمكارم فى أعماق الفطرة والقلوب، فلا يصح إلا الصحيح، ومهما كان الإنسان فى جاهه وماله وسلطانه، فعندما يريد حياة الاستقرار وبناء الأسرة فإنه حينئذ لن يبحث عن جمال الجسد أولاً ولكنه سيبحث عن جمال الخُلُق وجمال السيرة وجمال السلوك، والحديث يقول: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» ومعنى تربت يداك: أى التصقت يداك بالتراب وهو دعاء عليه بالفقر إن لم يأخذ ذات الدين، وقال بعض العلماء: بل هى كلمة مدح وثناء أى أنك ظفرت بالبركة إن أخذت ذات الدين.

* الغرس الطيب ثماره طيبة:

أعظم منحة تعطيها الأم لولدها هى حسن الأدب والتربية، فالأم المؤمنة

العاقلة لا تجعل هَمَّها كله مُنْصَّباً على صحة الولد والرعاية لمطعمه ومشربه وملبسه وقوة بدنه وإنما قبل هذا كله أن يكون تقياً صالحاً يحب ربه ويتبع سنة نبيه ﷺ ويستقيم على دينه، فلا ينبغي أن يشغلها أمر عن أمر ولا يطغى هَمّ على هَمّ، فالإنسان جسد وروح ولكل منهما غذاء ولا ينبغي الجور على أحدهما لحساب الآخر وإلا اختلّ الميزان وفسدت الأمور واضطربت حياة الإنسان وأصبح تائهاً ضائعاً.

وقد وُلد عمر بن عبد العزيز بالمدينة المنورة، وحينما اشتد عوده حرصت أمه «أم عاصم» على أن تؤسسه على التقوى من أول يوم يميّز فيه بين الخير والشر، وقد أوصت به خيراً وزرعت في نفسه الحكمة والبصيرة التي صاحبته إلى أن لقى ربه زاهداً صالحاً تقياً، وفي المدينة كانت ينابيع العلم غزيرة فيَّاضة يرتوى منها الظامئون ويغترف من خيراتها الطالبون.

وقد حببت إليه العلم ورغبته في طلبه والسعي في تحصيله ومزاحمة العلماء بالركب في حلقات العلم التي كانت تزخر بها مساجد المدينة، وقد نشأ عمر في بيئة مليئة بالعلماء والفقهاء والعبَّاد والصالحين، وقد اعتنت به أمه حتى حفظ القرآن الكريم كله في زمن قصير وهو مازال طفلاً صغيراً لم يبلغ مبلغ الرجال الكبار، وهذه أمانة في عنق الأم والأب على السواء ألا وهي الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم لأولادهم وهم صغار فقد جاء في الحديث: (من حفظ القرآن أُلبس والداه تاجاً من نور يوم القيامة)[1]، وفي حديث آخر: «ما نَحَلَ[2] والد ولده نِحْلَةً أفضل من أدب حسن»[3].

والقرآن له أثر كبير في حياة المؤمن، فهو نور الصدور وغذاء القلوب

---

(١) رواه أبو داود والحاكم كلاهما عن سهل بن معاذ.

(٢) أى أعطى ومنح.

(٣) رواه الترمذى.

والأرواح، والقلب الذى يخلو منه كالبيت الخراب، والبيت الخراب يكون مرتعاً للهوام والحشرات والدواب ومن ثَمَّ إلا يأتى منه خير أبداً، وكان للقرآن أثر فى نفس عمر وهو صغير حيث امتلأ قلبه النقى بخشية ربه وتمسك بأسباب التقى فارتقى، وكانت عيناه تفيضان بالدمع من خشية الله – عز وجل – فيبكى وينتحب.

وكانت «أم عاصم» – رحمها الله – تتعجب من رقة قلب ولدها الصغير الورع البكَّاء، فيحرك فى قلبها كامن الخوف والخشية فتبكى هى أيضاً ببكائه، ذكر ابن عساكر – رحمه الله – أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير قد جمع القرآن، فأرسلت له أمه تسأله ما يبكيك؟؟

فقال لها: لا شىء يا أماه، ذكر الموت، ذكر الموت !!

فبكت أمه من ذلك وأشفقت عليه.

هذه هى ثمار التربية الصحيحة التى ينشأ عليها الصغار فيشبون عليها كباراً وتصبح صفاتٍ لازمة لهم حتى الممات، و لذلك نرى تلك العناية الفائقة من النبى ﷺ بتربية الأولاد حيث قال: «أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم، وحب آل بيته، وتلاوة القرآن، فإن حملة القرآن فى ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه»(١) وقال فى حديث آخر: «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع»(٢) وقال سعد بن أبى وقاص – رضى الله عنه –: كنا نعلم أولادنا مغازى رسول الله ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن.

وروى الجاحظ أن عقبة بن أبى سفيان لما دفع ولده إلى المؤدب قال له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بَنِىَّ إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت،

---

(١) رواه الطبرانى عن علىٍّ رضى الله عنه.

(٢) رواه الترمذى.

وعلّمهم سِيَر الحكماء، وأخلاق الأدباء، وتهدّدهم بي[1]، وأدِّبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكلنَّ على عذر مني، فإني قد اتكلت على كفاية منك».

وذكر الراغب الأصفهاني أن المنصور بعث إلى مَنْ في الحبس من بني أمية من يقول لهم: ما أشد ما مَرّ بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: «ما فقدنا من تربية أبنائنا».

ومن وصية ابن سينا في تربية الولد: «أن يكون مع الصبي في مكتبه صِبْيَةٌ حسنة آدابهم، مرضيّة عاداتهم، لأن الصبي عن الصبي ألْقَن، وهو عنه آخذ، وبه آنس»

هذا كله كان دافعاً لأم عاصم أن ترعى ولدها رعاية حسنة وأن تتخير له معلماً صالحاً حتى يتولى شئونه في المهد ليخرج إلى الحياة صالحاً تقياً، ولذلك فقد عُهد إلى صالح بن كيسان بهذه المسئولية وهو مدنيّ تابعيّ جليل ثقة من الثقات، ثَبْتٌ فقيه من الفقهاء، وقد عاش أكثر من مائة عام وهو أحد الثقات في رواية الحديث ومن فقهاء المدينة الجامعين بين الحديث والفقه.

وكانت سيرة عمر في مهده صغيراً مثار إعجاب شيخه وأستاذه صالح بن كيسان حتى قال عن طفولة عمر: ما خبرت أحداً، الله أعظم في صدره من هذا الغلام.

وإذا كان التاريخ يذكر عمر بن عبد العزيز كمعجزة فريدة قَلَّ أن يوجد لها مثيل أو نظير، فإن وراء عمر أمه «أم عاصم» التي أحسنت تربيته وأطابت غرسه وجذوره حتى استفادت الأرض كلها من ثمار صفاته العالية وشمائله الطيبة. فكل هذه الفضائل إنما كانت ثمرة جهد الأم الورعة التقية

---

(١) أي ذكرهم بعقابي لهم إن هم أخطاوا وأساءوا.

الصالحة «أم عاصم» التي لم تتوانَ عن العناية بولدها طرفة عين، وهذا درس عظيم لجميع الأمهات، فإنه وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة.

* أم مُوَفَّقة وخليفة عادل:

لم تكن عين «أم عاصم» تغفل عن ولدها في ليل ولا نهار، فقد أحاطته بعنايتها وحسن تربيتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً حتى أراها الله فيه ما تَقَرُّ به عينها في الدنيا والآخرة.

لقد كان حديث بني أمية دائمًا ما يدور حول هذا الصبي الأشج[١] الذي سيخرج من ظهورهم ويملأ الأرض عدلاً ونوراً، فقد كانت هذه البشرى إنما هي رؤيا رآها الفاروق عمر - رضي الله عنه - الذي رأى في نومه ذات ليلة ما جعله ينهض من فراشه متعجباً وهو يقول:

«مَنْ هذا الأشج من بني أمية، ومن ولد عمر، يُسمى عمر، يسير بسيرة عمر، ويملأ الأرض عدلاً؟؟!!».

ولحق عمر بالرفيق الأعلى وظلَّت هذه الرؤيا يُدوِّي صداها بين بني أمية وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة في وجوه أبنائهم، إلى أن كانت تلك الحادثة التي توقعها عبد العزيز بن مروان في ابنه عمر، فلم تخطئ فراسته بذلك، فيا ترى ما الذي حدث لهذا الأشج؟؟:

دخل عمر بن عبد العزيز مرة إلى اصطبل الخيل خفية من أمه التي لم تشعر به فضربته دابة فشجته في جبينه، وبصُرت به «أم عاصم» فأسرعت وضمته إلى صدرها، وجعلت تمسح الدم عن وجهه، ودخل أبوه عليها وهما على تلك الحال، فاقبلت أم عاصم عليه وجعلت تؤنبه وتلومه وتقول له: ضيَّعت ابني ولم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا. وصمت عبد العزيز هنيهة وطاف بذكره رؤيا الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله

---

(١) الشج: هو القطع والجرح، والأشج هو من أصابه جرح من قطع ونحوه.

عنه – فابتسم فرحاً وسروراً وارتسمت على وجهه علامات الرضا والطمأنينة وقال لها: اسكتى يا أم عاصم، فطوباك[١] إن كان ابنك أشج بنى أمية. وفى رواية: إن تكن أشج بنى أمية إنك إذن لسعيد.

وقد كان عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – هو ذلك الأشج السعيد الذى انحدرت أصوله الكريمة من جده الفاروق الذى كان عَلَماً على الحق والعدل وهو أسطورة التاريخ التى لم يوجد لها مثيل، وقد كان الحفيد على نهج الجد الكريم فصارت سيرتهم فى الحق واحدة، وكما سعدت الدنيا من قبل بعمر بن الخطاب فها هى تجدد فرحها وسعادتها بحفيده وسَميِّه[٢] بعد أعوام طويلة من الظلم والقهر والفساد. جاء عمر إلى الدنيا فمسح جراح البائسين وقهر الظالمين ورد الحقوق إلى المظلومين وأقام العدل فى الأرض بعد سنوات عجاف جفت فيها حياة الناس من البر والمعروف والأمان والسلام، وإذا كان الناس يذكرون مواقف عديدة لعمر فلا ينبغى أن ننسى أن وراء ذلك كله أمًّا مربية تقية صالحة أحسنت التوجيه والتربية والأدب حتى جنت ثمار جهدها هذه المعجزة الباهرة التى أذهلت الأعداء قبل الأصدقاء ألا وهى: عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين.

وطيلة حياتها كانت كريمة محسنة بارة بالمساكين والمحتاجين، فقد تعدَّى خيرها إلى غيرها، وظلَّت هكذا وفية لدينها، قائمة بأمر ربها، راعية لأبنائها حافظة لعهدها حتى ودَّعت هذه الدنيا إلى دار الحق.

* * *

---

(١) أى طوبى لك.

(٢) أى اسمه على اسمه.

فصـــل

أم مسلم الخولانية

الحياة بين الزوجين شركة ناجحة إذا أعان كل منهما صاحبه على طاعة ربه، وأم مسلم الخولانية -رحمها الله- من خيار التابعيات العابدات الزاهدات، وقد سعدت بصحبة زوجها الصالح الزاهد كما سعد زوجها بهذه العابدة الصالحة التي كانت تجيد الغزل بيدها وتنفق منه على حوائج بيتها لتفرُّغ زوجها إلى هموم أغلى من هموم الطعام والشراب وتكفيه مؤونتها ومؤونة بيتها وتساهم معه في حمل أمانه هذا الدين ما استطاعت، وكانت مطيعة له لا تعصى له أمراً، وهذه خير خصال المرأة والتى لا تبلغها إلا صِدِّيقَة صالحة عابدة.

وقد كانت على جانب كبير من العلم والمعرفة، فقد أسلم زوجها «أبو مسلم الخولانى الدارانى» فى عهد النبى ﷺ ولم يلقه، ودخل المدينة المنورة فى خلافة أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- وحدَّث عن عمر ومعاذ بن جبل وأبى ذر الغفارى وأبى عبيدة وعبادة بن الصامت -رضى الله عنهم أجمعين.

وأبو مسلم الخولانى سيد التابعين، وزاهد العصر -كما قال عنه الذهبى-، وهو أحد الزهاد الثمانية المشهورين بالزهد وهم: الربيع بن خثيم، وعامر بن عبد الله التميمى، وأويس بن عامر القرنى، وهرم بن حيان، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، والحسن البصرى، وأبو مسلم الخولانى.

وقد روى عنه أكابر تابعى عصره، وكان حكيم الأمة، وقد آتاه الله فضلاً وعلماً، وكان من كبار أولياء الله الأبرار. قدم الشام بزوجته وسكن قرية

تسمى «داريًا» وممن سكنها من الصحابة بلال بن رباح المؤذن -رضى الله عنه- كما كان فضلاء السلف يسكنونها.

و «أم مسلم الخولانية» لا تُعرف إلا بهذه الكنية التى استمدت شهرتها بها نسبة إلى زوجها -رحمه الله-، كما أنها امتازت بحسن الخلق وطاعة الزوج ورعاية البيت وذلك فوق ما كانت عليه من العبادة والصلاح والتقوى، فقد عَمَّرت أوقاتها بالطاعة وذكر الله فى جميع الأوقات حتى تبوأت مكانة عالية بين نساء التابعيات وصارت قدوة حسنة لمن يبحث عن القدوة الحسنة.

*** الطيبون للطيبات:**

الزوجة من الرعية التى فى عنق الزوج وسيُسأل عنها يوم القيامة، وقد كان أبو مسلم الخولانى يتعاهد زوجته بالنصيحة كما كانت هى سريعة الاستجابة والقبول لزوجها دون جدال أو مراء أو عنت، وقد كان أبو مسلم يقول لها كلما حانت له فرصة: يا أم مسلم سَوِّى رحلك، فإنه ليس على جسر جهنم معبر. وهذه حكمة بليغة لها أعماق بعيدة، وهى تشير إلى أخذ الأهبة والاستعداد لسفر الآخرة وذلك بتحصيل الزاد من الأعمال الصالحة وأنواع القربات والطاعات حتى تكون سبباً فى عبور الصراط إلى الجنة والنجاة من النيران وغضب الله، ويؤيد هذا المعنى حديث النبى ﷺ الذى يوصى فيه أبا ذر -رضى الله عنه- بقوله: «يا أبا ذر أحكم السفينة فإن البحر عميق، وأعد الزاد فإن السفر بعيد، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل فإن الناقد بصير» وهكذا كلما تعاهد الزوج زوجته بالنصيحة والكلمة الطيبة فإنه حتماً سيجنى ثمرة غرسه أحوالاً طيبة مَرْضية وأخلاقاً فاضلة كريمة.

وقد كانت «أم مسلم الخولانية» امرأة صَنَاعًا[1] وكانت تجيد الغزل

(١) أى تعمل بيديها.

وتبيعه وتعطى ثمنه لزوجها لشراء ما يلزمهم وبذلك جمعت بين عبادة ربها وطاعة زوجها والمساهمة فى أعباء الحياة، وبهذا كانت من العابدات المجتهدات فى العبادة والعمل من كسب ذات اليد، وتلك خصال قَلَّ أن تجتمع فى امرأة من النساء.

وفى ذات يوم أعطت أم مسلم درهماً إلى زوجها ليشترى به دقيقاً، فتصدَّق به، ولكن الله -عز وجل- أكرمه لنقاء سريرته وصدق نيته فكيف أظهر الله له الكرامة؟؟

حَدَّث عطاء الخراسانى -رحمه الله- فقال: قالت امرأة أبى مسلم الخولانى لزوجها: يا أبا مسلم، ليس لنا دقيق. فقال: هل عندك شئ؟ قالت: درهم بعنا به غَزْلاً. قال: أبغينيه[1] وهاتى الجراب. فدخل السوق، فوقف على رجل يبيع الطعام، فأتاه سائل وقال: يا أبا مسلم تصَدَّق علىَّ، وألحَّ السائل فى طلبه، فأعطاه الدرهم -وهو الوحيد الذى كان معه- ثم عمد إلى الجراب فملأه نشارة الخشب مع التراب وأقبل إلى منزله، فوضع الجراب خلف الباب، ومضى إلى شأنه، ففتحته زوجته فإذا به دقيق حوارى[2] فعجنت وخبزت، فلما جاء أبو مسلم ليلاً وضعت بين يديه خواناً وأرغفة فقال: من أين لك هذا يا أم مسلم؟ قالت له: يا أبا مسلم من الدقيق الذى جئت به نهاراً!! فجعل يأكل ويبكى..

إن ظهور الكرامة فى حياة الأولياء والأبرار الصالحين إنما هى جند من جنود الحق التى يثبت الله بها قلوب أحبابه وعباده المؤمنين، ويُظهر لهم طرفاً من قدرته الغيبية حتى يزداد تعلقهم بالله وثقتهم فى عطائه وكرمه، فالله يعاملهم حينئذ بحسب يقينهم عليه وثقتهم فيه، والحديث القدسى يشير إلى هذا المعنى حيث يقول الله تعالى فى الحديث: «أنا عند ظن عبدى بى

---

(١) أعطينيه.

(٢) أبيض.

فليظن عبدى بى ما يشاء» ومن أحسن الظن بربه فإنه حتماً سيجد الله عند حسن ظنه.

ولقد ظلت حياة الزوجين يملؤها الطهر والصلاح والنقاء والزهد والورع حتى حان وقت الرحيل فمات أبو مسلم الخولانى راضياً عن زوجته وهى راضية عنه، وبعد موته تزوجت «أم مسلم الخولانية» من عمرو بن عبد الخولانى وكان عمرو كزوجها السابق عابداً زاهداً ورعاً تقياً صالحاً.

وسُئلت «أم مسلم» يوماً فقيل لها: أىّ الرجلين أفضل؟ قالت: أما «أبو مسلم» فإنه لم يكن يطلب من الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وأما «عمرو بن عبد» فإنه كان يُنار[1] عليه فى محرابه حتى إنى كنت أخدم على ضوء نور من غير مصباح.

إنها وفية لزوجها الأول فحينما جاء ذكره ذكرت محاسنه وشمائله وكذلك كانت وفية مع زوجها اللاحق فذكرته بأفضل ما رأته من كراماته الطيبة، وهكذا خرجت من هذا السؤال الذى سُئلت بأفضل إجابة ونجحت فى امتحانها الذى دخلته، فكثير من النساء يكثرن الشكوى ولا تكاد الواحدة منهن تتذكر لزوجها حسنة أو ذكرى طيبة، ولكن «أم مسلم» طراز نفيس ومعدن ثمين فأصبحت مثالاً للزوجة الراضية الصابرة الشاكرة الوفية لزوجها ورفيق حياتها، وهذه من خصال الأوفياء الذين يتذكرون الإحسان ولا ينكرون الجميل والمعروف.

*** دعاء مستجاب:**

لقد ذكرت «أم مسلم» عن زوجها أنه كان مُستجاب الدعوة، وهذه درجة لا يصل إليها العبد إلا بعد مجاهدة وصبر وتضحية صادقة.

وإذا كانت البيوت هادئة مستقرة فهناك بعض النفوس المريضة لا تشعر

---

(١) يُضاء.

بالراحة لسعادة الآخرين، فتجتهد أن تنفث سمها فى الصدور حتى تتعكر علاقة الأزواج المتحابين، فما تصرف المؤمن الحكيم والمؤمنة الصالحة حيال هذه الشباك المنصوبة لهم فى الطريق للإيقاع بينهما وقطع صلات الحب والمودة التى تربطهما؟؟

لقد كانت «أم مسلم» مؤمنة فقيهة بدينها عالمة بشرع ربها وتعرف ما عليها من حقوق وواجبات، وكانت بارَّة بزوجها حافظة لحقوقه قائمة بخدمته على أفضل صورة وذلك بوازع من إيمانها ودينها وصلتها بربها.

وكان لأم مسلم امرأة من جيرانها عَكَّرت ذلك الصفو والهدوء الذى كان يخيم على هذا البيت الطاهر، وأفسدت أم مسلم على زوجها وأوغرت صدرها منه وهى التى أحسنت صحبته وقامت على خدمته أفضل قيام، فما كان من أبى مسلم إلا أن دعا عليها فعميت وذهب بصرها، فأتته واعترفت بخطئها وتابت فردَّ الله إليها بصرها.

وقد روى أبو نعيم فى الحلية تفاصيل هذا الخبر فقال: كان أبو مسلم الخولانى إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبَّر على باب منزله[١] فتكبّر امرأته، فإذا كان فى صحن داره[٢] كبَّر فتجيبه امرأته، وإذا بلغ باب بيته كبَّر فتجيبه امرأته.

فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد، فلما كان فى الصحن كبّر فلم يجبه أحد، فلما كان عند باب بيته كبَّر فلم يجبه أحد. وكان إذا دخل بيته أخذت امرأته رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه، فدخل البيت، فإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا امرأته جالسة فى البيت منكسة[٣] تنكت بعود معها. فقال لها: مالك؟ قالت: إن لك منزلة عند معاوية بن أبى

---

(١) وهذا بمثابة الاستئذان قبل الدخول فلم يكن لديهم اجراس على الأبواب.

(٢) فناء داخل البيت أو الدار.

(٣) أى مطأطئة.

سفيان وليس لنا خادم، فلو سألته فأخدمنا وأعطاك، وأدرك أبو مسلم أن فى الأمر شيئاً، فتوجه ببصره إلى السماء وقال: اللهم مَنْ أفسد علىَّ امرأتى فأعْمِ بصرها.

قال: وقد جاءتها امرأة قبل ذلك فقالت لها: زوجك له منزلة عند معاوية، فلو قلت له يسأل معاوية يُخدمه ويعطيه عِشْتُم.

فبينا تلك المرأة جالسة فى بيتها ليلاً، إذ أنكرت بصرها فجأة، فقالت: ما لسراجكم هل طُفئ؟ قالوا: لا، السراج على حاله.

عندئذٍ عرفت ذنبها وخطأها مع أم مسلم حينما أفسدتها على زوجها، فأقبلت إلى أبى مسلم تبكى، وتسأله أن يدعو الله - عز وجل - لها أن يرد عليها بصرها، فرقَّ لها ورحم حالها، فتوجه إلى الله - عز وجل - بقلبه، ودعا لها فَرُدَّ عليها بَصَرُها، وعادت أم مسلم -رحمها الله- إلى ما كانت عليه من الخدمة وحسن الصحبة مع زوجها التقى الزاهد أبى مسلم -رحمه الله.

كم من نساء يعكرن صفو العلاقة بين الزوجين، فالمرأة المسلمة لهذا يجب ألا تعطى أذنها لأى كلام مسموم من شأنه أن يقطع حبال المودة والمحبة بينها وبين زوجها، ويجب أن تكون على يقظة كاملة من أية نصائح مشبوهة تخرج من قلوب مريضة ونفوس موتورة حاقدة، فكثيراً ما تنهدم البيوت المستقرة وتنهار الأُسَر المتحابة بسبب كلمة خبيثة وثرثرة فارغة ونصيحة فاسدة والنهاية هى الخراب والشتات والفراق.

وحتى لا تصل الزوجة الصالحة لهذه النهاية المؤسفة فعليها ألا تسمع لكل كلام ولا تعطى أذنها لكل امرأة تضع فيها ما تريد، فربما أفسدت من حيث تريد أن تصلح وربما تسمع كلاماً ظاهره طيب بينما باطنه خبيث منتن. والزوج الذى يرى تغيراً واضحاً فى سلوك امرأته فلابد أن يكون

صاحب بصيرة نافذة مثل «أبى مسلم» -رحمه الله- حينما أدرك من تغير زوجته أنه كان بسبب زيارة مشئومة لامرأة خبيثة فاسدة، فلم يُسرع بعدها بالضجيج والصياح والتهديد بل استقبل الأمر بحكمة ورويّة وهدوء، ورفع يديه إلى السماء بالدعاء ليتولى الله عنه عقاب من أفسد عليه امرأته وتأديب من عَكَّر عليه حياته.

وهذه قيمة اليقين وفائدة الدعاء وثمرة التعلق بالله، فبسبب هذا الفهم الصحيح تُقضى جميع الحوائج مع راحة البدن وراحة القلب، فإن انتقام العبد بنفسه لنفسه لا يكون أبداً كانتقام الله لعبده، ولذلك من انتصر لنفسه وَكَلَهُ الله إليها، ومن فَوَّض أمره لربه تولَّى الله عنه تأديب من يؤذيه وعقاب من يتطاول عليه.

هكذا يكون علاج الأمور، والثمرة من هذه الحكمة هى صلاح جميع الأحوال: فقد أدركت أم مسلم خطأها حينما أصغت بأذنها لهذ النصيحة الفاسدة، وقد تابت المرأة العاصية واعتذرت عما بدا منها، وبات أبو مسلم هادئ البال مطمئن الفؤاد قد انصلحت زوجته وتأدبت جارته فهل بعد ذلك من مطلب تتوق إليه النفس من صلاح جميع الأحوال على هذا النسق العجيب؟؟

* **يقين صادق:**

حوائج البيت وضرورات الحياة لا ريب ينشغل بها بال المرأة فهى القائمة على شئون زوجها وأولاده، وفى عنقها مسئولية الخدمة وتهيئة بيئة البيت للسكن والراحة والهدوء، ورغم أن أم مسلم كانت تغزل بيدها وتبيع غزلها وتُسهم به فى نفقات البيت إلا إنها احتاجت يوماً إلى زيادة هذا الزاد حتى يواجهوا به ظروف الحياة، فكيف كان توجيه زوجها لها وتعليمه إياها؟؟ إنه كان موصول القلب بالله، وكان يرى قضاء الحوائج كلها بالوقوف على باب الخالق وحده وليس على أبواب المخلوقين الضعفاء الفقراء العجزة، وهكذا

تعلمت أم مسلم صحة اليقين ورأت بعينها آية من آيات الله التى يؤيد بها أصحاب اليقين الراسخ والإيمان القوى والقلوب السليمة.

أورد ابن عساكر قصة تروى ما حدث بين أبى مسلم وزوجته فقال:

قالت أم مسلم لأبى مسلم، قد حضر الشتاء، وليس لنا كسوة، ولا طعام ولا إدام ولا حذاء ولا حطب. فقال لها: ماذا تريدين يا أم مسلم؟ قالت: تأتى معاوية فهو عارف بك، وتخبره بحاجتك وجَهْدنا[١].

قال: ويحك إنى لأستحى أن أطلب إلى غير الله -عز وجل.

وَأَلَحَّتْ عليه، فلما أكثرت قال: ويحك جهِّزينى.

ثم عمد إلى المسجد ومكث يومه فلمَّا صلّى الناس العشاء وخلا له المسجد، جثا على ركبتيه ثم قال: اللهم أنت تعرف حالى فيما بينى وبينك، وقد سمعت مقالة أم مسلم وقد بعثتنى إلى معاوية، وخزائن الدنيا كلها بيدك، ومعاوية خلق من خلقك، وإنما أسألك من خيرك الكثير اليسير -وَعَدَّدَ حاجاته-.

ثم قال: وإن خزائنك لا تنفد، وخيرك لا ينقص، وأنت بى عالم، قد تعلم أنك أحبّ إلىّ من سواك، فإن تعطنى حمدتك عليه كثيراً، وإن تمنعنيه فلك الحمد كثيراً.

وكان رجل من آل معاوية فى المسجد يسمع مقالة أبى مسلم، فخرج حتى دخل على معاوية، وأخبره بما سمع. فقال معاوية: ويحك أتدرى من هذا؟ هذا أبو مسلم، أليس قد أحصيت ما قال؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: فأضْعفوا[٢] كلّ ما سأل وعَجِّلوا به الساعة إلى منزله، ولا يصبحن إلا وهذا الشىء فى منزله من كلّ شئ اثنين.

---

(١) أى ما أصابنا من الشدة والفاقة.

(٢) أى أعطوه ضِعْفَ ما طلب.

فحمل كلّ ما قال، فلما قدمت هذه الأشياء إلى أم مسلم -رحمها الله- أقبلت تحسن الثناء على معاوية -رضى الله عنه- وتقول: لم أزل أعاتب الشيخ فى إتيانه فيأبى عليَّ.

فلمَّا صلَّى أبو مسلم الغداة -الصبح- انصرف وهو واثق بربه عز وجل، فلما أتى البيت أصابه مملوءاً سواداً(١). فقالت له أم مسلم: يا أبا مسلم، ألا ترى ما أهدى إليك أمير المؤمنين؟؟

قال: ويح البُعَداء، لقد كَفَرْت النعمة ولم تشكرى الرازق. والله ما أتيت لمعاوية داراً، ولا كلّمت له حاجباً، ولا رفعت إليه حاجة، وما هذا إلا قَسْم من الله تعالى أهداه إلينا، فلله الحمد كثيراً كثيراً. هذه هى ثمار اليقين، ومن أصابه ضُرٌّ ومكروه فما عليه إلا أن يسلك مسلك أبى مسلم ويذهب إلى المسجد ويرفع حاجته إلى ربه وسيجد عطاء الله له أقرب إليه من حبل الوريد.

* * *

(١) أى أشياء كثيرة.

الباب الخامس

طريق الوصول إلى ما كانت عليه

خيار النسوة

صلاح النهاية من صلاح البداية

إذا كانت النتائج تُبنى على مقدماتها، والبدايات تُفضى إلى نهاياتها، والأسباب تؤدى إلى ثمارها، فإن صلاح النهاية لا يكون مبدؤه إلا من صلاح البداية، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، وصلاح البداية يكون بهمّة عالية ونية صالحة، والسعيد هو الذى يسلك الطريق الذى يؤدى به إلى أسعد غاية.

وباب الرضوان لم يُغلق، بل هو مفتوح إلى يوم القيامة والشرط هو المتابعة بإحسان، فمن استكمل شرائط الإيمان، وَتَحَصَّلَ على صفات الخير، وتحققت فيه مؤهلات النصرة والمعية، فالله تعالى سيأخذ بيده ويوصله إلى ما وصل إليه السلف الصالح من الأحوال الزكية والكرامة الأبدية...

* * *

أولاً : العلـــم

لا يصل إلى أعلى مراتب الفضل فى الدين، ولا يبلغ درجة الإمامة واليقين، إلا مَنْ كان عالماً بدينه فقيهاً بأوامر ربه، فما اتخذ الله من ولىٍّ جاهل ولو شاء أن يتخذه لَعلَّمه، ولا يعرف الله حق معرفته ولا يقدره حق قدره إلا العالمون العاملون المخلصون.

والنساء الصالحات الخيِّرات السابقات الذكر ما وصلن إلى ما وصلن إليه إلا بعمق العلم وغزارة الفهم ودقة الوعى، فالعلم هو نور البصائر، ومن لا علم له فلا بصيرة له، ومن لا بصيرة له فهو أعمى عن الحق لا يراه ولا ينجذب إليه ولا يذوق حلاوته فلا ينتفع به ولا يستطيع أن يَدُلَّ غيره عليه وذلك أن فاقد الشئ لا يعطيه.

وإذا كان التشبه بالكرام فلاح، والتأسِّى بالصالحين من مكارم الأخلاق، والاقتداء بالأولياء والأتقياء من حميد الخصال وجميل الصفات، فعلى مَنْ أراد المحاكاة والتشبه أن يضع قدمه أولاً على درجة العلم لأنها التى ستفتح له الباب للصعود إلى مراقى الفضل والكمال، ومن ضَلَّ طريقه عن هذه الدرجة والخطوة الأولى فطريقه كله بعد ذلك ضلال فى ضلال وعمى على عمى ولن يصل إلى خير أبداً، بل سيظل يخبط خبط عشواء، ويلعب به الشيطان كما يلعب الصبيان بالكرة، وسيجد نفسه فى نهاية المطاف قد وقع فى هوة سحيقة لا نهاية لها ولا قرار.

وحتى لا يحار الطالب والراغب فى هذا الشأن، فبين أيدينا الآن عشر مسائل من مهمات الأمور التى تتعلق بقضية العلم وينبغى أن تكون جلية واضحة فى ذهن من يريد سلوك طريق الفضل ويرغب فى أن يتخذ إلى ربه سبيلاً موصلاً إلى رضوانه وكرامته، **وهذه المسائل الهامة هى:**

فضيلة العلم، وما العلم النافع، والنية فى طلب العلم، وأقسام العلم، وآداب المتعلم، وحقوق العلم على العالم والمتعلم، وكيف تحصل المرأة على العلم[1]، وذم الجدال والمراء، والترهيب من ترك العمل بعد العلم، ثم التحذير من سرطنة التَّشَيُّخ.

وسيأتى تفصيل ذلك كله بعون اللّه الكريم، بعبارة موجزة وقول مختصر، حتى نبلغ المراد ونصل إلى المقصود، ومن أراد الزيادة فى هذا، فالأمر مشروح ومبسوط فى مظانِّه فى أمهات الكتب التى فَصَّلها علماء السلف الصالح فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا وشرحوها وبيَّنوها وأجلوها للمستبصرين فى أوضح صورة، فجزاهم اللّه عن الأمة خيراً، ونفعنا اللّه بعلومهم وميراثهم. اللّهم آمين.

* * *

(١) على اعتبار أن الكتاب مَعْنِىٌّ بشأن الصفوة من خيار النسوة.

فصــل

فضيلة العلم

فضائل العلم وطلبه وتحصيله لا حصر لها ولا عَدّ، وسنذكر منها -إن شاء الله -خمس آيات وعشرة أحاديث ثم نذكر أقوال الصحابة وسلف الأمة فى فضل العلم وفى هذا كفاية لمن طلب الدلالة، وأما من أراد الزيادة فالبحر واسع والجود عظيم والعطاء لا نهاية له :

أولاً : الآيات :

١ - قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا فى معرض ذكر الخشية والخوف والورع، فالعلماء أعلم الخلق بالله وأتقاهم له، ولذلك من ازداد علماً نافعاً فلابد أن يزداد معه خشية وورعاً، ومن ازداد علماً ولم يزدد من الله خوفاً فإنه لا يزداد من الله إلا بُعداً.

٢ - قال تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ** ﴾ [آل عمران : ١٨]، فرفع الله قدر أهل العلم حينما ذكرهم بعده سبحانه وبعد ملائكته فى الشهادة له بالتوحيد.

٣ - قال تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة : ١١]، قال ابن عباس -رضى الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام.

٤ - قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩]، ونفى الاستواء يعنى نفى الدرجة والفضيلة والعطاء، فلا يستوى جاهل مع عالم أبداً.

٥ – قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فهذا أمر من الله بطلب الزيادة، ولا يأمرنا الله بطلب الزيادة إلا من شيء فيه الخير والنفع العظيم، وأى نفع أعظم من العلم والمعرفة؟؟

ثانياً: الأحاديث:

١ – عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر». رواه أبو داود والترمذى.

٢ – وعن أبى أمامة الباهلى – رضى الله عنه – قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله >: فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم، ثم قال رسول الله >: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير»

رواه الترمذى وقال حديث حسن، ورواه الدارمى بمعناه.

٣ – عن معاوية –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» رواه البخارى ومسلم وابن ماجه.

٤ – عن صفوان بن عَسَّال –رضى الله عنه– قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم، فقال: مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من

محبتهم لما يطلب» رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه.

٥ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه[١]، وعالماً أو متعلماً» رواه الترمذي، وقال حديث حسن.

٦ - وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم.

٧ - عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عُمل به أو لم يُعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة» رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

٨ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً عَلَّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورَّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته» رواه ابن ماجه بسند حسن والبيهقي، وابن خزيمة في صحيحه مثله.

٩ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً ثم يعلمه أخاه المسلم» رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

١٠ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

---

(١) أي طاعة الله.

عُبد الله تعالى بشئ أفضل من فقه فى الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شئ عماد، وعماد هذا الدين الفقه» رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو بكر الآجرى فى كتاب فضل العلم، وأبو نعيم فى رياض المتعلمين بإسناد ضعيف، وعند الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد.

ثالثاً: الآثار:

عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال: تعلموا العلم فإن تعلمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قُربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله تعالى به أقواماً ويجعلهم فى الخير قادة وأئمة، تُقْتَبَسُ آثارُهم ويُقْتَدَى بفعالهم ويُنْتَهَى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم[1] وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان فى البحر وهوامه، وسباع الطير وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظُلَمِ، يبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدرجه العليا فى الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به تُوصَلُ الأرحام، ويُعْرَفُ الحلال من الحرام، إمام العمل والعمل تابعه، يُلْهَمُهُ السعداء ويُحْرَمُهُ الأشقياء. أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم.

أخرج اللالكائى عن أبى الطفيل قال: كان علىّ –رضى الله عنه– يقول: إن أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ثم يتلو هذه الآية: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى**﴾ يعنى محمداً ﷺ والذين اتبعوه،

(١) أى صحبتهم.

فلا تغيروا، فإنما وَلِيُّ محمد من أطاع الله، وعدو محمد من عصى الله وإن قربت قرابته.

قال ابن مسعود – رضى الله عنه –: اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد فيما بين ذلك، فإنما بين ذلك جاهل أو جهل، وإن الملائكة تبسط أجنحتها لرجل غدا يطلب العلم من الرضا لما يصنع.

وقال أبو الدرداء – رضى الله عنه –: كن عالماً أو متعلماً أو محباً أو متبعاً ولا تكن الخامس فتهلك، قيل للحسن: وما الخامس؟ قال: المبتدع.

وأخرج ابن عبد البر عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – أنه قال: ما من أحد يغدو إلى المسجد لخير يتعلمه أو يعلمه إلا كتب له أجر مجاهد لا ينقلب إلا غانماً.

وعنده أيضاً عنه قال: من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه.

وعنده أيضاً عن على الأزدى قال: سألت ابن عباس عن الجهاد فقال: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبنى مسجداً وتعلم فيه القرآن وسنن النبى ﷺ والفقه فى الدين

وأخرج ابن زنجويه عن على الأزدى قال: سألت ابن عباس – رضى الله عنهما – عن الجهاد فقال: ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تجيىء مسجداً فتعلم فيه القرآن والفقه فى الدين أو قال: السنة.

عن أبى الدرداء – رضى الله عنه – قال: لولا ثلاث خلال لأحببت أن لا أبقى فى الدنيا، فقلت: وما هن؟ فقال: لولا وضوع وجهى للسجود لخالقى فى اختلاف الليل والنهار يكون تقدمة لحياتى، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة. ويروى أيضاً هذا القول عن عمر –رضى الله عنه.

أخرج البزار عن أبى ذر وأبى هريرة -رضى الله عنهما- أنهما قالا: لَبَاب يتعلمه الرجل أحبّ إليَّ من ألف ركعة تطوعاً. وقالا: قال رسول الله ﷺ. إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد.

وقال فتح الموصلى: أليس المريض إذا مُنع الطعام والشراب يموت؟ قالوا: بلى، قال: كذلك القلب إذا مُنع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت.

قال ابن مسعود - رضى الله عنه -: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذى نفسى بيده ليودَّن رجال قتلوا فى سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم. وقال ابن عباس - رضى الله عنه -: تذاكر العلم بعض ليلة أحبّ إليَّ من إحيائها.

وقال الحسن - رحمه الله -: يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء.

وفى وصية لقمان لابنه: يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء.

قال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

قال عطاء: مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللهو

وقال عمر - رضى الله عنه -: موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

وقال الشافعى - رحمه الله -: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

أخرج أبو نعيم عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أنه لما حضرته الوفاة

قال: انظروا أصبحنا؟ فأتى فقيل: لم تصبح، فقال: انظروا أصبحنا؟ فأتى فقيل له: لم تصبح، حتى أتى فى بعض ذلك فقيل: قد أصبحت، قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً زائر مغيب حبيب جاء على فاقة، اللهم إنى قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر.

وأخرج الحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: لما قُبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفى الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟ قال: فتركت ذاك وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله ﷺ، وإن كان يبلغنى الحديث عن الرجل فآتى بابه وهو قائل[1] فأتوسد ردائى على بابه يسفى[2] الريح علىَّ من التراب فيخرج فيرانى فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلىَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، قال: فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصارى حتى رآنى وقد اجتمع الناس حولى يسألونى فيقول: هذا الفتى كان أعقل منى.

قال علىّ - رضى الله عنه -: يا كميل بن زياد القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، احفظ ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دين

(١) أى نائم وقت القيلولة فى الظهيرة.

(٢) أى يحمل ويذر.

يُدان به، العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة[1] بعد الموت، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة[2]، وأمثالهم في القلوب موجودة.

والآثار فى هذا الميدان كثيرة غزيرة لا نهاية لها وهذا الذى ذكرناه فَيْض من غَيْض...

* * *

---

(١) الذكرى الطيبة بعد موته.

(٢) أى أجسادهم غائبة عن العيون لموتهم.

فصــل

ما العلم النافــع؟

* العلم النافع هو الذى يثمر فى القلب خشية الله والشوق إلى لقائه، ويقدح فيه الرغبة الصادقة للأعمال الصالحة والرهبة من المخالفة والمعصية، فإذا تأثرت القلوب بهذا العلم يأتى فيها التصديق الجازم بالوعد والوعيد، الوعد بالجزاء الطيب على الأعمال الصالحة ومنه تنشأ حقيقة الرجاء، والوعيد بالعقوبة والنكال على المعاصى والمخالفات ومنه تنشأ حقيقة الخوف، وبين الخوف والرجاء يزداد الإيمان.

* والعلم النافع هو العلم الإلهى القطعى الذى لا ظن فيه ولا وهم، ومن ثَمَّ فهذا العلم هو الذى ينبنى عليه العمل ولا يكون ترفاً للعقول ولا مادة صماء لحشو الرءوس.

* جاء فى الأثر: «لا تجلسوا إلى كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس: يدعوكم من الرياء إلى الإخلاص، ومن العداوة إلى النصيحة، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الشك إلى اليقين»، ومن هنا ظهر أن العلم الذى يورث الصفات ويربى الإيمان ويُصلح النفوس هو العلم النافع الواجب تحصيله شرعاً.

* إذن فالعلم المقصود بجميع الفضائل والمخصوص بجميع المنح والعطايا هو: العلم الإلهى القطعى الذى يزداد به الإيمان وتنصلح به النفس ويورث فى القلب محبة الله وخشيته وتنبنى عليه الأعمال الصالحة المُفضية إلى مرضاة الله والحياة الطيبة.

ولذلك ينبغى لطالب العلم أن يتبين حقيقة هذا العلم الذى يطلبه،

ويدرك فى أىّ ميدان سيدخل، وأىّ العلوم سيغرف من معينها وينهل من مواردها، فربما وجد المتعلم علوماً ظاهرها طيب بينما باطنها خبيث، وربما وجد السُّم فى العسل ولا يشعر به إلا بعد حين، فالقارئ يتأثر بفكر الكاتب، ولذلك وجب تحديد معنى العلم الذى أمرنا الشارع بتحصيله وجعل طلبه فريضة يُثاب عليها المسلم ويؤجر أفضل الأجر إذا سعى فى طلبها وتعلمها والعمل بها.

ولقد جاءت بعض النصوص التى تحدد ماهية العلم الشرعى الذى يجب على المسلم تحصيله والعناية به والاهتمام بطلبه حتى لا يدخل المسلم فى متاهة لا نهاية لها، فالعمر قليل والعلم كثير، والبصير من يأخذ من العلم ما ينفعه ويقربه إلى ربه ويترك ما لا طائل من ورائه ولا ثمرة تعود عليه من الانشغال به.

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «العلم ثلاثة: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة، وما كان سوى ذلك فهو فضل» أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن عبد البر بنحوه.

وأخرج ابن عبد البر فى كتابه. جامع بيان العلم عن ابن عباس -رضى الله عنه- قال: إنما هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن قال بعد ذلك شيئاً برأيه فما أدرى أفى حسناته يجده أم فى سيئاته.

وعنده أيضًا عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: العلم ثلاثة أشياء: كتاب ناطق، وسنة ماضية، ولا أدرى(١).

وأخرج أيضاً عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجل فقال: وما هذا؟ قالوا: يا رسول الله رجل عَلاَّمَة، قال: وما العَلاَّمَة؟ قالوا: أعلم الناس بأنساب العرب وأعلم الناس

---

(١) أى حينما يُسأل عما لا يعلم لا يُفتى بغير علم ولكن يقول: لا أدرى.

بعربية[١] وأعلم الناس بشعر وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب، فقال رسول الله ﷺ: «هذا علم لا ينفع وجهل لا يضر».

وأخرج ابن عساكر بسند حسن عن مجاهد قال: بينا نحن جلوس أصحاب ابن عباس – رضي الله عنهما – عطاء وطاووس وعكرمة إذ جاء رجل وابن عباس قائم يصلى فقال: هل من مُفْتٍ؟ فقلت: سل، فقال: كلما بلت تبعه الماء الدافق، فقلنا: الذى يكون منه الولد؟ قال: نعم. فقلنا: عليك الغسل، فولّى الرجل وهو يُرجع[٢].

وعَجَّل ابن عباس فى صلاته فلما سَلَّم قال: يا عكرمة علىَّ بالرجل فأتاه به ثم أقبل علينا فقال: أرأيتم ما أفتيتم به هذا الرجل عن كتاب الله؟ قلنا: لا، قال: فمن سنة رسول الله ﷺ؟ قلنا: لا، قال: فعن أصحاب رسول الله ﷺ؟ قلنا: لا، قال: فعن مَنْ؟ قلنا: عن رأينا، فقال: لذلك يقول رسول الله ﷺ: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ثم أقبل على الرجل فقال: أرأيت إذا كان منك هل تجد شهوة فى قلبك؟ قال: لا، قال: فهل تجد خدراً[٣] فى جسدك؟ قال: لا، قال؟ إنما هذا بردة يجزيك منه الوضوء.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن حفص بن عمر السعدى عن عمه قال: قال سلمان لحذيفة –رضى الله عنهما: يا أخا بني عبس إن العلم كثير والعمر قليل، فخذ من العلم ماتحتاج إليه فى أمر دينك، ودع ما سواه فلا تعانه.

وعنده أيضاً عن أبى البخترى قال: صحب سلمان رجل من بنى عبس قال: فشرب من دجلة شربة فقال له سلمان: عد فاشرب قال: قد رويت، قال: أترى شربتك هذه نقصت منها؟ قال: وماينقص منها شربة شربتها؟! قال: كذلك العلم لا ينقص، فخذ من العلم ما ينفعك.

---

(١) أى اللغة العربية.

(٢) أى يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) أى فتوراً وكسلاً.

وأخرج أحمد بسند صحيح في قصة وفد عبد القيس، قال: ثم أقبل على الأنصار فقال: يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام وأشبه شئ بكم شعاراً وأبشاراً، أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا، فلما أن قال: كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إياكم؟ قالوا: خير إخوان، ألانوا فرشنا وأطابوا مطعمنا وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، فأعجب النبي ﷺ وفرح بها ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً يعرضنا على ما تعلمنا وعلمنا، فمنا من تعلم التحيات وأم الكتاب والسورة والسورتين والسُّنَّةَ والسنتين».

وعن ابن سعد عن ثابت عن أنس قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يُقال لهم القراء فيهم خالي حرام كانوا يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: «اللهم بلِّغ عنَّا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا، قال: وأتى رجل حراماً خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه فقال حرام: فزت ورب الكعبة، فقال رسول الله ﷺ لإخوانه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنّا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا.

ومن هذه النصوص الكثيرة وغيرها يتبين لطالب العلم حقيقة العلم النافع الواجب عليه شرعاً أن يتعلمه ويحرص عليه ويجني ثماره، ويمكن إيجاز الفائدة في الآتي:

أولاً: أعظم العلم وأكبره فائدة وأكثره بركة هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما كان فرعاً عليهما من أقوال الصحابة وآثار السلف -رحمهم الله.

فالعلم قديم، وما ترك الأول شيئاً للآخر، وكلما اقترب المتعلم من المنبع وجد العلم صافياً من كل كدر رائقاً من كل شائبة، فالأولون لم يكن لهم أغراض ولا هوى، ولذلك خلصت علومهم لوجه الله الكريم فعَمَّ نفعها وانتشرت بركتها.

ثانياً: كل علم لا ينبنى عليه عمل فإنما هو من التكلف الذى نُهينا عنه شرعاً، وهو بمثابة علم لا ينفع وجهل لا يضر كما وصفه بذلك الحديث المتقدم.

ثالثاً: ليس العلم عن كثرة الرواية وإنما هو نور ينقدح فى القلب يفرق به بين الحق والباطل، وبين الطيب والخبيث، وهذا لا يكون إلا بعد الإيمان، وهذا ما أشار إليه ابن عمر - رضى الله عنه - حيث قال: «لقد عشت برهة من دهرى وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن يقف عنده منها كما تعلمون أنتم القرآن، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، ما يدرى ما آمره ولا زاجره، وما ينبغى أن يقف عنده منه وينثره نثر الدَّقَل(١)»(٢).

رابعاً: أصول العلم النافع أربعة لا خامس لها، قال محمد بن الحسن: العلم على أربعة أوجه: ما كان فى كتاب الله الناطق وما أشبهه، وما كان فى سنة رسول الله ﷺ المأثورة وما أشبهها، وما كان فيما أجمع عليه الصحابة - رحمهم الله - وما أشبهه وكذلك ما اختلفوا فيه لا يخرج عن جميعه فإن أوقع الاختيار فيه على قول فهو علم تقيس عليه ما أشبهه، وما استحسنه عامة فقهاء المسلمين وما أشبهه وكان نظيراً له، قال: ولا يخرج العلم عن هذه الوجوه الأربعة حيث إنه لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة أبداً.

* * *

(١) رديىء التمر.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح.

فصــل

النية فى طلب العلم

لا يُقبل عمل عند الله إلا بشرطين اثنين :

الأول : أن يكون خالصاً لوجه الله .

ثانيــاً : أن يكون موافقًا لسنة نبيه ﷺ .

وعلى هذا فعلى من يطلب العلم أن ينظر فى نيته وقصده من وراء طلبه، فإن فساد النية يتبعه حينئذ فساد العمل كله، ثم يصبح هذا العمل حجة على العبد لا حجة له .

وبما أن العلم درجة ترفع من شأن العبد وتميزه على كثير ممن حوله فلذلك كان هذا مدخلاً عظيماً من مداخل الشيطان ليغرى العبد بالكبر والخيلاء على من دونه من عباد الله، أو يزين له الدنيا ويظل وراءه بالوسوسة حتى يطلب بدينه أموال الناس وأشياءهم، فيتخذ علمه مطية لكسب حطام زائل وتحصيل لذة عاجلة فانية .

فما النية الصحيحة لطلب العلم حتى يُعصم المسلم من هذه الفتن المهلكة، وينأى بنفسه عن مكائد الشيطان ومصائده التى ينصبها له فى طريق تحصيل العلم النافع؟؟

لا حرج أن تتعدد النوايا الطيبة فى العمل الصالح الواحد، ولذلك فهناك أكثر من نية صالحة يُثاب عليها العبد ويُؤجر بسببها أعظم الأجر من الله، وهذه النوايا يمكن إجمالها فيما يلى :

١ - طاعة الله تعالى وامتثال أمره فى تحصيل العلم النافع، حيث إنه سبحانه مدح العلم وأهله ورَغَّب فيه النبى ﷺ وأثنى على طُلابه وناشريه

ومعلميه. وطاعة الأمر فيها تحقيق العبودية وهو أمر محمود يريده الشارع ويحض عليه.

٢ - العمل بهذا العلم حتى يكون حجة لصاحبه لا حجة عليه، والأجور كلها مرهونة بالأعمال والأفعال وليس بالأماني والوعود والأقوال، والعمل والعلم قرينان لا يفترقان فكلاهما فيه عصمة لصاحبه من الزيغ والفتنة والضلال، فالعلم بلا عمل حجة على العبد يُعاقب عليها أشد العقاب، والعمل بلا علم يؤدى إلى الضلال والفساد فلا يبلغ العامل به المقصود من مرضاة الله وامتثال أمره.

أخرج ابن عدى والخطيب عن معاذ -رضى الله عنه-، وابن عساكر عن أبى الدرداء -رضى الله عنه- مرفوعاً: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم الله حتى تعملوا بما تعلمون».

وأخرج ابن عبد البر عن مكحول عن عبد الرحمن بن غُنْم قال: حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: كنا نتدارس العلم فى مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «تعلموا من العلم ما شئتم، فوالله لا تؤجرون بجميع العلم حتى تعملوا».

٣ - احتساب الأجر والثواب عند الله وليس ابتغاء المكانة والمنزلة فى قلوب الناس، فمن سلك طريق العلم لا ينبغى أن يصرف بصره عن ثواب ربه وجزيل عطائه على أصحاب العلم ولا يستهويه دنيا الناس ولا أعراضها الزائلة.

ومن فَقد مراقبة نيته فى هذا الشأن فقد هوى إلى درك سحيق ووقع فى مأزق خطير، فَقَدْ حذر النبى ﷺ طلاب العلم من الإعراض عن ثواب الله إلى ثناء الناس ودنياهم الزائلة.

عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «من تعلم علماً مما

يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها . رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم .

وحديث مسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ وفيه : « ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأُتى به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته، وقرأتُ فيك القرآن، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » .

وعن كعب بن مالك –رضى الله عنه– قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من طلب العلم ليجارى به العلماء(١)، أوليمارى به السفهاء(٢)، ويصرف به وجوه الناس(٣) إليه أدخله الله النار » رواه الترمذى والبيهقى والحاكم وابن أبى الدنيا، ورواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه عن جابر بمعناه .

وعن أبى هريرة –رضى الله عنه– قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم صرف الكلام(٤) ليسبى به قلوب الرجال، أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً » رواه أبو داود .

صرفاً : أى توبة .   عدلاً : أى فداءً .

وعن ابن عباس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « إن ناساً من أمتى سيتفقهون فى الدين يقرأون القرآن يقولون : نأتى الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لا يُجْتَنَى من القتاد إلا الشوك،

---

(١) أى يتظاهر أنه منهم ويحب ذيوع صيته وشهرته مثلهم .

(٢) أى يجادل ويخاصم .

(٣) يحول ويوجه ألسنة الناس إليه ليلهجوا بذكره ويمدحوا قوة بيانه ويثنوا عليه .

(٤) تزيينه بالزيادة فيه .

كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا». رواه ابن ماجه ورواته ثقات.

وفي الحديث إشارة إلى من تعلم العلم لينال مركزاً ومكانة عند الأمراء ويكسب من ذلك مالاً أو جاهاً فلا يسلم له دينه وإيمانه كما لا يجتنى من شجر القتاد إلا الشوك.

٤ - الدعوة إلى ما علمه وعمل به حتى ينتشر في الآفاق وتنتفع به الأمة، فالعلم كالمسك والطيب إذا خرج من الزجاجة انتشرت رائحته الطيبة فعطرت المكان واستنشق الناس شذاها الجميل وعبيرها الطيب، والعلم ليس مادة للكلام يظل محبوساً في بطون الكتب ولكن الله جعله مادة للعمل والجهد والسعي، وعلى حامله أن يبلغه ولا يكتمه، وينشره ولا يحبسه.

والناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها لم يستفيدوا بصلاة الصحابة ولا صيامهم ولا حجهم بقدر ما استفادوا بجهدهم ودعوتهم وحركتهم في الأرض بمنهج الله، فالدعوة كانت سبباً في نشر الدين ودخول الناس فيه أفواجاً وبها أحيا الله الفرائض والسنن وعلم الناس ما يجب عليهم فعله وما يجب عليهم تركه، ولولاها لظل الدين داخل حدود الجزيرة ولم يتجاوزها إلى غيرها.

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّر الله امرءاً سمع مِنَّا شيئاً فبلَّغه كما سمعه فرب مُبَلَّغ أوعى من سامع» رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه، وفي رواية عن زيد بن ثابت وفيها: «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه».

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: خطبنا رسول الله ﷺ بمسجد الخيف من منى فقال: «نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وبلَّغها من لم يسمعها، ثم ذهب بها إلى من لم يسمعها، الا فرُبَّ حامل فقه لا فقه له،

ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» رواه الطبراني في الأوسط.

وعن ابن عباس -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «اللهم ارحم خلفائي، قلنا: يا رسول الله ومَنْ خلفاؤك؟ قال: الذين يأتون من بعدى يروون أحاديثي ويعلمونها الناس» رواه الطبراني في الأوسط.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» رواه مسلم.

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ :«من دَلَّ على خير فله مثل أجر فاعله» رواه مسلم.

وعن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» متفق عليه.

وأخرج ابن عبد البر في جامعه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يتعلم العلم ولا يحدث به كمثل الذي يكتنز الكنز ولا ينفق منه»، وأخرج أيضاً عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «من الصدقة أن يتعلم الرجل العلم فيعمل به ثم يعلمه».

وعن ابن القاسم قال: كنا إذا ودعنا مالكاً - رحمه الله - يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه. وقال جعفر بن برقان: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد فَمُر أهل الفقه والعلم من عندك فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم ومساجدهم والسلام.

وفيما كتبه بعض الحكماء إلى أخ له قال: يا أخي اعلم أن إخفاء العلم هلكة، وإخفاء العمل نجاة، وقال سفيان بن عُيَيْنَة في قوله تعالى «وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ» قال: معلماً للخير.

فهذا الكم الهائل من الآثار والنصوص قطرة من بحر فضائل الدعوة إلى الله تعالى والجهد لإعلاء كلمة الله ونشر العلم وفتح أبواب الهداية للعالمين، وليس أدلّ على ذلك أيضاً من حركة الصحابة في الأرض للدلالة على الحق والخير وهم كانوا أعلم هذه الأمة بمقاصد الشريعة ومُراد الشارع ومرامى النصوص والأحكام، وكما قال مالك -رحمه الله: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فعلى المتعلم أن يصحح نيته فى طلب العلم حتى لا يلبس الشيطان عليه الحق بالباطل، فتلتوى به نيته وينحرف به مقصده عما يُراد بهذا العلم الذى يزين به قلبه وصدره، فليس المراد هو حشو الرأس بالمعلومات، ولا تعلم العلم للثقافة المجردة أو المعرفة العقيمة التى لا تثمر صفاتٍ ولا أحوالاً طيبة، فهذه نيات فاسدة فى طلب العلم على الصادق أن يتجرد منها ويصحح قصده من الآن قبل أن يعبث الشيطان به فيدمره ويهلكه بهذا العلم.

* * *

فصـــل

أقســام العلــم

العلم بحر واسع لا نهاية له، وعلوم البشر جميعاً ما هى إلا قطرة من فيض علم ربى الذى وسع كل شيءٍ رحمةً وعلماً «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً».

وإذا كان العلم معناه هو كل ما جاءنا عن الله وعن رسوله ﷺ وهو العلم الإلهى القطعى الذى يزداد به الإيمان وتصح به العقيدة والمعاملة والمعاشرة والعبادة والأخلاق فإنه ينقسم من جهة الوجوب إلى: فرض عين، وفرض كفاية. ومن جهة الأحكام الشرعية إلى: علم مسائل وعلم فضائل. ومن جهة الترتيب فى الأهمية والدرجة فإن ابن تيمية له تقسيم آخر حيث يقول: العلوم خمسة: علم فرض وذلك علم التوحيد، وعلم زاد وذلك علم الفضائل، وعلم دواء وذلك علم المسائل، وعلم مباح وذلك كمهن الدنيا وعلومها التى بها قوامها، وعلم حرام كالسحر ونحوه(١).

إذن هناك ثلاثة تقسيمات يحسن بنا الوقوف عليها إجمالاً وبتفصيل وجيز:

* التقسيم الأول: من جهة الوجوب:

١ - فرض العين:

قال ابن عبد البر: العلم الذى هو فرض عين يتعين على كل امرئ معرفته فى خاصته بنفسه. وهنا لا يصح أن ينوب أحد عن أحد، بل يلزم كل مكلف أن يعرفه ولا يسقط عنه بقيام الآخرين به.

---

(١) بتصرف يسير.

وقال الغزالي - رحمه الله -: معناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذى هو فرض عين.

أخرج ابن عبد البر فى جامعه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ثم ذكر عن إسحاق بن راهوية قوله: طلب العلم واجب، ولم يصح فيه الخبر، إلا أن معناه أنه يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه من وضوئه وصلاته وزكاته إن كان له مال وكذلك الحج وغيره، قال: وما وجب عليه من ذلك لم يستأذن أبويه فى الخروج إليه، وما كان فضيلة لم يخرج إليه حتى يستأذن أبويه. قال ابن عبد البر تعليقاً: يريد إسحاق - والله أعلم - أن الحديث فى وجوب طلب العلم فى إسناده مقال لأهل العلم بالنقل ولكن معناه صحيح عندهم.

وعن ابن وهب قال: سُئل مالك عن طلب العلم أهو فريضة على الناس؟ فقال: لا، ولكن يُطلَبُ من المرء ما ينتفع به فى دينه. وعن الحسن بن الربيع قال: سألت ابن المبارك قلت: قول النبى ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» قال: ليس هو الذى يطلبونه ولكن فريضة على من وقع فى شىء من أمر دينه أن يسأل عنه حتى يعلمه.

فمثال العلم الذى تعلمه فرض عين ويلزم الجميع معرفته ولا يغنى فيه علم أحد عن أحد وهذا نحو شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله وذلك شهادة باللسان وإقراراً بالقلب بأن الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأن البعث بعد الموت حق للمجازاة بالأعمال وأن القرآن حق وهو كلام الله ويجب الإيمان بجميعه والعمل به وأن الصلوات الخمس فرض ويلزمه من علمها علم ما لا تتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها، وأن صوم رمضان فرض ويلزمه علم ما يفسد صومه وما لا يتم إلا به، وإن كان ذا مال وقدرة على الحج لزمه فرضاً أن يعرف ما تجب فيه الزكاة ومتى تجب وفى كم تجب ويلزمه أن يعلم بأن الحج عليه فرض مرة واحدة فى

دهره إن استطاع إليه سبيلاً، وما كان مثل هذا مما قد نطق به الكتاب وأجمعت عليه الأمة من اعتقاد وفعل مأمور به وترك منهيٍّ عنه.

٢ - فرض الكفاية:

وهو الذى إذا قام به البعض سقط الفرض عن جميع الباقين، وإن تركوه جميعاً أثموا وأصبحوا مؤاخذين من الله وذلك كالخروج للجهاد - إلا إذا أغار العدو على أهل بلدة فيلزم خروج الجميع ولا يغنى هنا أحد عن أحد- وكصلاة الجنازة وغسل الميت ورد السلام إذا قام به واحد أجزأ عن الباقين.

وقد ذكر ابن المبارك عن المبارك بن فضالة عن الحسن البصرى قال: ست إذا أداها قوم كانت موضوعة عن العامة، وإذا اجتمعت العامة على تركها كانوا آثمين: الجهاد فى سبيل الله يعنى سد الثغور، والضرب فى العدو، وغسل الميت وتكفينه، والصلاة عليه، والفتيا بين الناس، وحضور الخطبة يوم الجمعة ليس لهم أن يتركوا الإمام ليس عنده من يخطب عليه، والصلاة فى جماعة، قال الحسن: وإذا جاءهم العدو فى مصرهم فعليهم أن يقاتلوا - يعنى أجمعين، قال ابن المبارك: وبهذا كله أقول، وقد جاء عن أبى الدرداء ما يعضد قول الحسن حيث قال: لولا أن الله يدفع بمن يحضر المساجد عمن لا يحضروها، وبالغزاة عمن لا يغزو لجاءهم العذاب قبلاً.

وكذلك العلوم الدنيوية التى لا يستغنى عنها عامة المسلمين فهى من الفروض الكفائية التى لو قام بها البعض لسقط بذلك الفرض عن جميع المسلمين، ولو لم يقم به أحد لأثم المسلمون جميعاً.

* التقسيم الثانى: من جهة الأحكام الشرعية:

١ - علم المسائل:

وهو علم يختص ببيان تفاصيل الأحكام الشرعية الفقهية العملية وبيان ما يتعلق بها من الحلّ والحرمة والإباحة والندب والكراهة، فإن أحكام

الشريعة كلها تدور حول هذه الخمس: الواجب أو الفرض، والمندوب، والمباح، والمكروه، والحرام، ولا يجب أن يخوض في هذا الميدان إلا العلماء الفقهاء الذين لهم دراية ببيان هذه التفاصيل واستنباط الأحكام وأدلتها من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.

وهذا الشأن لا ميدان للعوام فيه بل هو مختص فقط بالعلماء ولذلك يوجهنا الله تعالى إلى الذهاب إلى العلماء وسؤالهم عما لا نعلمه من أمر ديننا، فيقول تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ [النساء: ٨٣]، وقال كثير من العلماء: إن أولى الأمر هنا هم العلماء والفقهاء البصيرون بأحكام الشرع والدين.

وعن ابن عباس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ أن عيسى عليه السلام قال: «إنما الأمور ثلاثة: أمر تبين لك رشده فاتبعه، وأمر تبين لك غَيُّه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فرده إلى عالم»(١).

٢ – علم الفضائل:

وهذا علم يختص ببيان فضائل الأعمال الصالحة كالصلاة والصدقة وإفشاء السلام وقيام الليل والذكر والدعاء وغيره، كما يدخل فيه الترغيب والترهيب وما يتعلق بهما، **وقد أجاز بعض العلماء رواية الأحاديث الضعيفة فى فضائل الأعمال ولكن بشروط ثلاثة فى هذا الحديث الضعيف وهى:**

١ – ألا يكون شديد الضعف.

٢ – أن يندرج تحت أصل صحيح يعضده ويقويه فيكون بمثابة شاهد له.

٣ – ألا يُعْتَقد عند العمل به ثبوته بيقين عن النبى ﷺ.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد لا بأس به. كذا فى الترغيب للمنذرى.

وكان الإمام أحمد - رحمه الله - يأخذ بالحديث الضعيف في بعض مسائل الأعمال ويفضله على الرأى إذا لم يجد في هذا الباب غيره، وبعض العلماء لم يجز رواية الحديث الضعيف أو الأخذ به في فضائل الأعمال ولا في غيرها.

*** التقسيم الثالث: من جهة الأهمية فى المرتبة:**

١ - علم فرض:

وهو علم التوحيد، حيث ينبغى على كل مسلم مكلف الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له ولا شِبْه له ولا مثل له لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، خالق كل شيء وإليه مرجع كل شيء المحيى المميت الحى الذى لا يموت، له وحده حق التشريع لعباده وحق التحليل والتحريم والأمر والنهى، وكذلك الشهادة بأن محمداً عبده ورسوله ﷺ وخاتم أنبيائه وأن البعث بعد الموت حق وبعد الموت بعث وحشر وحساب وجنة لمن أطاع ونار لمن عصى إلى آخر ذلك من فروض العين الواجبة على كل مسلم موحد لله.

٢ - علم زاد:

وهو الفضائل المختص ببيان فضائل الأعمال وبيان منافعها وفوائدها والترغيب فيها والترهيب من تركها والتهاون عنها، وسمى هذا العلم زاداً لاحتياج المسلم إليه يومياً كالطعام والشراب للبدن، فهو زاد القلب اليومى الذى لا غناء عنه البتة.

٣ - علم دواء:

وهو علم المسائل الشرعية والأحكام الفقهية وهذا يختص العلماء والفقهاء وحدهم بتفصيله وشرحه وبيانه، حيث لا ينبغى لأى أحد من عوام المسلمين أن يخوض فى الأحكام المتعلقة بالحلال والحرام فهذا يحتاج إلى

علم ودراية وسعة اطلاع لا تتوفر إلا للعلماء الذين لهم قدرة على الفتوى والبيان .

وسمى هذا العلم دواءً لأنه لا يُستعمل فى كل وقت وحين وإنما هو كالدواء يُحتاج إليه وقت العلة وبوصف الطبيب ويُستعمل بقدر الحاجة، فالناس لا يتزوج الواحد منهم كل يوم ولا يطلق كل يوم وربما يموت أحدهم ولا زكاة عليه حيث لم يبلغ ماله النصاب وربما يموت ولا يحتاج لمعرفة المواريث فربما لا يتعرض لمثل هذا فى حياته كلها، ولذلك إذا جَدَّت فى حياة المسلم مسألة فقهية كهذه فعليه أن يبادر بالسؤال عنها أهل الاختصاص من العلماء ولا يرضى بجهله ولا يستفتى أحداً من العوام الذين لا فقه ولا دراية لهم ولكن كما قال الإمام مالك – رحمه الله – أن يسأل عما ينفعه فى أمر دينه .

وأما علم الفضائل فالحاجة إليه يومياً لا وقتياً ولذلك فهو كالزاد – أى الطعام اليومى الذى لا يستغنى عنه الطبيب ولا المريض أو الذكر والأنثى أو الصغير والكبير أو الغنى والفقير، فهو حاجة ضرورية يومية للقلب لا ينبغى تركها أو إهمالها، بينما علوم المسائل كالدواء يحتاج الناس إليها عند الضرورة والحاجة ولا ينبغى أن يتبرع أىّ أحد من تلقاء نفسه ويتجرأ على الخوض فيها بلا علم ولا بصيرة . روى أن رجلاً صاد صيداً فوقع فى أرض غيره، فاختلفوا فى هذا الصيد : أهو من حق الصائد أم من حق صاحب الأرض الذى وقع فيه الصيد ؟ فذهبوا بهذه المسألة إلى عبد الله بن المبارك – رحمه الله – فقال : أما هذه فأشكلت علىَّ ولا أدرى ما يقال فيها !! فهذا الورع الشديد جعل إماماً كابن المبارك لا يسارع بالفتوى بل وقف عند حدوده وقال : لا أدرى ومن قال لا إدرى فقد أفتى كما ذكر أبو حنيفة – رحمه الله .

٤ - علم مباح:

وذلك مثل مهن الدنيا التى تقوم على العلوم المادية كالطب والهندسة والحساب ونحو ذلك، فهذا كله علم مباح، ويعظم فيه الأجر إذا صَحَّت النية، فكان المتعلم ينوى به خدمة المسلمين والتيسير عليهم وبذله لهم وتقديم العون والنصيحة إليهم فمن هنا يُؤْجر على علمه هذا ويصبح تعلمه هذا طاعة يُثاب عليها.

٥ - علم حرام:

وهذا كالسحر ونحوه، لأنه ذكر فى القرآن عند قوله تعالى: ﴿ **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وعلم السحر كله حرام، والساحر يُقتل لأن السحر من الكبائر السبع الموبقات التى جاء الحديث بذكرها.

فهذه أقسام العلم المختلفة وعلى طالب العلم أن ينظر فى هذه المراتب حتى يبدأ بالفرض قبل النفل، ويقدم الأهم على المهم، ويرتقى فى سُلَّم العلم بطريق صحيح حتى يصل إلى أعلى درجات الفضل والخير.

* * *

فصـــل

آداب المتعلــــم

حتى يؤتى العلم ثماره فى المتعلم، فلا بد له أن يتحلى بآداب طالب العلم التى تحفظه من مداخل الشيطان، وتفتح له أبواب العطاء الغيبية، وتديم عليه بركة العلم ونوره، وتدله على النور الذى بين السطور.

وهذه الآداب كثيرة ولكننا نضع أيدينا على أهمها، ومن هذه الآداب:

أولاً: صحة النية:

ينبغى أن تتجرد نية المتعلم لله وحده، فلا يبغى بعلمه هذا مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً، ولا يسعى به إلى ذيوع صيته وانتشار سمعته وشهرته ولا يطلب به حب الثناء والمحمدة من الناس، بل ينبغى أن يتعلمه امتثالاً لأمر الله بطلب العلم ثم العمل به حتى يُؤجر ثم الدعوة إليه حتى ينتشر وينتفع به الخلق، ثم احتساب الأجرعلى سعيه فى طلب العلم وتعليمه من لا يعلمه.

وإذا كانت صحة النية شرط فى صحة الأعمال وقبولها، فإنها فى طلب العلم أولى وأوجب لأن العلم هو السلاح الفَتَّاك الذى يدمر الشيطان ويهدم عروشه ولذلك فليس هناك بين العُبَّاد وبين الشيطان عداوة إنما العداوة مع الدعاة والعلماء لأنهم أعلم الخلق بمداخله ومصائده وحيله ومكائده. قال الحسن: والله ما طلب هذا العلم أحد إلا كان حظه منه ما أراد به. وعن بقية عن إبراهيم بن أدهم ومحمد بن عجلان قالا: مامن شيء أشد على الشيطان من عالم حليم إن تكلم تكلم بعلم وإن سكت سكت بحلم يقول الشيطان انظروا إليه، كلامه أشد عليَّ من سكوته.

ثانياً: طهارة القلب وتزكية النفس:

لا بد من التخلية قبل التحلية، والإناء النجس والوعاء غير الطاهر لا يصلح محلاً لاستقبال أىّ شيءٍ طاهرٍ يوضع فيه، فإذا طهر الوعاء أصبح محلاً للعطاء، ويقول أبو حامد الغزالى رحمه الله: العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى، وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف.

فالعلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصٍ، والذنوب تطفئ نور العلم وتُذهب أثره من القلب، وعلى طالب العلم أن يهتم بنظافة باطنه كما يهتم بنظافة ظاهره، فالقلوب المشغولة بغير الله أو المزحومة بالصفات الرديئة لا تهبط عليها من رحمة العلوم النافعة شيء، ولذلك قال ابن مسعود: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف فى القلب. وقال أيضاً: إنى لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنب يعمله. وقال إبراهيم التيمى: من طلب العلم لله عز وجل آتاه الله منه ما يكفيه. وقال الحسن: عقوبة العالم موت القلب، قيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة. وقال أيضاً: من أفرط فى حب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه، ومن ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزدد من الله إلا بغضاً ولم يزدد من الدنيا إلا بعداً. وقال جعفر بن محمد: إذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب.

ثالثاً: ترك العوائق والشواغل:

ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه، ومن أراد حصول العلم النافع فيلزمه فراغ النفس من شواغلها حتى يصفو فكره لما هو مقبل عليه، ولا يَتشوش عليه عقله فيما يجب أن يجول فيه، فإن شتات الفكر وتشويش

العقل مطردة للعلم ومذهبة للفهم.

ولذلك قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك. وقال الغزالى: الفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشَّفَت الأرض بعضه، واختطف الهواء بعضه، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع -أى الأرض التى ينبغى زراعتها-.

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله. وقيل له مرة أخرى مثل ذلك فقال: لعل الكلمة التى ينفعنى الله بها لم أسمعها بعد ذلك.

وأخرج ابن عبد البر عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: إن الناس يقولون أن أكثر أبو هريرة(١)، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم تلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وإن إخواننا المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر مالا يحضرون. قال أبو عمر: فى هذا الحديث من الفقه معان: منها أن الحديث عن رسول الله ﷺ حكمه حكم كتاب الله المنزل، ومنها إظهار العلم ونشره وتعليمه، ومنها ملازمة العلماء والرضا باليسير للرغبة -فى طلب العلم-، ومنها الإيثار للعلم على الاشتغال بالدنيا وبكسبها.

وكان مالك - رحمه الله - يقول: إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر فى طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته فى طلب العلم وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر.

---

(١) أى كان كثير الرواية لحديث النبى ﷺ.

وقال الشافعي – رحمه الله –: كنت يتيماً في حجر أمي فدفعتني في الكُتَّاب ولم يكن عندها ما تعطى المعلم، فكان المعلم قد رضى منى أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشترى به قراطيس(١) فكنت إذا رأيت عظماً يلوح آخذه فأكتب فيه فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديماً، قال: ثم قدم والٍ على اليمن فكلمه لِّي بعض القرشيين أن أصحبه ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتحمَّل به، فرهنت رداءها بستة عشر ديناراً فأعطتني فَتَّجَمَّلْتُ بها معه، فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل فحُمدت فيه(٢) فزادني عملاً فحمدت فيه، فزادني عملاً فحمدت فيه....

فهذه الآثار كلها من الأدلة القاطعة على ضرورة التفرغ لطلب العلم وتحصيل بركته.

رابعاً: التواضع لمن يتعلم منه:

لا ينال المتعلم من معلمه خيراً إلا إذا تواضع له وانكسرت نفسه بين يديه، فمن تكبر على معلمه لا ينال منه خيراً أبداً، ويعيش ويموت بجهله لا يستضيء بنور العلم ولا يهتدى بهداه.

قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه: تعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم.

وأخرج أبو يعلى عن جميلة أم ولد أنس بن مالك – رضي الله عنه – قالت: كان ثابت إذا أتى أنساً قال: يا جارية هاتي له طيباً أمسح يدى فإن ابن أم ثابت لا يرضى حتى يقبل يدى.

---

(١) أي ورق للكتابة.

(٢) أي وفقت في القيام به.

وقال الحسن بن على لابنه: يا بنى إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك، وقال الشعبى - رحمه الله: جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم.

وقال ابن طاوس عن أبيه قال: من السُّنة أن يُوقر العالم.

قال ابن عبد البر: وكان الحسن لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له، وكان خواص أصحابه يجتمعون ويطلب بعضهم إلى بعض أن يسألوه عن المسألة فإذا حضروا مجلسه لم يجسروا على سؤاله حتى ربما مكثوا على ذلك سنة كاملة هيبة له.

ويقال: أربعة لا يأنف منهن الشريف: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على فرسه وإن كان له عبيد، وخدمته العالم ليأخذ من علمه.

وقال ابن عباس - رضى الله عنه: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ فلو أشاء أن أرسل إليه حتى يجيئنى فيحدثنى فعلت، ولكن كنت أذهب إليه فأقيل على بابه حتى يخرج إلىّ فيحدثنى. وقال سعيد بن المسيب: إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد.

وقال ابن أبى غسان: لا تزال عالماً ما كنت متعلماً فإذا استغنيت كنت جاهلاً.

وقال ابن جُرَيْج: لم أستخرج الذى استخرجت من عطاء -أى من علمه- إلا برفقى به.

وقال الشعبى: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها،

فجاء ابن عباس - رضى الله عنه - فأخذ بركابه، فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ.

وهذا كله يدل على أن العلم لا ينال إلا بالتواضع وإلقاء السمع، ليستقبل من معلمه ما يصلحه وينفعه، ويكون معه كما كان موسى عليه السلام مع العبد الصالح صابراً محتسباً متواضعاً، فالعلم هو سبب السعادة والنجاة، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها، والعالم كالطبيب الحاذق البصير الذى يعلم الداء وما يصلحه من دواء، والمتعلم كالمريض بين يديه، فعليه أن يأخذ ما يدله عليه من دواء حتى يكتب الله له النجاة والشفاء.

خامساً: الجد والوقار وترك الهزل:

ينبغى لطالب العلم أن يحفظ أدبه وسلوكه وخلقه لأن قلبه صار وعاءً للعلم النافع وهو جوهر ثمين ومعدن نفيس، فلا يعبث ولا يهزل ولا يخوض مع السفهاء فى كل ميدان، وقد تقدم قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: تعلّموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة.

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذ ا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون(١)، وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حكيماً حليمًا عليماً سكيتاً(٢)، ولا ينبغى لحامل القران أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صخاباً ولا صيَّاحًا ولا حديداً(٣).

---

(١) يتبخترون ويتكبرون.

(٢) طويل السكوت.

(٣) أى شديداً غليظاً.

وقال الحسن: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يُرى ذلك فى تخشعه وبصره ولسانه ويده وصلاته وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها لو كانت له فجعلها فى الآخرة.

وكان الليث بن سعد يقول لأصحاب الحديث: تعلموا الحلم قبل العلم. وقال ابن وهب: ما تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه. وقال أبو الدرداء: من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهل العلم.

سادساً: ترك المماراة والجدال:

المماراة فى الحق مبغوضة وهى تفتح باب الشيطان ليلقى العداوة والبغضاء فى القلوب، وطالب العلم عليه ألا يجادل ولا يمارى فى أمر دينه مع معلمه ولا مع من يتعلمون معه من أقرانه، فإن الجدال يطفئ نور العلم ويوغر الصدور ويحرم المتعلم من علم معلمه وشيخه.

قال ميمون بن مهران: لا تمار عالماً ولا جاهلاً، فإنك إذا ماريت عالماً خزن عنك علمه، وإن ماريت جاهلاً خشن صدرك -أى أوغر صدرك-. وقال أيضاً: لا تمار من هو أعلم منك، فإذا فعلت ذلك خزن عنك علمه ولم تضره شيئاً.

وقال الزهرى: كان سلمة يمارى ابن عباس فحُرِم بذلك علماً كثيراً. وكان أبو سلمة يقول: لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علماً كثيراً.

وقال بعض أهل الحكمة: إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

وقال الخليل بن أحمد: أيامى أربعة: يوم أخرج فالقى فيه من هو أعلم منى فأتعلم منه فذلك يوم فائدتى وغنيمتى. ويوم أخرج فالقى فيه من أنا أعلم منه فذلك يوم أجرى. ويوم أخرج فالقى فيه من هو مثلى فأذاكره

فذلك يوم درسي، ويوم أخرج فألقى فيه من هو دوني وهو يرى أنه فوقي فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي.

سابعاً: مراعاة مراتب العلوم:

إذا كان العلم بحراً واسعًا لا نهاية له والعمر أيامه معدودة وعددها محصور، فينبغي للمتعلم أن ينظر في مراتب العلوم حتى لا يضيع فريضة على حساب نافلة أو يقدم علماً فرعياً على علم أصلي، وهذا يحتاج منه إلى مراجعة مستمرة مع معلمه وشيخه حتى يدله على الأهم فالمهم، ومما قاله عيسى – عليه السلام –: «ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع».

والمتعلم عليه أن يتعلم ما تصح به حياته من هذه الشُعَب الخمس وهي: العقيدة، ثم العبادة، ثم المعاشرة، ثم المعاملة، ثم الأخلاق. فينظر في العلوم النافعة التي تصح بها عقيدته وعبادته ومعاشرته ومعاملته وأخلاقه، والمرجع الذي يؤول إليه في علمه هذا هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وحياة أصحابه الذين شهد الله لهم بالرضوان فهذه هي الأصول التي لا ينحرف معها فهم ولا يَضل معها سلوك ولا يكون معها حيرة أوضياع.

وهناك وصية جامعة للإمام علي – رضي الله عنه – ينصح بها المتعلم طالب العلم، أخرج ابن عبد البر في جامعه عن عليّ – رضي الله عنه – قال: إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، وأن لا تلح عليه إذا عرض، ولا تأخذ بثوبه إذا كسل، ولا تشير إليه بيدك، وأن لا تغمزه بعينك، وأن لا تسأل في مجلسه، وأن لا تطلب زلته، وإن زَلَّ تأنيت أوبته وقبلت فيئته[1]، وأن لا تقول قال فلان خلاف قولك، وأن لا تفشي له سراً وأن لا تغتاب عنده أحداً، وأن تحفظه شاهداً وغائباً وأن تعم القوم بالسلام وأن تخصه بالتحية، وأن تجلس بين يديه، وإن كانت له حاجة

(١) أي رجوعه إلى الحق والصواب.

سبقت القوم إلى خدمته، وأن لا تمل من طول صحبته، إنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها منفعة، وإن العالم بمنزلة الصائم المجاهد فى سبيل الله، فإذا مات العالم انثلمت فى الإسلام ثلمة لا تُسد إلى يوم القيامة، وطالب العلم يشيعه سبعون ألفاً من مقربى السماء.

وطالب العلم قد وفقه الله لأشرف سبيل وأنبل غاية، فعليه أن يحفظ هذه النعمة بدوام شكرها والثناء على صاحبها والاعتراف بالجميل لمن علَّمه وأخذ بيده، ولذلك روى أحمد عن عبادة بن الصامت – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من أمتى من لم يُجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا» أى حقه وقدره وفضله. وأخرج الطبرانى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه». وروى أيضاً عن أبى أمامة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ أنه قال: «ثالث لا يستخف بهم إلامنافق: ذو الشيبة فى الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط».

وكلما تحلى المتعلم بصفات الحلم والوقار والتواضع وصحة النية والصدق فى الطلب، فتح الله له خزائن الغيب وألهمه من العلوم النافعة ما لا يراه فى كتاب وما لم يسمعه من عالم فقيه، فمن عمل بما علم وَرَّثه الله علم ما لم يعلم.

* * *

فصـل

حقوق العلم على العالم والمتعلم

كما أن العلم شرف عظيم يرفع أهله إلى الدرجات العلى، فإن له كذلك حقوقاً واجبة على كل من يقوم به ويسلك السبل لتحصيله أو تعليمه.

قال الفضيل بن عياض: أول العلم الإنصات ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر[1].

وقال ابن المبارك: أول العلم النية ثم الاستماع ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر.

وقال سفيان: أول العلم الاستماع ثم الإنصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر.

وهكذا فقد تواطأت أقوال العلماء على أربعة حقوق هامة ينبغي للعلماء والمتعلمين على السواء مراعاتها وحفظها والقيام بها. وهذه الحقوق هي:

١ - الاستماع إلى العلم وحسن الإنصات له.

٢ - حفظه في القلوب والأفئدة.

٣ - العمل به لحصول الأجر والثواب.

٤ - الدعوة إليه لينتشر في الأمة وينتفع به الخلق.

وهناك من الأحاديث ما يشير إلى هذه الحقوق الأربع ابتداءً من الترغيب في طلب العلم واستماعه ثم حفظه ووعيه في القلوب ثم العمل به ثم دلالة الناس عليه، ومنها:

---

(١) أي الدعوة إلى الله به لينشر.

ما أخرجه أحمد وابن ماجه والطبرانى عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّر الله عبداً سمع مقالتى فحفظها ووعاها وبَلَّغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

وأخرج ابن عبد البر فى جامعه عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتى علىَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربنى من الله عزو جل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم».

وعنده أيضاً عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول لله ﷺ: «ما أهدى المرء لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى أو يرده بها عن ردى».

وأخرج الطبرانى عن سمرة بن جندب – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله >: «ما تصدق الناس بصدقة مثل علم ينشر» كذا فى الترغيب. وأخرج أيضاً عن ابن عباس – رضى الله عنه – عن النبىّ ﷺ قال: «نعم العطية كلمة حق تسمعها، ثم تحملها إلى أخ لك مسلم فتعلمها إياه» وقال المنذرى: يشبه أن يكون موقوفاً.

وروى أحمد والبزار والطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أربعة تجرى عليهم أجورهم بعد الموت: رجل مات مرابطاً فى سبيل الله، ورجل عَلَّم علماً فأجره يجرى عليه ما عُمل به، ورجل أجرى صدقة فأجرها له ما جَرَت، ورجل ترك ولداً صالحاً يدعو له». والآثار الصحيحة فى هذا الميدان كثيرة، والمتعلم البصير عليه ألا يفوته القيام بحقوق العلم عليه حتى لا يُسأل عن واحد منها يوم القيامة إلا وقد قام به حق القيام ولم يفرط فيه ولم يضيعه أو يجعله محل السهو والنسيان.

* * *

فصــل

كيف تحصل المرأة على العلم؟

إذا كان العلم ضرورة شرعية لحياة المسلم لا تصح عقيدته ولا عبادته ولا معاشراته ولا معاملاته ولا أخلاقه إلا بها، فقد وجب عليه بذل الجهد لتحصيله والسعى للتزود به، فهو حياة القلوب والأرواح، كما أن الغذاء طعام الأجساد، وكلاهما ضرورة للحياة لا غناء للمرء عن أحدهما.

وإذا كان طلب العلم واجبًا على كل مسلم ومسلمة، وميادين التحصيل للرجال كثيرة متعددة، فهذه المرأة التى جعل الشارع قرارها فى البيت كيف تتحصل على هذا العلم النافع الضرورى لها، فهى مسئولة كالرجل تماماً، وهى مكلفة بجميع الأوامر والتكاليف الشرعية كالرجال، فكيف يتسنى لها أن تعرف دينها وتعلم ما يجب عليها فعله وما يجب عليها تركه؟؟

هناك وسائل يمكن للمرأة بها أن تتحصل على العلم الشرعى الضرورى النافع وأهمها:

١ - عن طريق محارمها الرجال :

فالرجل راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والمرأة أمانة فى عنق الرجل وسيُسأل عنها، وكما أن لها حقوقاً مادية كالطعام والشراب والكسوة والسكن والنفقة فإن لها أيضاً حقوقاً إيمانية دينية وهى أن يعلمها الرجل المسئول عنها أمر دينها وشرع ربها.

والمرأة فى بيت أبويها مسئولة من أبيها وأخيها وفى بيت الزوجية مسئولة من زوجها وأبنائها، فالأب والأخ والزوج والابن من المحارم الرجال الذين يقع عليهم عبء الأمانة الأكبر فى إيصال العلم إلى قلب المرأة المسئولين عنها.

ولا ينفي هذا أن تستعين بعمها أو خالها أو جدها أيضاً فهم بمنزلة المحرم وإن كانت مسئوليتهم في هذا الشأن أقل.

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته». وروى ابن حبان في صحيحه عن أنس –رضى الله عنه– عن النبى › قال: «إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه حفظ أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته».

وعن أبى سعيد الخدرى –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان، أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة» رواه الترمذى وأبو داود إلا أنه زاد قوله «فأدبهن، وأحسن إليهن، وزوجهن فله الجنة».

وأخرج الحاكم عن عليّ –رضى اله عنه– في قوله تعالى: ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾ قال: «علموا أهليكم الخير».

وأخرج البخارى عن مالك بن الحويرث– رضى الله عنه – قال: أتينا النبى ﷺ ونحن شببة[١] متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنَّا اشتهينا أهلينا فسألنا عمن تركنا فى أهلينا، فأخبرناه .. وكان رفيقاً رحيماً– فقال: ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتمونى أصلى، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم.

وكان من عادة الصحابة بعد سماعهم الوحى من النبى ﷺ فى المسجد أن ينقلبوا إلى أهليهم فيعلمونهم ما سمعوه من آيات ربهم، وكانت النسوة أحيانًا ما تبادر وتسأل: هل نزل اليوم من الوحى شيء؟؟ وقد تجلى هذا واضحاً عندما نزلت آيات الحجاب بالليل وانقلب الرجال إلى أهليهم وأخبروهن بأمر الله فيه وتلوا عليهن ما أنزله سبحانه من آيات توجب على المرأة المسلمة الحجاب الشرعى، فما كان من النساء المؤمنات إلا المبادرة

(١) جمع شاب.

والسمع والطاعة حتى جئن فى صلاة الفجر متلفحات بمروطهن رؤوسهن كرؤوس الغربان خلف النبى ﷺ فى المسجد، ليشهدوا صلاة الفجر مع عامة المسلمين.

٢ - حضور مجالس العلم:

عن عائشة - رضى الله - عنها قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن عن الدين ويتفقهن فيه. وقال ابن شهاب: العلم خزائن ومفاتيحها السؤال.

وأخرج اين عبد البر عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ مَرَّ بمجلسين فى مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، فقال رسول الله ﷺ كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من الآخر صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلماً ثم أقبل فجلس معهم».

وقال ابن مسعود: نعم المجلس مجلس تُنشر فيه الحكمة وتُرجى فيه الرحمة.

وقال الحسن: إن الرجل ليتعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها.

وأخرج ابن عبد البر عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع». وقال أبو هريرة - رضى الله عنه: لأن أجلس ساعة فأفقه فى دينى أحبّ إلىّ من أن أحيى ليلة إلى الصباح.

وأخرج ابن عبد البر فى جامعه عن ابن سيرين قال: دخلت المسجد - والأسود بن سريع يقص وقد اجتمع أهل المسجد، وفى ناحية أخرى من

المسجد حلقة من أهل الفقه يتحدثون بالفقه ويتذاكرون - فركعت ما بين حلقة الذكر وحلقة الفقه، فلما فرغت من السبحة قلت: لو أني أتيت الأسود بن سريع فجلست إليه فعسى أن يصيبهم إجابة أو رحمة فتصيبني معهم، ثم قلت: لو أتيت الحلقة التي يتذاكرون فيها الفقه فتفقهت معهم لعلي أسمع كلمة لم أسمعها فأعمل بها، فلم أزل أحدث نفسي بذلك وأشاورها حتى جاوزتهم فلم أجلس إلى واحد منهم وانصرفت، فأتاني آت في المنام فقال: أنت الذي وقفت بين الحلقتين؟ قلت: نعم، قال: أما أنك لو أتيت الحلقة التي يتذاكرون فيها الفقه لوجدت جبريل معهم.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده».

وأخرج أيضاً عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومَنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة».

فهذه الآثار كلها تحض على حضور مجالس العلم والذكر والذهاب إلى العلماء ومزاحمتهم في حلق التعليم وحضور مجالسهم والاستفادة منهم، فمجلس علم واحد أفضل من عبادة ستين سنة.

٣ - التحصيل انفرادياً من الكتاب داخل البيت:

وهذ يكون بعد مشورة الزوج العالم بدينه أو مشورة عالم ناصح أمين، فليس كل ما كُتب يُمكن قراءته، وإنما على المرأة التمييز بين الغَثِّ والثمين، والغالي والرخيص، وهذا يكون بنصيحة من عالم بصير.

كما لا يجوز أن يكون الاعتماد على الكتاب وحده فى تحصيل علوم الدين، فكما يقولون: الكتاب شيخ مُضِلٌّ. وهذا معناه أنه لا ينبغى الاعتماد على الكتاب وحده فربما كانت فيه معلومة منسوخة قد انتهى العمل بها، أو كان فيه نص مطلق يحتاج إلى ما يقيده، أو شيء مجمل يحتاج إلى ما يفصله أو شيء مبهم يحتاج إلى ما يبينه ويشرحه، وهذا كله لا يكون إلا من بعد مشورة مع عالم حصيف أمين.

وسُئل البخارى -رحمه الله- عن دواء للحفظ فقال: إدمان النظر فى الكتب.

وقال عمرو بن العلاء: ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر فى دفتر -أى كتاب- وجليسه فارغ إلا حكمت عليه واعتقدت أنه أفضل منه عقلاً.

وأخرج ابن عبد البر عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منى إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فإنه كتب ولم أكتب. وعنده أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم: قلت: فى الرضا والغضب؟ قال: نعم فإنى لا أقول فى ذلك كله إلا حقاً.

وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «قيدوا العلم بالكتاب[1]» وأيضاً يُروى مثل هذا القول عن عمر بن الخطاب وابن عباس - رضى الله عنهم.

وقال خالد بن خداش البغدادى -وهو ثقة - ودعت مالك بن أنس فقلت: يا أبا عبد الله أوصنى؟ فقال: عليك بتقوى الله فى السر والعلانية والنصح لكل مسلم وكتابة العلم من عند أهله.

---

(١) أى بالكتابة.

وقال الحسن: إن لنا كتباً نتعاهدها. أى نحفظها ونعتنى بها ونعاود القراءة فيها.

وقيل لأحمد بن حنبل: لو لم يكتب العلم لذهب؟ قال: نعم ولولا كتابة العلم أى شيءٍ كنا نكون نحن.

وقال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين: كل من لم يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط.

وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرَّة وكان يقول: وددت لو أن عندى كتبى بأهلى ومالى.

فالكتاب هو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الغربة والجليس فى الوحشة، وهو الخليل النافع والناصح الرفيق ولا يُعدم الإنسان من النظر فيه خيراً.

٤ - سؤال العلماء بنفسها أو بغيرها:

وهذا الباب واسع للمرأة حتى تلج منه وتغرف من كنوز العلم الثمينة، ولا ينبغى أن يمنعها ولى أمرها من تحصيل العلم النافع والذهاب إلى العلماء والاستفادة منهم طالما أن ذلك كله يتم فى الحدود الشرعية التى رسمها الإسلام.

قالت عائشة -رضى الله عنها: نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين.

وأخرج ابن الحصين بإسناده إلى زيد بن خالد الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وَلْيَخْرُجْنَ تَفِلاَتٍ» أى غير متطيبات.

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما -: قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا استاذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها» وعن ابن عمر - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير

لهن»[١] والبيت خير للمرأة فى شأن صلاة الفريضة أما فى طلب العلم فلا، فلها أن تخرج طالبة للعلم والشرط هو خروجها بلباسها الشرعى غير متبرجة بزينة.

وقال ابن الجوزى - رحمه الله - تحت باب «وجوب طلب العلم على المرأة»: المرأة شخص مكلف كالرجل، فيجب عليها طلب علم الواجبات عليها لتكون من أدائها على يقين: فإن كان لها أب أو أخ أو زوج أو محرم يعلمها الفرائض ويعرفها كيف تؤدى الواجبات، كفاها ذلك، وإن لم يكن سألت وتعلمت فإن قدرت على امرأة تعلم ذلك تعرفت منها، وإلا تعلمت من الأشياخ وذوى الأسنان[٢] من غير خلوةٍ بها، وتقتصر على قدر اللازم، ومتى حدثت لها حادثة فى دينها سألت ولم تستح، فإن الله لا يستحى من الحق» انتهى.

وقال ابن شهاب: العلم خزانة مفتاحها السؤال.

وكانت أسماء بنت يزيد الأنصارية[٣] - رضى الله عنها - مُحَدِّثة فاضلة ومجاهدة جليلة، روت عن النبى ﷺ واحداً وثمانين حديثاً، وكانت من ذوات العقل والدين والخطابة حتى لقبوها بخطيبة النساء، وروى أنها أتت النبى ﷺ وهوفى أصحابه فقالت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، إن الله - عز وجل - بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقضى شهواتكم[٤] وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله - عز وجل - وإن الرجل منكم إذا

(١) هذه الأحاديث كلها رواها ابن الجوزى فى كتابه أحكام النساء ص ٣٠.
(٢) أى الشيبة كبار السن.
(٣) تقدم الحديث عنها.
(٤) أى موضع قضاء شهوتكم.

خرج حاجاً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم أفلا نشارككم فى هذا الأجر؟ فالتفت النبى ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم بمقالة امرأة قط أحسن من مسائلها فى أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا. فالتفت النبى ﷺ إليها فقال: افهمى أيتها المرأة وأعلمى من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله، فانصرفت وهى تهلل».

وتذكر كتب السيرة أيضاً ذهاب خَوْلَة بنت ثعلبة تشكو زوجها أوس بن الصامت إلى رسول الله ﷺ حينما قال لها زوجها: أنت علىَّ كظهر أمى، فلما ظاهر منها ذهبت لتشكو حالها وتسأل عن أمرها وتعرف وجه الشرع فى صلتها بزوجها بعد كلامه هذا، فانزل الله تعالى قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] وذكرت الآيات بعدها كفارة الظهار، وكان هذا كله بسبب ذهاب خولة بنت ثعلبة وسؤالها عن أمر دينها حتى قال زوجها أوس: لولا خولة لهلكت.

ومجالسة العلماء وسؤالهم تمحو عار الجهل وتذهب عمى البصيرة، ولذلك لا يحول بين العبد وبين العلم النافع إلا كبر أو حياء وكلاهما حجاب يحول بين العبد وبين نور العلم وبركته.

قال لقمان لابنه: يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء. يا بنى لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء وتمارى به السفهاء وترائى به فى المجالس، ولا تدع العلم زهداً فيه ورغبة فى الجهالة. يا بنى اختر المجالس على عينك، فإذا رأيت قوماً يذكرون الله فاجلس معهم فإنك إن تك عالمًا ينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يعلموك ولعل الله يطلع عليهم برحمة فتصيبك

معهم، وإذا رأيت قوماً لا يذكرون الله فلا تجلس معهم فإنك إن تك عالمًا لا ينفعك علمك، وإن تك جاهلاً يزيدوك غيًّا ولعل الله أن يطلع عليهم بعذاب فيصيبك معهم. يا بنى لا تجادل العلماء فتهون عليهم ويرفضوك، ولا تجادل السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك، ولكن اصبر نفسك لمن هو فوقك فى العلم، ولمن هو دونك، فإنما يلحق بالعلماء من صبر لهم ولزمهم واقتبس من علمهم فى رفق. يا بنى إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

فهذه الأبواب كلها مفتوحة أمام المرأة حتى تتحصل على نور العلم الذى يحيى قلبها بمعرفة الله، فما وصل نساء السلف الصالح إلى ما وصلن إليه من مراتب الخير والفضل إلا بنور العلم الذى أضاء لهن الطريق وبَصَّرهن بمنافع الأعمال وأجور الطاعات، وكشف لهن عن مداخل الشيطان ومكائده، وأخذ بأيديهن إلى بر الأمان والسلامة، والعلم نور ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور.

* * *

فصـل

ذم الجدال والمراء

الحق الذى جاءنا من عند الله حق واحد، ولا يختلف فى هذا الحق إلا من كان فى قلبه مرض أو آفة من شبهة أو شهوة، وصاحب القلب المريض يعشق الجدال ولا يرى مكانته بين الناس إلا بالمراء والخصام، ولذلك فالمؤمن لا يمارى حتى لو كان معه الحق، لأن الجدال يطفئ نور الحق، ويوغر الصدور، ويفتح الأبواب لدخول الشيطان، ويُضيع وقت الأعمال، وتتعرض به الأمة للهلاك والدمار وغضب الجبار.

وقد حذر النبى ﷺ أمته من شرور الجدال، وأمرهم بالبعد عن المراء والخصام، ودعا الأمة أن تلتقى على ماتعارفت عليه من الحق وأما ما كان غامضاً لا تهتدى العقول لتأويله فيكلوا علمه إلى الله وحده، ويؤمنوا به كما هو فهذا هو شأن الراسخين فى العلم، وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله.

*** الآثار فى ذم الجدال والمراء:**

أخرج أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى عن أبى أمامة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «من ترك المراء[1] وهو مبطل بنى له بيت فى رَبَضِ الجنة[2]، ومن تركه وهو مُحِقٌ بنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها».

وروى الطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة بن الأسقع وأنس بن مالك - رضى الله عنهم - قالوا: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً

(١) المراء هو الجدال الذى يؤدى إلى الخصومة والنقاش الذى يضيع معه الحق.

(٢) أى حولها.

ونحن نتمارى فى شىء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثم انتهرنا فقال: مهلاً يا أمة محمد إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فإن المؤمن لا يمارى، ذروا المراء فإن الممارى قد تمت خسارته، ذروا المراء فكفى إثماً أن لا تزال ممارياً، ذروا المراء فإن الممارى لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة فى رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإن أول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء».

وروى الترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضَلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ: ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلاً**﴾.

وروى الترمذى عن ابن عباس -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً».

وأخرج مسلم فى صحيحه والنسَّائى وأحمد وابن ماجه عن النبى ﷺ أنه قال: «ذرونى ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشىء فخذوا منه ما استطعتم».

وقال الهيثم بن جميل: قلت لمالك بن أنس: «يا أبا عبد الله الرجل يكون عالماً بالسنة أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة فإن قُبِلَتْ منه وإلا سكت».

وقال عبد الله بن حسن: «المراء يفسد الصداقة القديمة، ويحل العقدة الوثيقة، وأقل ما فيه أن تكون المغالبة، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة».

*** دوافع الجدال:**

إن حب الجدال والمراء له دوافع وبواعث وهى التى تُحرض صاحبها عليه

وتدفعه إليه، ومن أهم هذه العلل الباعثة على الجدال:

١ - حب الظهور:

فالذى يستعلى على الحق رغم ظهور الحجة وبيان الدليل فهو يبحث عن مكانة لنفسه بين الناس ثم لا يريد لهذه المكانة ألا تهتز أو تنقص، فهو بذلك ينتصر للرأى لا للحق، ويريد ثناء الناس عليه وإشارتهم إليه بالأصابع، وحب الظهور هو الذى يقصم الظهور.

٢ - الكِبْـر:

وبعض الناس يحول كبره واستعلاؤه عن قبول الحق والانقياد له، وهذا ما أشار إليه الحديث: «الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس» ومعنى بطر الحق: أى الاستعلاء عليه وعدم قبوله.

٣ - الكسل والفتور:

فالمجادل لا يقوى على الطاعة وليست لديه همة ولا إرادة تدفعه للخير والعمل الصالح فيجادل حتى يتفلت مما أمر به.

*** نتائج الجدال:**

ثمار الجدال كلها مُرَّة لا خير فيها، وليس مع الجدال غالب ومغلوب، ولا منتصر ومهزوم، بل المكاسب كلها من وراء الجدال لا يجنيها إلا الشيطان، ولذلك فطريق الجدال طريق مسدود لا يصل أصحابه إلى أية نتيجة، والعاقل لا يخطو فى طريق الجدل خطوة واحدة، فالعمر أغلى من أن يضيع فى جهد لا طائل من ورائه، فالجدل يأكل الحسنات ويفتح باب الفتن ولا تجنى الأمة منه إلا الهلاك والدمار ثم تسقط بعد ذلك من عين الله ولا تستحق منه نُصْرَةً ولا تأييداً.

ومن ثمار الجدال التى تبدو لذوى البصائر والعقول:

١ – ضياع الحق :

إذا تعالت الأصوات ودخل أهل الجدال فى مباراة عقلية ذهنية فهنا لن يصل أحد منهم إلى الحق لأن الهوى أصبح هو الحجاب الذى يحول بينهم وبين رؤية الصواب، ومن هنا يضرب الله عليهم عقوبة الحرمان ولا يرزقهم التوفيق والهداية إلى الحق أبداً.

٢ – فساد ذات البين ورفع الألفة :

فالذى يجادل بالحق لإظهاره فهذا يؤيده ربه ولا يبغضه إلا منافق لأن الله أمر المؤمنين بقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » وقال تعالى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » أما من جادل بالباطل إظهاراً لقيمة النفس وانتصاراً للذات فهنا ترتفع الألفة من القلوب وتتغير النفوس ويتعكر صفوها وتجف المشاعر من الحب والمودة.

٣ – فوات ثواب الأعمال :

فالوقت الذى يستهلكه الجدال لا يستطيع أحد أن يعوضه أبداً، ولو انشغل المجادل فى هذا الوقت بطاعة من الطاعات لوجد ثمرتها فى الدنيا والآخرة، ولذلك يحرص الشيطان أن يطيل أمد الجدال ووقت الخصومة حتى يشغل العباد عن المقصد العظيم وهو طاعة الله تعالى والقيام بأمره.

* * *

فصـل

الترهيب من ترك العمل بعد العلم

المقصود الأكبر والمراد الأعظم من جميع علوم الدين هو العمل بها وتطبيقها والقيام عليها ثم دعوة الناس إليها، فالدين ليس مادة للكلام ولكنه مادة للعمل، وكلما زاد علم المؤمن زاد حسابه عند ربه لأنه سيُسأل عن علمه هذا ماذا عمل فيه.

أخرج البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد -رضى الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه[١] فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه. قال وإنى سمعته يقول - يعنى النبى ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون».

وروى البيهقى وغيره عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه».

وأخرج ابن عدى والخطيب عن معاذ - رضى الله عنه - وابن عساكر عن أبى الدرداء - رضى الله عنه - مرفوعاً: تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن ينفعكم الله حتى تعملوا بما تعلمون».

---

(١) أمعاؤه.

وأخرج ابن عبد البر عن عليّ – رضى الله عنه – قال: يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف علمهم عملهم، يقعدون حلقاً فيباهى بعضهم بعضاً حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله – عز وجل».

وعن عبد الله بن عكيم قال: سمعت ابن مسعود فى هذا المسجد يبدأ باليمين قبل الكلام فقال: ما منكم من أحد إلا أن ربه تعالى سيخلو به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول: يا ابن آدم ما غَرَّك بى؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت.

وعن أيوب السختيانى قال: قال لى أبو قلابة: إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به».

وأخرج ابن عبد البر فى جامعه عن أبى الدرداء –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش(١) وقلوبهم كقلوب الذئاب وألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أَمَرُّ من الصبر، إياىَ يخادعون وبى يستهزئون، لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيرانَ».

* * *

(١) أى يلبسون ثياباً زهيدة من الصوف إظهاراً للزهد والتقشف.

فصـــل

سرطنة التَّشَيُّخ

إن خلية الكبر وحب الظهور، والولع بالشهرة وتصنع المشيخة والأستاذية أشبه بخلية السرطان التى إذا حَلَّت بالجسد أفسدت ما حولها وأفضت بالجسد كله فى النهاية إلى الموت. وليس هناك أضَرُّ على المتعلم والعالم إلا حب الظهور والرغبة فى المباهاة واصطناع المشيخة المزيفة والرغبة فى جذب أنظار الناس وأسر قلوبهم وعواطفهم.

وقد أفاض ابن رجب الحنبلى - رحمه الله - فى شرح حديث «ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(١) وقال تعليقاً عليه: من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرياسة على الخلق والتعاظم عليهم وأن ينقاد الخلق ويخضعون له ويصرفون وجوههم إليه وأن يُظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم ونحو ذلك، فهذا موعده النار لأن قصد التكبر على الخلق محرم فى نفسه فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان. انتهى.

وفى السنن عن النبى ﷺ قال: «من طلب العلم ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء أو يصرف وجوه الناس إليه أدخله الله النار» أخرجه أحمد والترمذى من حديث كعب بن مالك.

وقال الحسن: لا يكون حظ أحدكم من علمه أن يقال عالم.

---

(١) رواه أحمد والنسائى والترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث كعب بن مالك - رضى الله عنه.

وقال البراء: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة ما منهم رجل إلا وَدَّ أن أخاه كفاه. وعن مالك - رحمه الله - أنه كان إذا سُئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار، وقال بعض العلماء لبعض المُفتين: إذا سُئلتَ عن مسألة فلا يكن همُّك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك أولاً.

*** تواضع السلف:**

وهناك صور كثيرة من تواضع السلف وكرههم للظهور والشهرة، ومن هذه الصور ما ذكره ابن رجب فى رسالته عن رجل دخل على داود الطائى فسأله: ما جاء به؟ فقال: أحب أن أزورك، فقال: أما أنتَ فقد أحببت خيراً حيث زرت فى الله، ولكن انظر ماذا لقيتُ غداً إذا قيل لى: من أنت حتى تُزار؟ منَ الزُّهّاد أنت؟ لا والله. منَ العُبَّاد أنتَ؟ لا والله. من الصالحين أنت؟ لا والله. وعَدَّدَ خصال الخير على هذا الوجه فجعل يوبخ نفسه ويقول: يا داود كنت فى الشبيبة فاسقاً فلما شبت صرت مرائياً، والمرائى أشر من الفاسق.

وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يجالسنى. وكان إبراهيم النخعى إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ فى المصحف غَطَّاه. وكان أويس وغيره من الزُّهَّاد إذا عرفوا فى مكان ارتحلوا عنه. وكان كثير من السلف يكره أن يطلب منه الدعاء ويقول لمن يسأله الدعاء: أىُّ شئ أنا؟ وممن روى عنه ذلك عمر بن الخطاب وحذيفة -رضى الله عنهما- وكذلك مالك بن دينار.

وقال مُطَرِّق بن عبد الله: كفى بالنفس إطراء(١) أن تذمها على الملأ كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه.

---

(١) أى مدحاً وثناءً.

* **هيبة العالم الصادق من الله :**

دخل محمد بن سليمان أمير البصرة على حماد بن سلمة، وقعد بين يديه يسأله فقال له: يا أبا سلمة مالى كلما نظرت إليك ارتعدت فرقاً منك؟ قال: لأن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله خافه كل شيء وإن أراد أن يكثر به الكنوز خاف من كل شيء.

ومن هذا قول بعضهم: على قدر هيبتك لله يخافك الخلق، وعلى قدر محبتك لله يحبك الخلق، وعلى قدر اشتغالك بالله تشتغل الخلق بأشغالك.

وكان عمر - رضى الله عنه - يوماً يمشى ووراءه قوم من كبار المهاجرين فالتفت فرآهم فخروا على ركبهم هيبة له، فبكى عمر -رضى الله عنه- وقال: اللهم إنك تعلم أنى أخوف لك منهم فاغفر لى.

وكان الحسن لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له، وكان خَواص أصحابه يجتمعون ويطلب بعضهم إلى بعض أن يسألوه عن المسألة فإذا حضروا مجلسه لم يجسروا على سؤاله حتى ربما مكثوا على ذلك سنة كاملة هيبة له.

وكان يزيد العقيلى يقول: من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله عليه بوجهه وأقبل بقلوب العباد عليه، ومن عمل لغير الله صرف الله وجهه وصرف قلوب العباد عنه.

إن الكلام يقع فى قلوب الناس موقعه من قلب المتكلم به، فمن ملأ قلبه بتعظيم ربه وجلاله وخشيته ملأ الله قلوب العباد من هيبته واحترامه، فالهيبة رداء يُلْبِسُه الله من يخافه بالغيب ويخشاه فى السر والعلانية، وأما الجرىء على ربه الذى لا يبالى بنظره إليه فالله يلبسه رداء الذل والمهانة فيهون على الخلق وتخلو قلوبهم من حبه واحترامه.

إن حب الشرف والمكانة والرغبة فى الرياسة والشهرة من الداء الدفين داخل النفس المريضة ولا بد من اقتلاعه من جذوره وإلا تسرطن هذا الداء فأفسد جميع الأعمال. أخرج ابن عبد البر عن يزيد بن أبى حبيب قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الشهوة الخفية؟ فقال: «هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يُجلس إليه».

وقال الحسن: عقوبة العالم موت القلب، قيل له وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وهكذا الطالب الصادق يظل متعلماً مفتقراً إلى ما فى خزائن ربه من الحكمة والمعرفة، ويظل العالم عالماً طالما هو يطلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، وذلك أن العلم لا نهاية له، والعمر مهما طال فلا يتحصل الإنسان إلا على قطرة ضئيلة من بحره الواسع، فالمفتقر مطعوم والمستغنى محروم، وصدق الله تعالى حين قال: ﴿ وما أُوتيتُم مِّنَ العِلْمِ إلا قَليلاً ﴾.

* * *

ثانيــاً

الذكــر والنوافــل

القلب الموصول بالله لا يفتر عن ذكره طرفة عين، فالذكر هو حياة القلب وسبب بقائه، فإذا انقطع سبب المدد انقطعت معه الحياة فصار القلب ميتاً لا روح فيه.

وحضور القلب فى الذكر يثمر الأنس والحب، والمداومة على الذكر فى كل حال تغرس فى القلب محبة المذكور، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، والذكر على درجتين: أولاهما: انتقال الذكر من اللسان إلى القلب. وثانيتهما انتقال الذكر من القلب إلى اللسان، وذلك معناه تأثر القلب بعظمة المذكور والشغف بحبه والشوق إليه فيدفع هذا إلى حركة اللسان بذكره، فالدرجة الأولى هى درجة التكلف والمجاهدة والدرجة الثانية هى درجة التلذذ والمحبة.

ومما يوضح معنى هاتين الدرجتين قول بعض العلماء الصالحين: كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة.

وليس الذكر كما يظن كثير من الناس هو حركة اللسان فقط ولكنه تأثر كل خلية في الجسد وانفعال كل جارحة فيه بعظمة المذكور وجلاله وكبريائه، والذكر هو نور القلب الذى يحرق نار الشيطان، فإذا انطفأ هذا النور تنبه الشيطان فجاء وجلس وتمكن من القلب، وإذا استولى الشيطان على القلب ملأه بالوساوس والشكوك والفساد وهو بهذا قد تمكن فى الحقيقة من البدن كله، لأن القلب هو السلطان وأما الجوارح فهى جنوده وحشوده، ومن تمكن من الرأس فقد مَلَكَ الجسد كله ولا شك.

والغالب على نساء السلف الصالحات هو دوام الذكر بلا فتور ولا ملل آناء الليل وأطراف النهار حتى ما ضاعت منهن ساعة فى غفلة عن ذكره سبحانه، وذلك أن الذكر فيه لذة عظيمة وراحة هائلة فهو محبوب إلى النفس سهل على الجوارح ولذلك يُعد من أيسر التكاليف ورغم هذا فقد جعله الله من أثقل الأعمال التى توضع فى ميزان العبد وذلك رحمة منه وفضلاً.

وجميع الأعمال الصالحة جاء الآمر بها في أوقات محدودة وبقدر معين إلا الذكر فقد جاء الأمر به مطلقاً بلا قيود حيث قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، ولذلك لا يقوم أهل الجنة بأى تكليف أو عمل فى دار الكرامة إلا ذكر الله تعالى فإنهم يُلهمونه كما يُلهمون النَفَس وذلك لما للذكر من لذة وحلاوة عجيبة لا يعرف طعمها إلا من ذاقها وتلذذ بها.

والذكر يندرج تحته جميع أعمال الطاعة من تسبيح وتهليل وقراءة القرآن ونوافل وسنن وتعليم وتعلم وجهاد ودعوة وحسن خلق ومعاملة طيبة ومعاشرة صالحة، فالذكر بمعناه الشامل يسع جميع الأعمال الجالبة لمرضاة الله، والموصلة إلى رحمته وعفوه وكرمه.

* * *

فصـــل

فضيلة الذكر مطلقاً

والآيات والآثار لا حصر لها ونحن نقف على بعضها :

أولاً : الآيات :

قال تعالى : ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٥٢]، قال ثابت البنانى - رحمه الله : إنى أعلم متى يذكرنى ربى - عز وجل؟ ففزعوا منه وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال : إذا ذكرته ذكرنى .

وقال تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ** ﴾ [النساء : ١٠٣]، قال ابن عباس - رضى الله عنه : أى بالليل والنهار فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾ [العنكبوت : ٤٥]، قال ابن عباس - رضى الله عنه : **له وجهان :**

أحدهما : أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه .

والآخــر : أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه .

ثانياً : الأحاديث :

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » متفق عليه .

٢ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبق المُفَرِّدُون . قالوا : وما المفردون يا

رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». رواه مسلم.

٣ – وعن عبد الله بن بسر – رضى الله عنه – أن رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله» رواه الترمذى.

٤ – وعن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت» رواه البخارى.

٥ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدى إذا هو ذكرنى وتحركت بى شفتاه» رواه ابن ماجه وابن حيان فى صحيحه.

٦ – وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق(١)، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى. قال: ذكر الله» قال معاذ بن جبل: ماشيءٌ أنجى من عذاب الله من ذكر الله. رواه أحمد وابن أبى الدنيا وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى.

٧ – وعن أم أنس – رضى الله عنهما – أنها قالت: يا رسول الله أوصنى. قال: «اهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيءٍ أحب إليه من كثرة ذكره». رواه الطبرانى بإسناد جيد.

٨ – وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات»

---

(١) الفضة.

رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني.

٩ - عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، قال: فجثا[١] أعرابي على ركبتيه فقال يا رسول الله حلهم[٢] لنا نعرفهم؟ قال: هم المتحابون في الله من قبائل شتى وبلاد شتى يجتمعون على ذكر الله يذكرونه» رواه الطبراني بإسناد حسن. كذا في الترغيب.

١٠ - وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا[٣]، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر» رواه الترمذي.

١١ - عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: «إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله ﷺ أن قلت: أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله» رواه ابن أبي الدنيا والطبراني وابن حبان في صحيحه.

ثالثاً: الآثار:

قال الحسن: الذكر ذكران، ذكر الله - عز وجل - بين نفسك وبين الله - عز وجل - ما أحسنه وأعظم أجره، وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عند ماحرَّم الله - عز وجل.

وقال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها.

---

(١) أي جلس.

(٢) صفهم لنا وعرفنا بهم.

(٣) أي أصيبوا بحظكم منها.

وقال ابن مسعود – رضى الله عنه –: اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفى مجالس الذكر وفى أوقات الخلوة، فإن لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن يَمُنَّ الله عليك بقلب فإنه لا قلب لك.

وقال الخوَّاص – رحمه الله –: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

وقال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه: عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

وقال عثمان – رضى الله عنه –: لو أن قلوبنا طهرت لم تمل من ذكر الله.

وجاء رجل إلى أبى الدرداء – رضى الله عنه – فقال له: أوصنى؟ فقال له: اذكر الله – عز وجل – فى السراء يذكرك فى الضراء، فإذا أشرفت على شىء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير.

وعند الطبرانى عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال: كان عزيزاً على عبد الله بن مسعود أن يتكلم إلا بذكر الله. وفى رواية له أنه كان يعز عليه أن يُسمع متكلماً بعد طلوع الفجر إلى أن يصلى الصبح. وعن عطاء قال: خرج ابن مسعود على قوم يتحدثون بعد الفجر فنهاهم عن الحديث وقال: إنما جئتم للصلاة فإما أن تصلوا وإما أن تسكتوا. وقال ابن مسعود أيضاً: مجالس الذكر محياة للعلم وتحدث للقلوب خشوعاً. والآثار فى فضائل الذكر لا تنتهى، وهذا طرف منها والله أعلم.

* * *

فصــل

ما حقيقة الذكر؟

انشغال القلب بالمحبوب يجعل ذكره والتذكير به على اللسان أمراً فطرياً تلقائياً لا يحتاج إلى تكلف أو مشقة، فحقيقة الذكر هو شهود عظمة الله وقدرته وعظمته فى كل موجود ومخلوق حتى يسبح اللسان بعظمته ورؤية فضله وآلائه ونعمه فى كل خير يأتى إلى العبد فيخرج الحمد والثناء والشكر ويتولد منه الحب والود والرجاء، كما أن مشاهدة قوته وكبريائه وقدرته فى نصرة أوليائه وخذلان أعدائه يرد الحول والقوة له وحده بلا شريك ومن ذلك يتولد الخوف والخشية والتعظيم والإجلال.

وهكذا يصبح اللسان هو ترجمان القلب، فيكون حقيقة الذكر عن حقيقة تأثر القلب بالمذكور حباً وخشية وخوفاً وتعظيماً وإنابة وإجلالاً. ويصبح العبد الذى هذه صفته يُذكر بهيئته تلك الناس بالله وبجلاله وبعظمته، أخرج البزار عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال: قال رجل: يا رسول الله مَنْ أولياء الله؟ قال: الذين إذا رؤوا ذُكر الله.

وأخرج ابن النجار عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قلت يا رسول الله إنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا فى الدنيا ورغبنا فى الآخرة، فقال: «لو تكونون إذا خرجتم من عندى كما تكونون عندى لزارتكم الملائكة ولصافحتكم فى الطريق، ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون حتى تبلغ خطاياهم عنان السماء فيستغفرون الله فيغفر لهم على ماكان منهم ولا يبالى».

فهذه حقيقة الذكر التى استقرت فى القلوب حتى أصبح الغيب أمامها وكأنه شهادة، وأثر الذكر رقة القلوب ومن ثمَّ الزهد فى الدنيا والرغبة فى

الآخرة، وذلك أن القلوب إذا صدأت عميت، وصدأ القلوب من الذنوب، ولا يجلو هذا الصدأ إلا ذكر الله وقراءة القرآن، فإذا انجلى عن القلوب صدؤها زال عنها الركام الذى يحجب أنوار الغيب فأبصرت طريق الفلاح الموصل إلى رضوان الله، وبداية وضوح الرؤية والبصيرة إنما منشؤه من زوال صدأ القلوب، فالقلب هو مرآة العبد إلى الآخرة، ولا يزول هذا الران الذى جثم على القلوب إلا بذكر الله.

قال سعيد بن جبير: الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته، فتلك الخشية، والذكر طاعة الله، ومن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطع الله فليس بذاكر وإن أكثر التسبيح وتلاوة الكتاب.

وهنا تبدو حقيقة الذكر هى تذكر المذكور والشعور بدوام نظره إلى العبد وأنه لا يغفل عنه أبداً، فيكون العبد دائماً متسربلاً بثوب الحياء، فإذا كان يستحى من نظر المخلوقين فاستحياؤه من نظر الخالق أوجب وأولى.

وقال أحد الصالحين: لا يكون ذكر بالحقيقة إلا عن حقيقة فكر فى القلب. والفكر الصحيح ثماره اليقظة وترك الغفلة، وإن لم يكن للذكر والفكر ثمرة إلا معية الله تعالى فهذا فيه الكفاية والغناء، فمعية الله للعبد أعظم وأكبر من أى عطاء.

* * *

فصـــل

آداب الذاكر عند الذكر ؟

حتى يثمر الذكر ثماره الطيبة فى قلب المؤمن فهناك من الآداب الظاهرة والباطنة ما تعين على بلوغ المراد وحصول المقصود، **وهذه جملة من الآداب التى يجمل التحلى بها ومراعاتها :**

أولاً : الطهر :

والطهر له ثلاث مراتب :

١ - تطهير الثوب والبدن وإلى ذلك يشير سبحانه بقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤].

٢ - طهارة المكان حيث إن الذكر تحضره الملائكة وتحبه وتأنس به.

٣ - طهارة القلب عما سوى الله، وهذا يعنى تفريغ الباطن من جميع الشواغل والعوائق التى تحول بين الذاكر وبين استقبال النور الذى ينضح من ذكره على فؤاده، فالنور المنبعث من الذكر إذا وجد القلب محشواً بالأغيار فإنه يرتفع من حيث جاء.

أخرج ابن جرير عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن استطعت أن لا تذكر الله إلا وأنت طاهر فافعل.

ثانياً : استقبال القبلة :

خير المجالس ما استقبلت به القبلة، وقد أخرج البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قدم الطفيل بن عمرو الدوسى على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن دوساً قد عصت وأبت،

فادع الله عليها، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة ورفع يديه، فظن الناس أنه يدعو عليهم، فقال: «اللهم أهد دوساً وائت بهم».

ثالثاً: خشوع الجوارح وخضوع القلب:

الذى يحرك لسانه بالذكر وهو على الفرش فالله تعالى يذكره فوق العرش، وحضور القلب شرط لحصول المعية، والذكر يكون باللسان ثم ينتقل إلى القلب، وبعد ذلك فالقلب يكون هو الذاكر وينتقل الذكر من القلب إلى اللسان، فكلما استحضر القلب عظمة المذكور وسبح فى جلاله وكبريائه وشاهد مننه وآلاءه وعطاياه، فاللسان حينئذ سينطق بتسبيح الله وحمده وشكره والثناء عليه، والذاكر فى عبادة تقتضى منه سكون الجوارح فالكون من حوله كله يسبح معه ويتجاوب مع ذكره، وهذا ما ذكره الله تعالى فى كتابه فى شأن تسبيح داود عليه السلام حيث قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ومعنى أوبى أى رجعى معه بالتسبيح وكذلك الطير تشاركه فى ذكره وتسبيحه.

رابعاً: التفكر والتدبر:

لا يكون ذكر بالحقيقة إلا عن حقيقة فكر فى القلب، فالعبد يفاتح ربه بطلب العطاء والله يفاتحه بكشف الغطاء، فالنعيم كله محصور فى رؤية فضله ونعمته، وكل العذاب محصور فى الحجاب عن معرفته وطاعته، فالغفلة عنه أشد من الأغلال والسلاسل والسعير، ومعرفته وذكره وتعلق القلب بنعمه وفضله هى عين السعادة والنعيم:

فهجره أعظم من ناره . . . ووصله أطيب من جنته

والقلوب عليها أقفال تحول بينها وبين دخول النور إليها، ومن كسر أقفال قلبه استناره فؤاده وانكشف له من الحقائق ما يبهر الألباب ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ولا يعين على التدبر والفكر إلا

الخلوة، ولذلك قال ابن مسعود - رضى الله عنه -: «اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفى مجالس الذكر، وفى أوقات الخلوة، فإن لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك». وقال الخواص: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.

فالحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكر، وإذا كان العبد يعطى قلبه وفكره لمخلوق مثله عند الخطاب أليس من باب أولى أن يعطى ربه فكره وقلبه وهو يناجيه ويحرك لسانه بذكره، ولولا أن الله يسَّر للعبد أن يذكره ما استطاع أحد أن يذكره أبداً، ولذلك تصفية الأحوال لا تأتى إلا بتصفية الأعمال، والتدبر هو مفتاح كنوز الفهم، والغفلة أكبر الموانع التى تصد عن الفهم.

وإذا كان هناك تكليف للبدن فهناك تكليف للعقل، وتكليف العقل هو الفكر والتدبر ثم الإذعان والتسليم، وآيات الله كلها تدل على الحق إذا وجدت من يبصرها ويراها، أما الغافل عنها فهو أعمى لن يرى شيئاً، وشر العمى عمى القلوب.

قال سهل بن عبد الله التسترى: كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار فقال لى يوماً: ألا تذكر الله الذى خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلبك فى فراشك ثلاث مرات من غير أن تحرِّك لسانك: الله معى، الله ناظرى، الله شاهدى، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل فى كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلته، فوقع فى قلبى حلاوته.. فلما كان بعد سنة قال لى خالى: احفظ ما علمتك، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لذلك حلاوة فى سرِّى، ثم قال لى خالى يوماً: يا سهل من كان الله

معه، وناظراً إليه، وشاهده.. أيعصيه؟ أياك والمعصية».

ولذلك على الذاكر أن يجول بفكره فى عظمة المذكور وأن يعى ما يلفظه لسانه من ذكر ربه حتى يثمر هذا الذكر ثمرته فى قلبه خشية وخشوعاً وإنابة واطمئناناً.

خامساً: الطيب والسواك:

إن الملائكة تحب الطيب لأنها تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم، ولذلك كان النبى ﷺ يحب الطيب. وروى الترمذى عن أبى أيوب – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «أربع من سنن المرسلين، الختان، والتعطر، والسواك، والنكاح» ومما رواه البزار عن على – رضى الله عنه – ورواه ابن ماجه موقوفاً أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا تسوك ثم قام يصلى قام الملك خلفه فيستمع لقراءته فيدنو منه حتى يضع فاه على فيه فما يخرج من فيه شىء من القرآن إلا صار فى جوف الملك، فطهروا أفواهكم للقرآن» هذا والسواك مطهرة للفم مرضاة للرب وما زال جبريل يوصى به حتى ظن النبى ﷺ أنه سينزل فيه قرآن أو وحى يفرضه على أمته.

* * *

فصـــل

فضائل النوافـل

أحب ما تقرب به العبد إلى ربه هو ما افترضه عليه، وإذا زاد فهو تطوع ونافلة يزداد به من ربه حباً وقرباً وأنساً. والثمرة لهذه المحبة هى المعية والعناية والرعاية، فيكون ربه معه معيناً له كما يستعين بسمعه وبصره وجوارحه.

أخرج البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنه».

وهذا مجمل لفضائل بعض النوافل التى لا تخلو منها حياة الصالحين الأوابين الذين يرجون الله واليوم الآخر:

* **فضل السنن الرواتب:**

عن أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان - رضى الله عنهما - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مامن عبد مسلم يصلى لله تعالى فى كل يوم ثنتى عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله تعالى له بيتاً فى الجنة» رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى، وفى رواية لابن خزيمة: «أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء وركعتين قبل صلاة الغداة» أى صلاة الفجر. وهذه السنن الرواتب متعلقة بالفرائض قبلها أو بعدها.

* فضيلة التهجد وقيام الليل :

أخرج البخارى ومسلم ومالك وأبو داود عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » .

وروى الطبرانى والحاكم عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها » فقال أبو مالك الأشعرى : لمن هى يا رسول الله؟ قال : « لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام » .

وروى الترمذى والطبرانى عن سلمان الفارسى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنها عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد » .

وروى الطبرانى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : جاء جبريل الى النبى ﷺ فقال : « يامحمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس » .

وروى الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « من بات فى خفة من الطعام والشراب يصلى تراكضت[1] حوله الحور العين حتى يصبح » .

---

(1) أى لازمته وأحاطت به .

*** فضيلة الوتر :**

أخرج مسلم والترمذى عن جابر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : « من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل مشهودة محضورة وذلك أفضل ».

وأخرج أبو داود وابن خزيمة عن جابر - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : « يا أهل القرآن أوتروا، فإن الله وتر يحب الوتر ».

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يصلى من الليل ما شاء الله أن يصلى حتى إذا كان نصف الليل أيقظ أهله للصلاة ثم يقول لهم: الصلاة، ويتلو هذه الآية ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه: ١٣٢].

*** فضيلة صلاة الضحى :**

روى البخارى ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: أوصانى خليلى ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتى الضحي، وأن أوتر قبل أن أرقد ».

وروى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يصبح على كل سُلاَمَى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة، وكل تهليلة صدقة وكل تكبيرة صدقة وأمرٌ بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » ومعنى سلامى أى المفصل وهو إلتقاء كل عظمتين.

روى الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من صلى الصبح فى جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم

صلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: تامة تامة تامة».

*** فضيلة صلاة الحاجة:**

روى الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسن الوضوء، وليصل ركعتين ثم ليثن على الله، وليصل على النبي ﷺ، ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته ولا حاجة هي لك رضاً إلا قضيتها يا أرحم الراحمين».

*** صلاة الاستخارة:**

روى البخاري وأبو داود والترمذي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته».

* * *

فصـــل

آداب الــدعــاء

ثمـرة الدعـاء هي إظهـار الفـاقـة بين يدى الله وإلا فـهـو يفـعل مـا يشـاء سبحانه، ولا يكن تأخير العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجباً لليأس وقطع حبال الرجاء، فالله تعالى ضمن الإجابة لنا فيما يختاره لنا لا فيما نختار لأنفسنا، وفى الوقت الذى يريد لافى الوقت الذى نريد .

وإذا كان الدعاء عبودية سرها إظهار الفاقة بين يديه سبحانه فوجب على العبد أن يخرج من اختياره إلى اختيار ربه له، فالكريم إذا سأله من يعز عليه أعطاه أفضل ما يعلمه له، ولذلك من لم يكن فى دعائه تاركاً لاختياره راضياً باختيار الله له فهو مستدرج، وهو ممن قيل فيه : اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته، فإن كان مع اختيار الله تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجاباً وإن لم يُعط والأعمال بخواتيمها .

وللدعاء آداب من تحلى بها أفضت به إلى المقصود ، ومن جملتها :

أولاً : حضور القلب :

القلوب الغافلة عن ربها لا يجاوز دعاؤها أفواهها، والله يريد قلوباً حاضرة مع ألسنتها حتى يترجم اللسان ما فى القلب من رغبة ورجاء وطلب وإلا أصبح الدعاء لغواً يتحرك به اللسان دون صدق فى الطلب من قلب الداعى .

قال الله تعالى : ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٥]، قال ابن جرير : تضرعاً تذللاً واستكانة لطاعته، وخفية يقول : بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لاجهار مراءاة . روى أحمد عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ

ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله – أيها الناس – فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل».

وكان حبر من أحبار بنى إسرائيل يقول: يارب كم أعصيك ولا تعاقبنى؟ فأوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل قل له: كم أعاقبك وأنت لا تدرى، ألم أسلبك حلاوة مناجاتى.

ثانياً: الثناء على الله والصلاة والسلام على نبيه ﷺ:

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال: إذا أراد أحدكم أن يسأل فليبدأ بالمدحة والثناء على الله بما هو أهله ثم لِيُصَلِّ على النبى ﷺ ثم ليسأل بعد فإنه أجدر أن يُنْجِحَ.

وروى أبو داود والنسائى والترمذى عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يمجد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ، فقال: عجل ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل، والثناء عليه ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يدعو بعد بما يشاء».

والله تعالى يحب المدح والثناء والتمجيد والتعظيم ومهما بلغ ثناؤنا عليه فلن نستطيع أن نثنى عليه بما هو أهله كما أثنى هو سبحانه على نفسه، ولذلك من السنة بين يدى الدعاء كثرة التعظيم والثناء على الجليل الأعلى ثم الصلاة والسلام على نبيه المصطفى وكذلك الختام بها، لأن الله سبحانه يتقبل هذه الصلاة على النبى ﷺ وهو أكرم من أن يقبل أول الدعاء وآخره ثم يرد ما بينهما.

روى أبو داود والترمذى وابن ماجه عن عبد الله بن بريدة عن أبيه – رضى الله عنهما – أنَّ النبى ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إنى أسألك بأنى

أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال: «لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب».

وروى الترمذى عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال: سمع النبى ﷺ رجلاً وهو يقول: ياذا الجلال والإكرام فقال: «قد استجيب لك فَسَل».

وأخرج الحاكم عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملكاً موكلاً بمن يقول: يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثاً، قال الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فَسَلْ».

أخرج الطبرانى عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ مر بأعرابى وهو يدعو فى صلاته وهو يقول: يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، وما توارى من سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا بحر ما فى قعره ولا جبل ما فى وعره، اجعل خير عمرى آخره وخير عملى خواتيمه وخير أيامى يوم ألقاك فيه، فوكل رسول الله ﷺ بالأعرابى رجلاً فقال: إذا صلى فائتنى به، فلما صلى أتاه وقد كان أهدى لرسول الله ﷺ ذهب من بعض المعادن، فلما أتاه الأعرابى وهب له الذهب وقال: ممن أنت يا أعرابى؟ قال: من بنى عامر ابن صعصعة يا رسول الله، قال: هل تدرى لم وهبت لك الذهب؟ قال: للرحم بيننا وبينك يا رسول الله، قال: إن للرحم حقاً ولكن وهبت لك الذهب بحسن ثنائك على الله - عز وجل».

وروى الترمذى موقوفاً عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك ﷺ.

ثالثاً: طيب المطعم:

أخرج الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: تليت هذه الآية عند النبى ﷺ: « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبا »، فقام سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال: « يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يُتقبل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به ».

وفى مسند أحمد وصحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله >: « يأيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: **﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم﴾**، وقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب لذلك ».

وأخرج البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان لأبى بكر الصديق رضى الله عنه - غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدرى ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ فقال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته فلقينى فأعطانى لذلك هذا الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء فى بطنه ». وفى رواية قال: والله لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها، اللهم لا تؤاخذنى بما خالط الأمعاء وتشربته العروق..

وحينما جاء رجل يسأل أحمد بن حنبل فقال له: بم تلين القلوب؟ فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: يا بنى بأكل الحلال.

ولقى محمد بن المبارك الصورى أحد الرهبان فقال له: عظنى وأوجز قال: كل من حلال وارقد حيث شئت، قال: قلت له: فأين طريق الراحة؟ قال: فى خلاف الهوى، قلت: فمتى يجد الرجل الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها فى الجنة، قال: قلت: بماذا أقطع الطريق إلى الله؟ قال: بالسهر الدائم والظمأ فى الهواجر.

رابعاً: اختيار الأوقات الشريفة والأحوال الطيبة:

وذلك كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، والثلث الأخير من الليل، ووقت السحر، وأثناء السجود، وعند نزول الغيث، وبين الأذان والإقامة، والدعاء بظهر الغيب، وعند السفر، وعند إفطار الصائم، ودعاء المريض.

روى الترمذى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال: قيل: يا رسول الله، أى الدعاء أسمع؟ قال «جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات».

وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء فقمن أن يستجاب لكم».

خامساً: جوامع الدعاء:

روى أبو داود عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ يستجيب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك». وأخرج مسلم عن أنس رضى الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبى ﷺ: «اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

وأخرج الطبرانى عن أبى هبيرة عن حبيب بن مسلمة الفهرى - وكان مستجاب الدعوة رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن سائرهم إلا أجابهم الله، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه وقال: اللهم احقن دماءنا واجعل أجورنا أجور الشهداء، فبينا هم على ذلك إذا نزل الهنباط أمير العدو فدخل على حبيب سرادقه». وأخرج ابن أبى

شيبة عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال: خرج النبى ﷺ فكأنا اشتهينا أن يدعو لنا فقال: «اللهم اغفر لنا وارحمنا وارض عنا وتقبل منا وأدخلنا الجنة ونجنا من النار وأصلح لنا شأننا كله، فكأنا اشتهينا أن يزيدنا فقال: جمعت لكم الأمر».

وأخرج البزار عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: لما رأيت النبى ﷺ طيب نفسى قلت: يا رسول الله ادع الله لى، قال: «اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر وما أسرت وما أعلنت، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها فى حجرها من الضحك فقال رسول الله ﷺ: أيسرك دعائى؟ فقالت: وما لى لا يسرنى دعاؤك؟ فقال: والله إنها لدعوتى لأمتى فى كل صلاة».

إن الله - تعالى - يستحى من عبده المؤمن حينما يرفع إليه يديه بالدعاء فلا يردهما صفراً خاويتين ولكن يضع فيهما خيراً، وعلى الداعى أن يطهر فمه بتوبة نصوح قبل أن يرفع يديه بالدعاء فالعبد يحُرم الرزق بالذنب يصيبه..

* * *

ثالثــاً

الإنفـاق والصدقـة

إن الله يختبر سخاء القلب قبل سخاء اليد، ويريد أن يخرجنا من أسر المال فلا نصبح عبيداً له ولا يسترقنا درهم ولا دينار بل نخرج من رق العبودية لغير الله فنصبح أحراراً بعبودية الله وحده ذى الجلال والإكرام.

لقد نزل الإنسان لدنياه عرياناً مجرداً عن كل شيء، فمن علمه النطق والبيان؟ ومن ألهمه التفكير والإدارك؟ ومن رزقه المال والثروة؟ إن الإسلام يضع قاعدة هامة فى المعاملة وهى أن المال فى الأصل مال الله، وهو الذى رزقه العبادَ وأمرهم بجمعه من حله وإنفاقه فى حقه، لا أن يكون المال سببًا للكبرياء والغطرسة وذريعة للكبر والاستعلاء على خلق الله، فإذا جاء الإنسانَ مسكين أو محتاج فليحمد الله أن جعل يده هي العليا ولم يجعلها هى السفلى، فربما دارت الأيام وأصبح المسئول هو السائل، فالله قادر على ذلك ولا يعجزه شيء.

إن المال محبوب النفوس، وفى الأعماق حبه دفين، والرغبة فيه جامحة لا يحدها إلا بصيرة القلب التى ترى أن ما فوق التراب تراب. ومن صفات المؤمنات الصادقات حب الإنفاق من هذا المحبوب، فالمرأة -إلا من عصم الله- مولعة بحب المال والثروة والذهب، ولذلك حض الشارع على الإكثار من النفقة والصدقة فى شأنها عسى أن يكون ذلك سبباً فى فكاك رقبتها من النار وتهذيباً لنفسها من الشغف بحب الزينة والمتاع فهى المربية الأولى للإنسان، والإنسان يشيب على ما شَبَّ عليه.

أخرج البخارى بمعناه عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال: خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فصلى ثم انصرف، فقام

فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة، فقال: يا أيها الناس تصدقوا، ثم انصرف، فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» قالت امرأة: وما نقصان العقل والدين؟ قال: «شهادة امرأتين بشهادة رجل وتمكث الأيام لا تصلى»(١).

والمتتبع لحياة الصفوة من خيار النسوة يرى سقوط الدنيا من أعينهن وزوال محبتها من قلوبهن، وزهدهن فى حطام يتصارع عليه السفهاء والحمقى، وأولى علامات الإيمان هوان الدنيا على المؤمن وذلك لامتلاء قلبه بعظمة الآخرة وانشغاله بطاعة ربه، وذلك أن خادم الدنيا يحرص عليها ولو من حرام ويصارع على فتاتها ولو ببيع دينه والإعراض عن ربه، أما طلاب الآخرة فهم يجودون بما يملكون وينفقون ونفوسهم طيبة بما قدموا، فالإيمان كرم وسخاء وعطاء، ولا يجتمع فى قلب شح وإيمان أبداً. فالمرأة المؤمنة التى تضع أقدامها على سلم الترقى عليها التضحية والإنفاق حتى تخرج محبة المال من القلب ويخلو المحل لمحبة الله الجليل العظيم، فالقلب المشترك لا يقبل الله عليه كما أن العمل المشترك لا يقبله.

* * *

---

(١) أى وقت الحيض والنفاس.

فصــل

فضيلة الإنفاق والصدقة

روى البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

وروى الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنه - مرفوعاً قال: ما نقصت صدقة من مال، وما مَدَّ عبد يده بصدقة إلا ألقيت فى يد الله قبل أن تقع فى يد السائل، ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر».

وروى الترمذى وابن حبان عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء».

وروى أحمد وابن خزيمة وابن حبان عن عقبة بن عامر -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ فى ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس. قال يزيد: فكان أبو الخير مرثد لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة».

وروى الطبرانى والبيهقى عنه - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حَرَّ القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته».

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ

قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

وروى الطبرانى عن أبي أمامة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر».

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتُميط الأذى عن الطريق صدقة» متفق عليه.

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تُصُدِّق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غنى، قال: اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى، فأُتى فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله».

* * *

فصــل

آداب المتصدق وآخذ الصدقة

الذى تحرك فى قلبه حب الإنفاق والصدقة لا بد أن يتحلى بالآداب التى تحفظ له الثواب من الضياع، وهذه الآداب تحفظه من الإفلاس يوم القيامة، فبعض الناس يأتى بأعمال صالحة كالجبال ولكنه لم يحفظها بالآداب الشرعية مما جعلها تذهب للآخرين ولم يَجْنِ من سعيه سوى التعب والنَّصَب.

* **آداب المتصدق:**

أولاً: أن تكون من حلال، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً، فقد روى الشيخان والنسائى والترمذى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل[1] تمرة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه[2] حتى تكون مثل الجبل».

ثانياً: الإسرار بها إلا أن يقتدى به غيره فيعلن بها وذلك لقوله تعالى: **﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** [البقرة: ٢٧١]، وروى الطبرانى عن معاوية بن حيدة -رضى الله عنه- قال: قال النبى ﷺ: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب تبارك وتعالى»، فالذى يخفى الصدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه معه برهان الإخلاص وتجرد النية لله تعالى كما أن فيها حفظ ماء الوجه للفقير من الخجل، وإذا أراد بإعلان صدقته تشجيع الآخرين على الإنفاق فذلك محمود من هذا

---

(١) بمقدار.

(٢) الفرس الصغير سمى بذلك لأنه فل عن امه أى فصل وعزل.

الوجه وإلا فالإسرار بالصدقة أفضل حفظاً لقلب المتصدق وآخذ الصدقة على السواء.

ثالثاً: أن يتخير جيد المال وأحسنه وذلك لقوله تعالى: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله تعالى: ﴿ **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فالصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل، والمؤمن يجود بالجيد وليس بالرديء لأنه يبتغي بصدقته القرب من ربه، فالمعاملة مع الله قبل السائل، أخرج الشيخان عن أنس -رضي الله عنه- قال: كان أبو طلحة -رضي الله عنه- أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس فلما نزلت هذه الآية: ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى فضعها يا رسول حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».

رابعاً: ألا يتبعها بالمن والأذى، فالمنان عمله حابط لأنه يفسد عمله بإهانة من أحسن إليه، والصدقة شرعت للرحمة والصلة وبناء جسور المحبة بين الأمة، والمن يهدم هذا الجسر ويزرع النفور والبغضاء، ولذلك قال سبحانه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. كما أوصى الله تعالى نبيه ﷺ بهذا الخلق العالي فقال له: ﴿ **وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ** ﴾ [المدثر: ٥] فلا ينبغي للمؤمن أن يمن على الله ولا على أحد من خلقه بما

فعل من بر وطاعة ومعروف فالله هو الذى وفقه للعمل الصالح، والفقير قد فتح له باب الأجر والثواب بقبول الصدقة منه، فهب أن المتصدق لا يجد من يأخذ منه صدقته فكيف سيكون له أجر عند ربه؟؟

خامساً: أن يقصد بها وجه الله تعالى بعيداً عن المدح والثناء وإطراء الناس له، وخلوص النية لله تعالى شرط فى قبول العمل، فلا يريد بدينه دنيا الناس ويجرد غرضه ومقصده عن المنافع والمصالح، بل يكفيه نظر الله إليه ومدح الله له فيستغنى بالله عمن سواه، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة: ٥].

سادساً: أن يتحرى أولى الأرحام والأقربين فهم أولى بها من غيرهم، قال سبحانه ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وروى النسائي والترمذى عن سلمان بن عامر – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة». وروى أحمد والطبرانى عن حكيم بن حزام – رضى الله عنه – أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل؟ قال: «على ذى الرحم الكاشح» ومعناه: أن أفضل الصدقة على ذى الرحم القاطع المضمر العداوة فى باطنه.

سابعاً: تعجيل الصدقة، حيث إنه يستحب فى المعروف ثلاثة أشياء: تعجيله، وتصغيره –أى في [illegible] ينفقه، وكتمانه.

ثامناً: ألا يستكثر ما أعطى، فهو ينفق من مال الله الذى وهبه له، وبصدقته فقد عَرَّض نفسه لرحمة الله ودفع أبواب السوء عنه، ومما يروى عن عيسى – عليه السلام – قال: من رَدَّ سائلاً خائباً من بيته لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام. وقال الحسن: لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير

فيكم، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض.

وغاية الأمر فى المتصدق صحة النية وسلامة القصد وحسن الرغبة فيما عند الله، وإغاثة الملهوف والبعد عن السمعة والرياء والشهرة وإخفاء الصدقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى أن بعض السلف كان يلقى الصدقة فى يد أعمى وبعضهم يلقيها فى طريق الفقير وفى موضع جلوسه حيث يراها ولا يرى المعطى، وبعضهم كان يصرها فى ثوب الفقير وهو نائم، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه، كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة. قال حاتم الأصم: ثلاثة أشياء دواء لثلاثة أشياء: قيام الليل دواء لقسوة القلب، وكثرة الصدقة دواء للبخل، وكثرة النوافل دواء لكثرة الذنوب والمعاصى.

*** آداب آخذ الصدقة:**

أولاً: ألا يلح فى السؤال بل يكون مستتراً يخفى حاجته لا يكثر البث والشكوى، ويتجمل بجلباب العفة ويحرص على ماء وجهه ويكون عزيزاً بصبره ويقينه بربه، فالإلحاح دليل على خلو القلب من الإيمان وتعلقه بدنيا المخلوقين، وإذا كان السؤال مذموماً فعلى آخذ الصدقة إظهار العفة والمروءة وأن يتأنَّى ولا يتعجل فما قسمه الله له سوف يأتيه.

ثانياً: أن يشكر من أعطاه خيراً ويدعو له ويثنى عليه، فقد روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يعيره بالمنع إذا منع ويدعو له بالخير، أخرج أبو داود والنسائى وأحمد والبخارى فى الأدب المفرد عن ابن عمر –رضى الله عنهما– عن النبى > قال: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فاعطوه، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له، حتى يعلم

أن قد كافئتموه»، وروى الترمذى عن أسامة بن زيد -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «من صُنعَ إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء».

ثالثاً: ألا يتكبر ولا يتعالى، فأبغض الناس إلى الله تعالى ثلاثة: ملك كذاب، وشيخ زان، وعائل مستكبر. فالفقير ليس لديه ما يتكبر به، كما أنه عليه إظهار التجمل والتستر عند الفاقة ولكن عزة النفس لا تدعوه إلى الكبر والتيه والخيلاء فهذه صفة مذمومة عند الله، وقد جاء فى الحديث القدسى عن الله تعالى قال: «العزُ إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما قصمته ولا أبالى».

رابعاً: ألا يستعملها في حرام أو معصية بل تكون نيته أن يتقوى بها على طاعة الله، فالصدقة جاءت إليه نعمة من ربه ساقها على يد من شاء من عباده، فلا ينبغى أن يأخذ نعمة الله ويعلن بها الحرب عليه بالمعصية والمخالفة، فينبغى أن يكون جزاء الإحسان هو الإحسان وليس الجحود والنكران. وينبغى أن يأخذ من الصدقة قدر الضرورة التى تكفيه ولا يستسهل حصول المال من هذا الطريق، بل يجتهد لتكون يده هي العليا يوماً ولا تظل يده هى السفلى أبد الدهر، روى أبو داود وابن حبان عن سهل بن الحنظلية -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ نهى عن السؤال مع الغنى، فسُئل عن غناه؟ فقال: «غداؤه وعشاؤه»، فمن أخذ فوق ما يكفيه فذلك سيدفعه حتماً إلى ما يطغيه.

إن الإسلام يربى أبناءه على البر والصلة والمعروف، وينسج روابط القلوب على المحبة واحترام المشاعر، فالمتصدق وآخذ الصدقة كلاهما له آداب الشرع الواجب عليه التحلى بها فى حال غناه وحال فقره، فإذا كنا نحترم المسجد لأنه محل أداء فريضة الصلاة فيجب احترام الفقير لأنه أيضاً محل أداء فريضة الزكاة، والمسجد بناه الإنسان والفقير بناه الله، والأيام دول فربما

أصبح السائل هو المسئول يوماً ما، والدنيا دار أغيار لا ثبات لها على حال.

وإذا فتح الله باب المعاملة لعبد فعليه أن يفهم علة هذه المعاملة وهى المسارعة والإقبال عليها قبل أن ترفع، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا أتى سائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردوا عليه بوقار ولين وببذل يسير أو رد جميل، فإنه قد يأتيكم من ليس بإنسٍ ولا جان ينظرون كيف صنعكم فيما خولكم الله».

* * *

فصـل

فضيلة القرض وإغاثة الملهوف

القلوب الحية بالإيمان تنبض بالحب لجميع الناس، وفيها الإحساس بآلام الآخرين، فالمؤمن لا يقف من المكروب موقف المتفرج، ولا يغلق بابه عن المحتاج والملهوف، ولا يصم أذنيه عن استغاثة المصاب، فالمؤمنون جميعاً كالجسد الواحد يشعر أدناهم بأقصاهم، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

روى البيهقى والطبرانى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر» وفى رواية أنس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر».

وروى ابن ماجه وابن حبان عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرة إلا كان كصدقتها مرتين». وفى كتاب (البركة) للحبيشى روى عن النبى ﷺ قال: «رأيت على باب الجنة مكتوباً القرض بثمانية عشر، والصدقة بعشر، فقلت يا أخى يا جبريل ما بال القرض أعظم أجراً من الصدقة، قال: لأن صاحب القرض لا يأتيك إلا محتاجاً وربما وقعت الصدقة فى غير أهلها». وروى أيضاً عن النبى > قال: «من هم بحجة أو عمرة فعمد إلى مثل نفقته فأقرضها أخاه المسلم عدل ذلك عشر حجات مبرورات متقبلات».

وروى مسلم عن حذيفة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: كان رجل يداين الناس وكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله

– عز وجل – يتجاوز عنا، فلقى الله فتجاوز عنه».

وروى عن أبى هريرة – رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «من نَفَّسَ عن مسلم كربة من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّر على معسر فى الدنيا يَسَّر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

وروى الترمذى وغيره عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «من أنظر معسراً[1]، أو وضع له[2]، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله».

وروى أحمد وابن أبى الدنيا عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال: دخل رسول الله > المسجد وهو يقول: «أيكم يسره أن يقيه الله – عز وجل – من فيح جهنم؟ قلنا: يا رسول الله كلنا يسره، قال: من أنظر معسراً، أو وضع له وقاه الله – عز وجل – من فيح جهنم».

وقال أنس – رضى الله عنه: ثلاثة نفر فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة: واصل الرحم يمد له فى عمره ويوسع له فى رزقه، وامرأة مات زوجها وترك يتامى فتقوم عليهم حتى يغنيهم الله من فضله أو يموتوا، والرجل يتخذ طعاماً فيدعو إليه اليتامى والمساكين. وقال بشر: الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد، لأن ذلك يركب ويذهب ويرجع فيراه الناس، وهذا يعطى سراً فلا يراه إلا الله تعالى. وكان حسان بن أبى سنان يشترى أهل البيت – أى من العبيد – فيعتقهم ولا يعلمهم من هو..

* * *

(١) أمهله.

(٢) أى ترك له شيئاً مما له عليه.

فصل

أنواع الصدقات

يتوهم كثير من الناس أن الصدقة محصورة فى المال وحده، والله برحمته جعل ميادين الصدقة واسعة وفى متناول جميع طبقات الأمة حتى الفقراء لهم سهم فى الصدقة ويسعهم أن يتصدقوا حتى يحشروا يوم القيامة فى ظل صدقتهم.

وأفضل الصدقة سقى الماء وما وافق ضرورة أو حاجة، وكل معروف إلى غنى أو فقير صدقة، وإدخال السرور على المسلم صدقة، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الفلاة صدقة، وأخذك بيد الأعمى فى الطريق صدقة وتفهيمك الأصم والبليد صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم وما يؤذى عن الطريق صدقة، وإفراغك من دلوك فى إناء أخيك صدقة، وإمساكك عن الشر صدقة، وتعين الرجل على دابته فتحمله عليها أو تحمل متاعه عليها صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وإتيانك زوجتك صدقة، وما أكلت من مالك صدقة، ومشيك بَديْنك لتقضيه صدقة، ودعاؤك واستغفارك للمؤمنين والمؤمنات صدقة، وما وقيت به عرضك صدقة، ومداراة الناس صدقة، وإيناسك للحزين والمستوحش صدقة، ورفعك اللقمة إلى فم امرأتك صدقة، ورد السلام صدقة، وإعادتك الصلاة مع رجل يصلى وحده صدقة عليه، والشفاعة والمعونة فى الحاجة صدقة، والصلح بين الاثنين صدقة، والنخامة فى المسجد تدفنها صدقة، وإخراج الأذى من المسجد وفرشه وإضاءة السراج فيه صدقة، والتبشير بما

يسر والتهنئة صدقة، والدلالة على الخير صدقة وعيادة المريض صدقة، وتشييع الجنازة وحملها صدقة، وتعزية المسلم صدقة، وزيارة المسلم والصاحب والقادم من سفر صدقة، والقرض صدقة، وكل زرع تزرعه فيأكل منه إنسان أو حيوان لك به أجر صدقة.

كل ذلك وغيره كثير ورد عن النبى ﷺ فى أحاديث صحيحة، وفى الجملة فكل ما يبذله المسلم مما يقدر عليه من جاه أو مال أو نفس أو كلام طيب لإدخال السرور والفرح على قلب المسلم يُكتب له جميع ذلك صدقة.

وأداء حقوق المسلم كلها له فيها أجر الصدقة، فحق كل مسلم عليك أن تسلم عليه كلما لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس وحمد الله، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم ما لم يكن فى الإبرار مفسدة، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، وتكتم سره وعيبه وتحسن الإصغاء إلى حديثه ولا تسأله إعادته، وتحفظ سره، وتعينه فى حاجته، وتدفع عن عرضه وماله فى غيبته، وتعفو عن هفوته، وتقبل عذره وشفاعته وهديته وتكافئها، وتؤثر التخفيف عنه، وتقدمه فى المجلس، وتشيعه إذا ذهب مسافراً، وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

الله تعالى لعلمه بوجود الملل فى نفس الإنسان فقد عَدَّد ولَوَّن له أنواع الطاعات حتى لا تضيع ساعة من عمره فى غير طاعة، ويقدم ما عنده حتى ولو كان ذلك طلاقة الوجه وبشاشته عند اللقاء !!

* * *

رابعاً

القرار فى البيت فهو خير حجاب للمرأة

ينظر الإسلام للمرأة على أنها جوهرة ثمينة ودرة غالية ينبغى أن تُصان عن عبث العيون الفاجرة ويجب أن تحفظ من المهانة والابتذال فلا تكون سلعة رخيصة فى الأسواق والطرقات يعبث بها الحمقى والسفهاء والفساق.

وقد جاء الإسلام بالشريعة التى تحفظ الحقوق، ومدار الحقوق التى تحفظها الشريعة ستة أمور وهى: حفظ الدين، وحفظ الأنفس، وحفظ الأموال، وحفظ الأنساب، وحفظ العقول وحفظ الأعراض أى حفظ الفروج - ومن أجل حفظ الأعراض حرم الله الزنا والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحرم إبداء زينة المرأة المسلمة لغير زوجها ومحارمها، ونهى عن الخلوة بها وعن سفرها بغير محرم، وعن النظر إليها بشهوة، كل ذلك جاء تحريمه لكونه يفضى إلى الفاحشة الكبرى، والوسائل لها حكم المقاصد، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح ﴿**تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه**﴾ وحدود الله محرماته.

وأعداء الإسلام قد انهزموا فكرياً وعقلياً فى ميدان الحجة والبرهان، كما انهزموا مراراً فى ميدان المواجهة والحروب، ولم يعد لهم سبيل لتدمير المسلمين سوى غزو ديارهم من داخلها وتمزيق حصونهم من باطنها حتى ينهار الأساس وينهدم البناء، ولم يجدوا قلعة حصينة أشد من المرأة، ولذلك بذلوا جهداً مميتاً لإخراجها من بيتها إلى الشوارع والطرقات ومزاحمتها للرجال فى جميع ميادين الحياة، وخدعوا السفهاء بمعسول القول تحت دعوى التحرر والمدنيّة ووضعوا للأمة السم فى العسل، وفتح لهم أذيالهم وأتباعهم ممن تربوا على موائدهم الأبواب حتى دخلوا وعاثوا فى الأرض

فساداً، وفرحوا بما وصلوا إليه حيث رأوا الأمة ممزقة مدمرة منهارة، وهنأ بعضهم بعضاً بهذا النصر المبين فقد بلغوا الغاية وأصابوا الأمة فى مقتل، واستخدموا المرأة كسلاح فتّاك يهدمون به صرح الإسلام، ولكن الله خَيَّب ظنهم وأبطل كيدهم فالأمة إلى يوم القيامة فيها نساء مؤمنات صالحات قانتات يستعصين على خفافيش الظلام ولا تخدعهن حيل الماكرين ومكائد الفاجرين، وإذا بالمؤمنة التقية صخرة شامخة تحطمت عليها آمال الخائنين والمتربصين.

إن إخراج المرأة من بيتها فيه ضياع حيائها والعبث بكرامتها وامتهان عزتها وإرهاق بدنها بما لم يفرضه عليها ربها، وهذا فوق ما تجنيه العيون الشرهة بالنظر إلى الحرام، فكل نظرة تزرع فى القلب شهوة، ثم تكون خطوة بالقدم ثم تزل القدم فى الخطيئة، وبداية الخطيئة كانت من النظر، ولذلك إذا خانت العين خان القلب، والله لا يأتمن على دينه خَوّانًا، روى البخارى عن النبى ﷺ قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، والقلب يتمنى ويشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» ولهذا أمر الله المؤمنين بأن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، كما أمر المؤمنات بأن يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن، كما أمر الله نساء نبيه ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهن من جلابيبهن وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

* * *

فصـــل

النهى عن الخروج لغير ضرورة

المؤمنة الصالحة لا تستقى فهمها وتصورها للمبادئ والقيم من أعدائها المنحرفين عن منهج الفطرة السوى، وإنما تأخذ قيمها ومبادئ حياتها من ربها الحكيم العليم ومن سنة نبيها ﷺ الذى أرسله ربه رحمة للعالمين، فالمرأة المسلمة لا تغتر بهذه الجيف الطافحة فى الطرقات، ولا يخدعها عبارات براقة يتشدق بها بعض المنهزمين بفكر أعدائهم، ولا تجعل قدوتها حفنة من المتفرنجات السفيهات، وإنما قدوتها فى الطهر والسمو والفهم والسلوك تأخذه من هذا الركب الطاهر الصالح المستقيم من نسوة صالحات عابدات سبقوها فى طريق الهدى والصلاح.

وإذا وجد فى الحياة نسوة هجرن البيوت وزاحمن الرجال فى الطرقات واجتهدن فى التشبه بالرجال حتى صارت صُوَرُهُنَّ مشوهة ممسوخة وأصبحن جنساً ثالثاً لا يميل إلى الرجال ولا إلى النساء بل أصبح جنساً ممسوخاً لا يصلح لأية وظيفة أو مهمة فى الحياة، فهذه الصورة المتردية من هذا المسخ إنما هى نهاية لها بداية، والبداية هى هجر البيت وترك القرار فى البيت، ولذلك فالشارع الحكيم - وهو أعلم بخلقه وصنعته - أمر المرأة المسلمة التى تتلقى منه أمره ونهيه بأن يكون البيت هو القرار والسكن، وليس ذلك غُلاً فى عنقها ولا قيداً يكبل حريتها وإنما هو حفظ لها من الامتهان والضياع وعَوْدٌ بها إلى الفطرة السليمة.

قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣] قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: أى الزمن بيوتكن، فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه، كما

قال رسول الله ﷺ : «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات»[1] وفى رواية : «وبيوتهن خير لهن». وروى الحافظ البزار عن أنس -رضى الله عنه- قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى؟ فقال رسول الله ﷺ : «من قعدت -أو كلمة نحوها- منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى»، وعن النبى ﷺ قال : «إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها» أخرجه الحافظ والبزار والترمذى، وفى الحديث : «صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى حجرتها، وصلاتها فى حجرتها أفضل من صلاتها فى بيتها» رواه البزار عن ابن مسعود مرفوعاً وإسناده جيد، وقوله تعالى : ﴿ **ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية، وقال قتادة : كانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل : التبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج (انتهى من ابن كثير ج ٣ / ٩٤).

وإذا كانت هذه الوصايا لنساء النبى ﷺ وهن أمهات المؤمنين وخيرة نساء الأمة ولا يتصور أن تمتد إليهن عين شرهة أفليس نساء سائر المؤمنين أولى بذلك من أمهات المؤمنين؟؟!!

* * *

(١) تفلات : أى غير متطيبات.

فصل

الحجاب

الذى أمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج هو الذى أمر بالحجاب، والمؤمنون أمام أوامر الله يقولون سمعنا وأطعنا، فالعقل ليس له أن يناقش أمر الله وإنما ميدان عمل العقل هو محاولة إدراك الحكمة من وراء الأمر حتى يزداد لربه حباً وإجلالاً وتعظيماً، أما إذا أطاع الإنسان ما يستحسنه عقله ورفض من دين الله ما يرفضه عقله، فسيصبح العقل هنا هو المعبود من دون الله ولن يكون العبد حينئذ عبداً لربه بل سيكون عبداً لعقله وهواه.

والحجاب المقصود له معنيان:

الأول: حجاب على البدن.

الثانى: حجاب البدن عن الاختلاط.

* الحجاب على البدن :

ويشترط فى الحجاب الشرعى بعض الشروط الضرورية وهى:

أولاً: أن يكون الحجاب ساتراً لجميع البدن لقوله تعالى: ﴿ **يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ** ﴾، والجلباب هو الثوب السابغ الذى يستر البدن كله، ومعنى (الإدناء) هو الإرخاء والسدل فيكون الحجاب الشرعى ما ستر جميع البدن.

ثانياً: أن يكون كثيفاً غير رقيق، لأن الغرض من الحجاب الستر، فإذا لم يكن ساتراً لا يسمى حجاباً، لأنه لا يمنع الرؤية ولا يحجب النظر.

ثالثاً: الا يكون زينة فى نفسه، أو مبهرجاً ذا ألوان جذابة يلفت الأنظار

لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ومعنى ﴿ما ظهر منها﴾ أى بدون قصد ولا تعمد، فإذا كان فى ذاته زينة فلا يجوز ارتداؤه، ولا يسمى حجاباً لأن الحجاب هو الذى يمنع ظهور الزينة للأجانب.

رابعاً: أن يكون فضفاضاً غير ضيق، ولا يصف البدن، ولا يجسِّم العورة، ولا يظهر أماكن الفتنة فى الجسم، وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» ومعنى قوله «كاسيات عاريات» أى كاسيات فى الصورة عاريات فى الحقيقة، لأنهن يلبسن ملابس لا تستر جسداً، ولا تخفى عورة، والغرض من اللباس الستر، فإذا لم يستر اللباس كان صاحبه عارياً. ومعنى قوله «مميلات مائلات» أى مميلات لقلوب الرجال مائلات فى مشيتهن، يتبخترن بقصد الفتنة والإغراء، ومعنى قوله «كأسنمة البخت» أى يصففن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تصبح مثل سنام الجمل، وهذا من معجزاته ﷺ.

خامساً: ألا يكون الثوب معطراً فيه إثارة للرجال لقوله ﷺ: «كل عين نظرت زانية، وإن المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا» يعنى زانية. رواه أصحاب السنن. وعن موسى بن يسار قال: مرَّت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف فقال لها: أين تريدين يا أمة الجبار؟ قالت: إلى المسجد، قال: وتطيبت؟ قالت نعم، قال فارجعى فاغتسلى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبل الله من امرأة صلاة خرجت إلى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع وتغتسل» رواه ابن خزيمة.

سادساً: ألا يكون الثوب فيه تشبه بالرجال، أو مما يلبسه الرجال لحديث أبى هريرة – رضى الله عنه: «لعن النبى ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة

تلبس لبسة الرجل» رواه أبو داود والنسائى. وفى حديث آخر: «لعن الله المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء» أى المتشبهات بالرجال فى أزيائهن وأشكالهن كبعض نساء هذا الزمان.

*** أدلة الحجاب الشرعية:**

أولاً: أدلة القرآن الكريم:

١ - قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وقد اتفقت كلمة المفسرين من جميع المذاهب على أن المراد بالإدناء تغطية كل البدن، إلا ما لابد منه لرؤية الطريق كالعين الواحدة وهو قول ابن مسعود وابن عباس وعبيدة السلمانى وغيرهم، وقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ** ﴾ أى يعرفن بالصفة لا بالشخوص لاتفاق المسلمين على أن أزواج النبى ﷺ كن يسترن وجوههن، والمقصود بالصفة أنهن حرائر عفائف لأن إخفاء المرأة كل بدنها عن الأجانب قرينة على أنها عفيفة محصنة ﴿ **ذلك أدنى أن يُعْرَفْنَ فلا يؤذين** ﴾ فلا يتعرض لهن الفساق كما كانوا يفعلون مع الإماء، وقد صحت الآثار عن عمر - رضى الله عنه - فى أمر الحرائر بالانتقاب ومنع الإماء من ذلك كما صححها ابن حزم - رحمه الله - وغيره.

٢ - قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ** ﴾ [الأحزاب: ٥٣] والآية وإن نزلت فى حق أمهات المؤمنين ولكنها تشمل بعمومها سائر المسلمات لأنهن قدوة لهن، ولأن خطاب الواحد يعم حكمه جميع المكلفين بجامع الاشتراك فى علة التكليف كما هو مقرر فى الأصول.

٣ - قوله تعالى: ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ** ﴾

[الأحزاب: ٣٣] قال أبو حيان: الذى كانت تكشفه النساء فى الجاهلية هو الوجه.

٤ – قوله تعالى: ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٠]، والمقصود وضع الجلابيب واستبقاء الدرع والخمار كما صح عن ابن مسعود – رضى الله عنه – فدل على أن سواهن من الشابات واللائى يرجون نكاحاً ليس لهن كشف وجوههن بحضرة الأجانب.

٥ – قوله تعالى: ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور: ٣١]، المراد بالزينة مواقعها من باب إطلاق اسم المحل على المحل كقوله تعالى « ففى رحمة الله هم فيها خالدون » فالمراد بها الجنة لأنها مكان الرحمة وإذا نهى عن ابداء الزينة فالنهى عن إبداء أماكنها من الجسم يكون من باب أولى. قال الزمخشرى: وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة فى الأمر بالتصون والتستر فإنه ما نهى عن الزينة إلا لملابستها تلك المواقع فكان إبداء المواقع نفسها متمكناً فى الحظر ثابت القدم فى الحرمة (الكشاف ج٣ص٢٣٠ بتصرف).

ثانياً: أدلة السنة:

١ – روى البخارى وأحمد وأهل السنن – إلا ابن ماجه – عن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال: « لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين ». قال ابن تيمية: وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين فى النساء اللاتى لم يُحْرِمْنَ وذلك يقتضى ستر وجوههن وأيديهن.

٢ – روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارقطنى عن عائشة – رضى الله

عنهـا – قـالت : « كـان الركـبـان يمرون بنا ونحن مع رسـول الله ﷺ محرمات، فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزونا كشفناه».

٣ – روى الدارقطنى فى سننه عن أم سلمة – رضى الله عنها – قالت : « كنا نكون مع رسول الله > ونحن محرمات، فيمر بنا الراكب فتسدل المرأة الثوب من فوق رأسها على وجهها».

٤ – روى الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن أسماء – رضى الله عنها – قالت : « كنا نغطى وجوهنا من الرجال».

٥ – روى الترمذى والبزار وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم عن ابن مسعود – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : (المرأة عورة) وقد روى عن الإمام أحمد وكذلك عن مالك قولهما : كل شيء منها عورة حتى ظفرها، وهذا الحديث دال على أن جميع أعضاء المرأة عورة فى حق الرجال الأجانب.

٦ – ذكر البغوى فى تفسيره ورواه ابن أبى حاتم بسند صحيح عن عمر – رضى الله عنه – أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾ قال : ليست بسلفعت من النساء خرّاجة ولأجةً ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياءً قال الجوهرى : السلفع من الرجال الجسور، ومن النساء : الجريئة السليطة.

ثالثاً : الإجماع :

نقل ابن رسلان اتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات، قال الحافظ ابن حجر : « إن العمل استمر على جواز خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منتقبات لئلا يراهن الرجال » ونقل أيضاً عن الغزالى أنه قال : « لم تزل النساء يخرجن منتقبات ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ أن الحرة تحتجب والأمة تبرز.

* **أقوال المفسرين في آيات الحجاب:**

أولاً: قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ أي يغطين رءوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر.

ثانياً: قال أبو حيان في البحر المحيط: وقوله تعالى: ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ شامل لجميع أجسادهن، أو المراد بقوله ﴿ **عليهن** ﴾ أي على وجوههن، لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية، هو الوجه.

ثالثاً: قال أبو السعود على هامش الرازي: الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء، تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها، ومعنى الآية: أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي. وعن السدي: تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين.

رابعاً: قال أبو بكر الرازي: وفي هذه الآية ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبيين، وإظهار الستر والعفاف عند الخروج لئلا يطمع فيهن أهل الريب.

خامساً: في تفسير الجلاليب: الجلابيب جمع جلباب، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة، قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدة ليعلم أنهن حرائر.

سادساً: في تفسير الطبري: عن ابن سيرين أنه قال: سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه فتقنع بها وغطى رأسه كله حتى بلغ الحاجبين، وغطى وجهه وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر.

* اختلاف الأئمة فى عورة المرأة :

أ - أدلة المالكية والأحناف : استدل المالكية والأحناف على أن الوجه والكفين ليسا بعورة بما يلى :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ فقد استثنت الآية ما ظهر منها أى ما دعت الحاجة إلى كشفه وإظهاره وهو الوجه والكفان وقد نقل هذا عن بعض التابعين كسعيد بن جبير وعطاء.

ثانياً : استدلوا بحديث عائشة الذى رواه أبو داود ونصه : « أن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله > وقال لها : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا » وأشار إلى وجهه وكفيه.

ثالثاً : وقالوا : مما يدل على أن الوجه والكفين ليسا بعورة أن المرأة تكشف وجهها وكفيها فى صلاتها وتكشفهما أيضاً فى الإحرام فلو كانا من العورة لما أبيح لها كشفهما لأن ستر العورة واجب لا تصح الصلاة بكشفها.

ب - أدلة الشافعية والحنابلة : استدلوا على أن الوجه والكفين عورة بالكتاب والسنة والمعقول :

أولاً : أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن** ﴾ فقد حرمت الآية الكريمة إبداء الزينة، والزينة على قسمين : خلقية، ومكتسبة. والوجه من الزينة الخلقية بل هو أصل الجمال ومصدر الفتنة والإغراء، والآية الكريمة منعت المرأة من إبداء الزينة مطلقاً، وحرمت عليها أن تكشف شيئاً من أعضائها أمام الرجال أو تظهر زينتها أمامهم، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ **إلا ما ظهر منها** ﴾ أن المراد ما ظهر بدون قصد ولا عمد مثل أن يكشف الريح عن نحرها أو ساقها أو شيء من جسدها، ويصبح معنى الآية على هذا التأويل : « ولا يبدين زينتهن أبداً وهن مؤاخذات على إبداء زينتهن إلا ما ظهر منها

بنفسه وانكشف بغير قصد ولا عمد فلسن مؤاخذات عليه» فيكون الوجه والكفان من الزينة التى يحرم إبداؤها.

ثانياً: وأما السنة فاستدلوا بالأحاديث السابق ذكرها فى هذا الفصل وغيرها التى تدل على حرمة النظر ومنها:

١ - حديث جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: ﴿**اصرف نظرك**﴾ رواه مسلم وأحمد.

٢ - حديث على - رضى الله عنه -: يا على لا تتبع النظرة النظرة، **فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة**» رواه أحمد وأبو داود.

٣ - حديث الخثعمية الذى رواه ابن عباس - رضى الله عنه - وفيه: «أن النبى ﷺ أردف الفضل بن العباس يوم النحر خلفه وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر» رواه البخارى ومسلم.

فجميع هذه النصوص تفيد حرمة النظر إلى الأجنبية، ولا شك أن الوجه مما لا يجوز النظر إليه فهو عورة، ولو لم يكن عورة لما نهى النبى ﷺ عن النظر إليه.

ثالثاً: المعقول:

وهو أن المرأة لا يجوز النظر إليها خشية الفتنة، والفتنة فى الوجه تكون أعظم من الفتنة بالقدم والشعر والساق حيث إنه أصل الجمال ومصدر الفتنة.

وأما حديث أسماء الذى استدل به الأحناف والمالكية فهو حديث منقطع الإسناد وفى بعض رواته ضعف وهو مرسل حيث إن خالد بن دريك لم يدرك عائشة، والمرسل من أقسام الضعيف فلا يحتج به، وإن قيل فَلِمَ لَمْ

تبطل الصلاة بكشف وجهها؟ فالجواب: أن فى تغطيته مشقة فعفى عنه.

والأحناف والمالكية الذين قالوا بأن الوجه والكفين ليسا بعورة اشترطوا ألا يكون عليهما شيء من الزينة وألا يكون هناك فتنة وألا تكون المرأة حسنة وضيئة هذا وإلا وجب عليها ستره درءًا للمفسدة وتغليباً للمصلحة وهى الستر والعفة والأمن من الفتن..

حجاب البدن عن الاختلاط

مجتمع المسلمين قائم على العمل والجهاد والدعوة، ويسمو بالنفوس عن مراتع الشهوات ومصائد الفتن، فميدان الجهاد أمام الشيطان وجنوده فى الداخل والخارج لا يجعل هناك وقتاً يضيع فى قصص الغرام والهوى، وأعداء الأمة يدركون هذا تماماً ولذلك يستميتون فى إخراج المرأة من بيتها حتى تضيع الأسرة ويتغير ميدان الجهاد بين أفراد الأمة، فبدلاً من صرف الجهد والعرق لنشر الحق والفضيلة إذا بهذا الجهد ينصرف خلف شهوة فانية عاجلة وإذا بالأموال تنفق من أجل جمال امرأة فاتنة سافرة.

ومن هنا يتبين أن علة الحجاب هى الاستتار عن العيون حتى تهدأ النفوس من الجانبين وتنصرف الهمم والطاقات للغاية التى من أجلها خلق الله الخلق وأوجد الحياة الدنيا. ولذلك فإن حجاب البدن عن الاختلاط نوع جوهرى من الحجاب الشرعى المقصود، **وقد أشارت لهذا نصوص القرآن والسنة وآثار الصحابة والسلف الصالح ومن هذه الأدلة ما يلى:**

١ - قوله تعالى: ﴿ **وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ فهذا يدل على أن سؤال أى شيء منهن يكون من خلف ستر يستر الرجال عن النساء والنساء عن الرجال، وما ذكر من سبب نزول هذه الآية يقرر هذا الأمر ويؤكده.

٢ - قوله تعالى: ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾ قال

محمد بن سيرين: ثبت أنه قيل لسودة بنت زمعة - رضى الله عنها - زوج النبى ﷺ: مالك لا تحجين وتعتمرين كما تفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرنى الله تعالى أن أقر فى بيتى، فو الله لا أخرج من بيتى حتى أموت، قال: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى خرجت جنازتها. فهذا فهم أمهات المؤمنين لأمر الله فى هذه الآية، وهذا الحكم العام قد استُثْنِى منه الخروج للحاجة، لما رواه البخارى عن النبى ﷺ قال: «أذن لكن فى الخروج لحاجتكن».

٣ - وإذا كان خروج المرأة للصلاة لا نهى فيه شريطة أن تخرج بحجابها الشرعى غير متعطرة ولا متزينة فإن صلاتها رغم هذا فى قعر بيتها أرجى لها فى الأجر عند الله تعالى.

جاءت أم حميد الساعدى إلى رسول الله > فقالت: يا رسول الله إنى أحب الصلاة معك، قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معى، وصلاتك فى بيتك خير لك من صلاتك فى حجرتك، وصلاتك فى حجرتك خير لك من صلاتك فى دارك، وصلاتك فى دارك خير لك من صلاتك فى مسجد قومك، وصلاتك فى مسجد قومك خير لك من صلاتك فى مسجدى، قال: فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى شىءٍ من بيتها وأظلمه، فكانت تصلى فيه حتى لقيت الله - عز وجل». رواه أحمد.

٤ - روى ابن الجوزى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال: النساء عورة فاحبسوهن فى البيوت، فإن المرأة إذا خرجت إلى الطريق قال لها أهلها: أين تذهبين؟ قالت: أعود مريضاً، وأشيع جنازة، فلا يزال بها الشيطان حتى تخرج ذراعيها، وما التمست امرأة

وجه الله بمثل أن تقر فى بيتها وتعبد الله - عز وجل. وليس الحبس سجناً كما يظن بعض المغرضين، وإنما هو حفظ وكرامة من الابتذال والمهانة حتى لا تصير المرأة سلعة معروضة لأصحاب القلوب المريضة والعيون الشرهة.

وعن السائب مولى أم سلمة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن».

٥ - روى ابن الجوزى أيضاً عن على - رضى الله عنه - أنه قال: «ألا تستحون أو تغارون، فإنه بلغنى أن نساءكم يخرجن فى الأسواق يزاحمن العلوج». والعلوج جمع علج وهو الرجل الأعجمى.

٦ - عن عائشة - رضى الله عنه - قالت: لو أن رسول الله ﷺ رأى النساء اليوم لنهاهن عن الخروج أو حرم عليهن الخروج. وهذا فى زمن الطهر والخير فى القرن الأول من القرون الخيرة الثلاثة فكيف بما بعد ذلك حيث رَقَّ الدين وضعفت النفوس؟؟!!

وعنها - رضى الله عنها - قالت: لو رأى رسول الله ﷺ من النساء ما نرى لمنعهن من المساجد كما منعت بنو إسرائيل نساءها. وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: كان النساء الأكابر وغيرهن يحضرن مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان العيد، فلما كان سعيد بن العاص سألنى عن خروج النساء، فرأيت أن يمنع الشوابَّ الخروج، فأمر مناديه لا تخرج يوم العيد شابة، فكان العجائز يخرجن.

٧ - وقد سبق من سيرة فاطمة - رضى الله عنها - ما رواه سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال لفاطمة: ما خير النساء؟ قالت: ألا يرين الرجال ولا يَرَوْنهن، فقال علىّ: فذكرت ذلك للنبى

ﷺ فقال: «إنما فاطمة بَضْعَةٌ منى»[1].

إن الباعث على الاستقامة وامتثال أوامر الله هو الإيمان بأن المشرع حكيم عليم سميع بصير يعلم مصالحنا وما تستقيم به حياتنا، ولذلك فالمؤمنة تنبع عقيدتها من وحى ربها وليس من هوى حفنة من البشر قلوبهم مريضة وأهواؤهم فاسدة وعقولهم عمياء عن رؤية الحق والصواب . . .

* * *

(١) هذه الآثار ذكرها ابن الجوزى فى كتابه «أحكام النساء».

فصــل

حقوق المرأة

أتى حين من الدهر على المرأة لم يكن لها أية حقوق فى عصور الجاهلية والظلام، بل إن تصور الأوربيين لها فى عصور الظلام كان يضعها فى صورة المتهمة بتعاسة البشرية وإخراجها من الجنة إلى الأرض بل بالغت بعض الآراء الكنسية فى النظر إليها باعتبارها مخلوقاً كالرجل له الحقوق نفسها أم لا؟؟!! وفى الوقت الذى كانت فيه المرأة بلا أية حقوق تحفظ لها مكانتها كبشر أولاً كرمه الله ثم بعد ذلك كإنسان مكلف بأوامر ربه ثم كأنثى لها حقوقها حيث كانت على أية صورة أماً أو بنتاً أو أختاً، جاء الإسلام ليعرف البشرية بالحقوق لأصحاب الحقوق، وانتشل المرأة من هذا المستنقع الآسن، ورفع قدرها وأعلى شأنها بصورة لم تصل إليها فى أى عصر من العصور حتى يومنا هذا وإلى قيام الساعة.

وأما دعاة التحرر فإنهم يتخفون خلف هذه الأقنعة المزيفة ليجعلوا المرأة أداة لهو وترفيه يعبثون بها كما يشاءون ثم يلفظونها لفظ النواة بلا كرامة ولا رعاية.

وحقوق المرأة -وليس فقط حقوق الزوجة- محفوظة لها مقررة بالكتاب والسنة، وأهم هذه الحقوق التى نص عليها شرع الله:

أولاً: حرية العقيدة:

فالمرأة لا تُكره على اعتناق عقيدة معينة حتى لو كانت عقيدة الإسلام، فقد تقرر مبدأ الحرية فى اختيار الدين حيث قال سبحانه: ﴿**لا إكراه فى الدين**﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ومن شاء أن يتزوج من نساء أهل الكتاب فله

ذلك، ولكن المسلم الذي يتزوج الكتابية ليس له الحق في إجبارها على ترك دينها واعتناق الإسلام، بل إن دعاها لذلك بالحكمة فانشرح صدرها للحق طائعة مختارة فبها ونعمت، وإلا فلا يكرهها على تغيير دينها من أجله، فالله تعالى يريد قلوباً منيبة مقبلة عليه وليس قوالب مقهورة على طاعته وامتثال أمره. قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** ﴾ [المائدة: ٥]، فالآية نص صريح في إباحة التزوج بالحرائر المحصنات من أهل الكتاب مع إعطائهن مهورهن بقصد الزواج والإحصان وليس بغرض الزنا بهن أو اتخاذهن خليلات في الحرام.

ولذلك فالمرأة الكتابية لها – إن شاءت – أن تظل على دينها بالرغم من زواجها بالمسلم وذلك أن الإسلام كفل لها حرية العقيدة فلا تكره على تغيير دينها حتى لو كانت تحت المسلم زوجة له.

ثانياً: حق التعلم:

وهذا حق كفله الإسلام للمرأة حيث إن العلم سبيل لمعرفة الله ومعرفة دينه والمرأة مكلفة كالرجل تماماً وستحاسب أمام الله كما يحاسب الرجل، ولذلك وجب عليها فريضة أن تتعلم ما تتقي به ربها وتعرف به حدوده وفروضه وكذلك فتح لها الباب لتغرف من العلوم النافعة ما تشاء، فالعلم نور ينقدح في القلب فتزداد به البصيرة والوعي والإدارك.

ولذلك كان نساء النبي ﷺ يتعلمن القراءة والكتابة في بيته من بعض المعلمات كما قالت الشفاء بنت عبد الله – رضي الله عنها: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة، فقال: «ألا تعلمين هذه رقية النملة كما عَلَّمْتِها الكتابة» أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم.

وروى البخارى موقوفاً على عائشة – رضى الله عنها – قالت: «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين» وقد اشتهر حضور النساء الجمعة خلف النبى ﷺ وكذلك سماعهن العلم والحديث منه ثم الرواية عنه ﷺ وقد اشتهر كثير منهم بالفتوى والرواية للحديث الشريف. وقد صحح الألبانى بعض طرق حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» أى بزيادة لفظ (مسلمة).

ثالثاً: حق التملك:

فالملكية الفردية الخاصة حق مكفول للمرأة ولها حرية التصرف فى إدارة أموالها الخاصة، وملكيتها لمالها منفصلة تماماً عن ملكية زوجها، فكما يتملك الرجل تتملك المرأة، ولها كامل الحق فى التصرف بأموالها التى اكتسبتها بجهدها أو ورثتها عن أبيها أو كان بطريق المهر من زوجها، كل ذلك ملك لها خاص لا يجوز أن يتعرض له الزوج إلا عن طيب نفس كما قال سبحانه: ﴿ **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ⟨٢٠⟩ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

بل ثبت جواز إعطاء زكاة المال من الزوجة لزوجها إذا كان فقيراً حيث إنه لا تلزمها النفقة عليه بينما لا يحل للرجل أن يعطى زكاة ماله لزوجته لأنه يلزمه النفقة عليها، وهذا يبرهن على أن ملكية المرأة لا تنتقل لزوجها بعد الزواج، بل حفظ لها الإسلام ملكيتها الخاصة حتى لو أصبح زوجها فقيراً فتتصدق عليه دون أن يكرهها على بذل مالها رغماً عنها.

روى البخارى ومسلم عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قالت: قال رسول الله ﷺ: «**تصدقن يا معشر النساء وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ**»، قالت: فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت: إنك رجل

خفيف ذات اليد(١)، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فائته فاسأله، فإن كان ذلك يجزىء عنى وإلا صرفتها إلى غيركم، فقال عبد الله: بل ائته أنت، فانطلقتُ، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ مثل حاجتها حاجتى، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال - رضى الله عنه - فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ولا تخبره من نحن، قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: من هما؟ فقال: أمرأة من الأنصار، وزينب، فقال رسول الله ﷺ: أى الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله بن مسعود، فقال رسول الله ﷺ: «لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة».

رابعاً: حق الميراث:

كانت المرأة من قبل تورث مثل سائر المتاع ولم يكن لها أى نصيب فى تركة المتوفى، وجاء الإسلام يعطيها نصيباً مفروضاً معلوماً فى التركة، وآية الميراث من سورة النساء قد فصَّلت هذا الحق وبينته مع آيات أخرى من السورة نفسها سواء أكانت المرأة هذه بنتاً أو أماً أو زوجة أو أختاً، وهذه النصوص الشرعية لا ينبغى إغفالها أو الحيود عنها ومن جار فى التركة أو أجحف فى الوصية فإثمه عليه وحسابه عند ربه.

خامساً: حق اختيار الزوج:

من أعظم الحقوق التى كفلها الشارع للمرأة هو حقها فى اختيار شريك حياتها ورضائها به زوجاً، فلابد من رضاها قبل العقد حيث إن الزواج معاشرة دائمة وشركة قائمة بين الرجل والمرأة، ولا يدوم الود والإنسجام ما لم يعلم رضاها، ومن ثَمَّ منع الشرع إكراه المرأة - بكراً كانت أم ثيِّبًا - على الزواج، وإجبارها على من لا رغبة لها فيه، وجعل العقد عليها قبل

(١) أى فقير قليل المال.

استئذانها غير صحيح، ولها حق المطالبة بالفسخ إبطالاً لتصرفات الولى المستبد إذا عقد عليها **وهذه أدلة تنص على حق المرأة فى اختيار الزوج:**

١ - روى الجماعة إلا البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تُسْتَأْذَنُ فى نفسها وإذنها صِماتها» أى أن سكوتها إذن.

٢ - وأخرج الجماعة - إلا مسلم - عن حسناء بنت خدام: «أن أباها زوجها وهى ثيب فاتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها».

٣ - روى أحمد وأبو داود وابن ماجه عن إبن عباس - رضى الله عنه: «أن جارية بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت له أن أباها زوجها وهى كارهة فخيَّرها النبى ﷺ».

٤ - روى ابن ماجه - ورجاله رجال الصحيح - عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته، قال: فجعل الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شئ».

سادساً: حق إبداء الرأى وحرية التعبير:

الإسلام يحترم عقل المرأة ويعطيها تمام الحق فى إبداء الرأى بل واحترام رأيها فى معضلات الأمور، فكم من مواقف ثبت فيها رجاحة عقل المرأة على كثير من آراء الرجال، وهذه المواقف صفعة لبعض الجهال الذين يتعمدون الاستخفاف بعقول النساء ويستدلون جهلاً بالحديث الذى يذكر أنهن ناقصات عقل ودين، وقد بَيَّنَ الحديث نفسه معنى النقصان بما لا يعيب المرأة ولا ينتقص من قدرها حيث لا إرادة لها فى هذا النقص: أما نقصان العقل فهو شهادة امرأتين بشهادة رجل والعلة فى هذا لها وجوه منها طبيعة المرأة التى خلقها الله بها وهى سرعة النسيان وضعف الذاكرة عن

الرجل ووجه آخر وهو عدم احتكاك المرأة بالأحياء والحياة نظراً لقرارها فى البيت وهذا يجعل خبرتها بالأمور أَقلَّ من الرجل. وأما نقصان الدين فهو عدم صلاتها أثناء الحيض والنفاس وهذا مما لا دخل لها فيه فلا تُعيَّر به ولا يُعد نقصاً فى حقها.

والتاريخ يذكر مواقف كثيرة تبرهن على حدة ذكاء المرأة وحسن فطنتها ونذكر منها ما يلى:

١ – موقف بلقيس ملكة سبأ حينما جاءتها رسالة سليمان – عليه السلام – فلم تتسرع بالجواب بل جمعت أهل الرأى والمشورة وطلبت إليهم أن يشيروا عليها بما يرون من صواب، فما كان منهم إلا التلويح بالقوة والعدة والعتاد، ولكنها ما استحسنت هذا الرأى بل رأت أن ترسل إليه بهدية فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا ويسهل مقاومته وإن ردها فهو نبى مرسل ليس له غرض فى الدنيا وإنما هو صاحب رسالة ووحي ونبوة، وكان هذا التصرف سبباً لحفظ قومها من الهلاك وأيضاً سبباً لحفظها هى من عذاب يوم الحساب حيث إنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

ومما يذكر لها أيضاً حينما رأت عرشها ما أسرعت بإثبات أنه هو ولكنها قالت كأنه هو –أى يشبهه– وذلك لما تعلم من بعد المسافة بين اليمن والشام وهذا دليل رجاحة العقل وحدة الذكاء وسرعة البديهة وهى امرأة غلب رأيها رأى كثير من الرجال.

٢ – موقف أم سلمة – رضى الله عنها – فى صلح الحديبية حينما أمر النبى ﷺ أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا من الإحرام ويرجعوا معه إلى المدينة فأبوا أن يتحللوا من إحرامهم وذلك لرغبة شديدة منهم فى دخول البيت ولو كلفهم هذا أرواحهم.

فدخل النبى ﷺ حزيناً على أم سلمة فلما رأته سألته: ما يحزنك؟ فقال: هلك المسلمون يا أم سلمة !! قالت: ولم ذاك؟ قال: أمرتهم فعصونى، فقالت له: هلاً بدأت بنفسك فدعوت الحلاق فتحللت من إحرامك فإن هم رأوك فعلت هذا فعلوا مثله، ففعل رسول الله ﷺ عملاً برأيها فدعا بالحلاق فحلق رأسه وقفل راجعاً إلى المدينة، فلما رأى ذلك أصحابه تسابقوا على الحلق والتحلل من الإحرام حتى كاد أن يقتل بعضهم بعضاً كمداً وغيظاً. وبذلك وقى الله المسلمين عذاباً شديداً بسبب عصيانهم لأمر النبى ﷺ ووراء هذا الخير كله رأى أم سلمة - رضى الله عنها - أم المؤمنين، وهذا رصيد جديد وبرهان ساطع على رجاحة العقل وسداد الرأى.

٣ - مما يُروى عن ذكاء نساء العرب أن رجلاً مر بالبادية فرأى رجلاً قبيحاً ما رأى أقبح منه ولديه زوجة حسناء جميلة لم ير أجمل منها، فسألها: كيف قبلتِ هذا الرجل زوجاً لك؟ فأجابته إجابة مُسْكتة حيث قالت له: لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلنى الله ثواباً له جزاء إحسانه، ولعلنى أذنبت ذنباً فيما بينى وبين ربى فجعله الله عقاباً لى!! فتعجب الرجل من ذكائها وحسن ردها.

سابعاً: حسن العشرة والمعاملة الطيبة:

وهذا يتأكد للمرأة على أية صورة كانت أماً وبنتاً وزوجة وأختاً، فقد روى البخارى ومسلم عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «دخلت علىَّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندى شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فَقَسَمَتْهَا بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت، فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال: من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار».

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أنس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه

قال: «من عال ابنتين أو ثلاثاً، أو أختين أو ثلاثاً حتى يَبِنَّ أو يموت عنهن كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والتى تليها».

وفى معاملة الأزواج أمر الله بالمعاشرة بالمعروف وحسن الصحبة وكرم المعاملة واحترام المشاعر وحب الخير للزوجة ودفع الشر والسوء عنها، وذلك أنها أصبحت جزءاً من الرجل يسرها ما يسره ويسوؤها ما يسوؤه. قال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩]. ولم يقل سبحانه فإن كرهتموهن فطلقُوهن، إنما رغب فى الصبر عليهن وإكرامهن فعسى أن يكون هناك خير خفى كثير، وهذا من أعظم بدائع القرآن وأسراره الدقيقة للتحبيب بين الزوجين حتى فى وقت الغضب والكراهية.

روى ابن ماجه وابن حبان عن النبى ﷺ قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى». وجاء فى الأثر: «ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم».

وأخرج الترمذى عن النبى ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله».

وأخرج أبو داود فى سننه عن النعمان بن بشير - رضى الله عنه - قال: «استأذن أبو بكر على النبى ﷺ، فسمع صوت عائشة عالياً مرتفعاً، فأذن له ﷺ فلما دخل قال لعائشة: ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟ ورفع يده ليلطمها، فحجزه رسول الله ﷺ - أى منعه من ضربها - وخرج أبو بكر مغضباً، فقال رسول الله ﷺ لعائشة: كيف رأيتنى أنقذتك من الرجل؟ فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن فوجدهما قد اصطلحا، فقال: أدخلانى فى سلمكما كما أدخلتمانى فى حربكما»!!

فقال رسول الله ﷺ: «قد فعلنا، قد فعلنا».

ومما يُروى من سيرة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رجلاً أعرابياً جاء يشكو إليه سوء خلق زوجته، فلما وصل إلى بيت عمر وطرق الباب، سمع امرأته ترفع صوتها عليه، فولّى راجعاً وقال فى نفسه: يا ويلى إذا كان هذا هو حال أمير المؤمنين فكيف حالى؟؟ فخرج عمر فرأى الأعرابى منصرفاً، فقال له: مالك؟ قال: يا أمير المؤمنين قد انقضت حاجتى!! فقال له: تعال فأخبرنى عما تريد؟ قال: يا أمير المؤمنين: جئت أشكو إليك سوء خلق زوجتى، فوجدت زوجتك مثلها بل أشد، فقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالى!! فقال له عمر - رضى الله عنه: تحملتها لحقوق لها علىَّ، إنها مربية لأولادى، طبَّاخة لطعامى، غسَّالة لثيابى، منظفة لبيتى، فأنا أتحملها لما لها علىَّ من الحقوق..

وبعد.. فهذه هى المرأة فى ظل الإسلام العظيم، لها حقوق محفوظة ولها كرامة مصونة، والمسلمة البصيرة الواعية تدرك أنها بالإسلام فى حصن منيع من العبث والضياع، وأن من يستدرجونها من ذئاب البشر إلى الفجور والانحلال لا يريدون بها خيراً فى الدنيا ولا فى الآخرة، فالمؤمن لا يصغى بسمعه إلا لربه ولا يفتح قلبه إلا لوحيه وسنة نبيه ﷺ، وبرهان الإيمان كمال الحب لله مع كمال المتابعة لنبيه ﷺ، ولذلك فالمؤمنة لا تهتز لكثرة الفاجرات والساقطات من حولها، فالكاسيات العاريات أشبه فى سلوكهن بالعبيد والإماء وليس بالحرائر والطاهرات العفيفات، فالحرة الكريمة الطاهرة لا تبيع جسدها أبداً تحت أى إغراء مزيف أو نصيحة شيطانية مسمومة، فالحرة تموت ولا تكشف بدنها

أما الإماء والجوارى من العبيد فأخلاقهن التكشف والعرى والسفور، وإذا نظرت إلى الفروع علمت أين هى الجذور!!

* * *

خامساً

أداء الحقوق لمن حولها

إذا كان للمرأة حقوق قد صانتها شريعة الإسلام فعليها واجبات مفروضة عليها أن تحفظها وتقوم بها حتى تفتح لها أبواب الجنة ويرضى عنها رب العالمين.

والمرأة المؤمنة التى تنافس على الدرجات العلى، وتريد أن تدخل ميدان السبق لبلوغ أعلى مقامات الفضل والكمال، وينقدح فى قلبها الرغبة الصادقة فى التشبه بمن سبقوها من المؤمنات الصالحات فعليها حينئذ أن تقتفى أثرهن وتسلك طريقهن وتحذوهن حتى تصل إلى ما وصلن إليه، وما ذلك ببعيد إذا صحت النية وقويت الرغبة وصدقت العزيمة.

والصفوة من خيار النسوة وصلن إلى درجات الإمامة والقدوة فى الدين بالأعمال والصفات وليس بالجمال والأحساب والأنساب، وما من امرأة لها قدم السبق فى ميدان الفضل إلا وهى حافظة لحقوق من حولها مؤدية ما عليها من فروض وواجبات، قائمة بما عليها من أمانة ومسئوليات، وهذه بحق هى مؤهلات القدوة والأسوة فى عالم الفضائل والطهر والكرامة، فمن لم يعرف حق المخلوق ويرعى حرمته ويحفظ ما له عليه من واجبات فهو لم يؤد حق الخالق الذى أمره بحفظ حقوق المخلوقين وجعل حقوقهم طاعة وقربى تحفظ الأعمال من الضياع والفساد، فالمفلس يوم القيامة قد جاء بحق الخالق من الصلاة والزكاة والصيام ولكنه ضَيَّع حق المخلوق ولم يحفظ له حرمته فكان هذا سبباً فى حبوط الأعمال وذهاب ثوابها إلى الغير ولم يكن له حظ منها سوى التعب والنصب والمشقة.

والحقوق التى نص عليها الإسلام وأوجبها على المرأة حيال من حولها من محارمها وذويها كثيرة، ولكن يأتى فى المقام الأول أهم وأكبر هذه الحقوق وهى:

أولاً: حقوق الوالدين.

ثانياً: حقوق الزوج.

ثالثاً: حقوق الأبناء.

رابعاً: حقوق إخوتها وإخواتها.

خامساً: حقوق عامة المسلمين.

وكل حق من هذه الحقوق سنعرض له بالتفصيل حتى تكتمل الصورة أمام المرأة المؤمنة الصالحة التى ترجو رحمة ربها وتسعى جاهدة فى مرضاة خالقها وتبتغى النجاة من الخسران يوم الحساب وتتوق نفسها إلى الدرجات العلى .

والذى يتتبع سيرة النساء الصالحات عبر التاريخ والأزمان يرى أن أداء الحقوق قاسم مشترك يكاد يجمع بينهن، وما أخرج المرأة من صفوف الصالحات إلا تضييعها لهذه الحقوق زعماً بذلك أن هذه حرية من القيود وانطلاق من الأغلال!! ثم تطالب هؤلاء المتحررات الأسيرات لأهوائهن- بحقوقهن كاملة رغم تضييعهن لجميع الواجبات وما ذلك بميزان العدل والإنصاف، ولا بهذه الأهواء تقوم حياة طاهرة نظيفة في دنيا الأحياء..

* * *

فصل

حقوق الوالدين

الوالدان بابان إلى الجنة فمن أراد أن يفتحهما فعليه بالبر والطاعة، ومن أراد أغلقهما بالجحود والعصيان، وكثيراً ما يقرن الله ذكر الوالدين بطاعته وتوحيده وذلك تنويهاً بشأنهما وعظم حقهما، ومن أهم هذه الحقوق:

أولاً: الإحسان: قال تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ومن الإحسان إليهما حسن المعاملة واللطف في الكلام وترك اللدد والخصومة والجدال واحترام المشاعر، وتوقير الرأي والعمل بمشورتهما وعدم التقدم عليهما في رأي أو مشورة إلا أن يكون معصية لله فلا. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك». وروى الترمذي وابن حبّان عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد».

بل يتعدى الإحسان إليهما ولو كانا مشركيْن براً بهما وإحساناً إليهما ومصاحبة لهما بالمعروف وصية من الله رب العالمين، روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمي – وهي مشركة – في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلتُ قدمت عليَّ أمي، وهي راغبة، أفأصِلُ أمي؟ قال: نعم صِلِي أمك».

والإحسان إليهما يمتد حتى بعد موتهما بالدعاء والاستغفار لهما

والصدقة عنهما، روى أبو داود وابن ماجه وابن حبّان عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضى الله عنه - قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة، فقال: يا رسول الله: هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما(١) والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما» فقال رجل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه، قال: فاعمل به».

وروى البزار وأبو نعيم عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «سبع تجرى للعبد بعد موته وهو فى قبره: من علم علماً، أو كرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورَّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته».

ثانياً: الخدمة: ويتأكد هذا الحق حين تتقدم بهما السنون ويبلغان المشيب، فالجزاء يجب أن يكون من جنس العمل، فكم تحملت الأم فى حمل ولدها وهناً على وهن وكم سهرت الليالى بجواره حتى اشتد عوده، وكم أنفق عليه أبوه صغيراً، وكم أنفق الوالدان من راحتهما، وسهرا، وتعبا ليصل ولدهما إلى بر الأمان، فيجب أن يكون جزاء الإحسان هو الإحسان.

روى البخارى أن أبا هريرة - رضى الله عنه - كان فى بيت وأمه فى بيت فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها وقال: «السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام يا بنى ورحمة الله وبركاته، فيقول: رحمك الله كما ربيتنى صغيراً، فتقول: رحمك الله يا بنى كما بررتنى كبيرةً إذا أراد أن يدخل صنع مثله».

وما ذكره ابن الجوزى عن البخارى بإسناده أن ابن عمر - رضى الله - عنه شهد رجلاً يمانياً يطوف بالبيت قد حمل أمه وهو يقول «إنى لها بعيرها المذلل، إن ذعرت ركابها لم أذعر، حملتها ما حملتنى أكثر، إنى لها مطية لا

---

(١) الدعاء لهما بالنعيم والقبول.

أذعر، ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتها؟ قال: «لا، ولا بزفرة واحدة» أى لا توازى خدمتك هذه لها ألم زفرة واحدة من ألم الطلق وهو ألم الولادة، وفى بعض الروايات سأله الرجل: «ولم؟ قال: لأنها تحملت التعب تريد حياتك، وأنت تتحمل التعب تريد موتها».

ثالثاً: الطاعة فى المعروف: وهذا أصل هام يرتكز عليه محور العلاقة بين المسلم وبين أقرب الناس إليه، فطاعة الوالدين مستمدة من طاعة الله أولاً وهى فرع لهذا الأصل، ومن ثَمَّ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وإنما الطاعة لهما فى المعروف فقط وفيما يرضاه الله ويحبه، وأما الطاعة المطلقة فيما يرضى الله وفيما يغضبه فهى طاعة مرفوضة مردودة وغير مقبولة.

فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا** ﴾ [لقمان: ١٥]، ذكر ابن كثير فى تفسيره ما رواه الطبرانى أن سعد بن مالك رضى الله عنه قال: أنزلت فىَّ هذه الآية: ﴿ **وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تُطعْهُما** ﴾ الآية، قال: كنت رجلاً براً بأمى، فلما أسلمت قالت: يا سعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعيَّر بى، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلى يا أمه، فإنى لا أدع دينى هذا لشىء، فمكثت يوماً وليلة ولم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً آخرو ليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لاتأكل فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نَفْساً نَفْساً ما تركت دينى هذا لشىء، فإن شئت فكلى وإن شئت لا تأكلى، فأكلت..

والأنثى بحكم فطرتها أشد عاطفة وأرق قلباً وأرهف حساً من الذكر، ولذلك من الفطرة أن تكون أكثر حناناً وعطفاً وطاعة لأبويها من إخوانها الذكور، والمؤمنة بدافع إيمانها قبل دوافع فطرتها تحرص على قلب أبويها من

الجرح والكسر وذلك بحسن الطاعة فى المعروف وترك العصيان والمخالفة، فالآباء قدوة للأبناء، وهم يحبون منهم الطواعية وامتثال الأمر لأنهما أيضاً بالفطرة لا يريدان بأبنائهما إلا الخير والصلاح والفلاح فى الدنيا والآخرة.

وإننا لنرى فى السيرة أن الخير الذى أحاط بالنساء الصالحات كان نفحة من نفحات رضا الآباء والأمهات وبركة من بركات طاعتهم والإحسان إليهم، فإذا كان رضا الوالدين من رضا الله فكيف تصل امرأة إلى مراتب الخير إلا من باب الوالدين؟؟ روى البخارى وغيره عن المغيرة بن شعبة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات[1]، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

* * *

(١) أى النهى عن منع ما أمر بإعطائه وطلب ما لا يستحق أخذه.

فصل

حقوق الزوج

لا تقوم العلاقة الزوجية على القهر والاستبداد ولا على تبادل المنفعة والبحث عن المصالح، وإنما هى علاقة ود ورحمة وصلة حب وسكن وطمأنينة، ومن ثَمَّ فالمؤمنة تُرضى ربها بطاعة زوجها، وتؤدى حقوقه طائعة مختارة غير مكرهة ولا مجبرة، وإنما تتقى ربها فى زوجها رغبة فى الثواب وطمعاً فى الأجر والمثوبة، وهذا الوجه يحفظ لها قدرها فى قلب زوجها وكرامتها عند ربها ورفعة شأنها فى ميزان الخير والفضيلة.

والمرأة المؤمنة ترى القوامة فى الحياة لزوجها مسئولية وعبئاً وأمانة وليس استعباداً ورقاً وغُلاً فى الأعناق، والمرأة المؤمنة حينما تُسلم قيادها لزوجها الأمين تصفو حياتهما من الغم والنكد وتهدأ نفوسهما من التعب والإرهاق ويصبح بيتهما قلعة حصينة لا تخترقها سهام الحاقدين والحاسدين، والذرية التى تخرج فى هذه البيئة تخرج سوية سليمة من الشذوذ والانحراف، فالمرأة فى حدود عملها يَسَّرها الله لما خُلقت له، والرجل فى ميدانه يسَّره الله لما خلقه له، فبينهما تكامل وليس تعاند، وتعاضد وليس تنافر.

وأهم هذه الحقوق التى نصت عليها شريعة الإسلام:

أولاً : الطاعة :

وليست هذه الطاعة طاعة عبودية وإذلال، بل هى طاعة مودة وحنان، وبدونها لا تنتظم عجلة الحياة بل يفشو فيها الضياع والفوضى، وليس خراب الأسر ودمار البيوت إلا من خروج المرأة عن طاعة زوجها وتمردها عليه واستعلائها برأيها على رأيه.

أما المؤمنة التي تريد أن تقف في مصاف السابقات إلى الخير فهي تحفظ حق زوجها وتطيعه طاعة حب ومودة واحترام، وكلما ازداد احترامها وطاعتها لزوجها ازدادت احتراماً لنفسها هي أولاً، فكرامة زوجها من كرامتها كما أن كرامتها من كرامة زوجها.

روى أحمد والطبراني عن عبد الرحمن بن عوف – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت».

وروى أحمد والنسائي عن حصين بن محصن – رضي الله عنه – أن عمةً له أتت النبي ﷺ فقال لها: «أذات زوج أنت؟ قالت: نعم، قال: فأين أنت منه؟ قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، قال: فكيف أنت له، فإنه جنتك ونارك» أي أنه سبب دخولك الجنة بطاعته أو سبب دخولك النار بعصيانه .

وروى البزار والحاكم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «سألت رسول الله ﷺ: «أي الناس أعظم حقاً على المرأة؟ قال: زوجها، قلت: فأي الناس أعظم حقًّا على الرجل؟ قال: أمه».

وروى الترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وروى الطبراني عن أنس –رضي الله عنه–عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم برجالكم في الجنة؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: النبي في الجنة ، والصِّدِّيق في الجنة ، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله في الجنة، ألا أخبركم بنسائكم في الجنة ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال ودود ولود إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى».

ثانياً : احترام مشاعره وترك الأذى :

وهذا الحق قد حض عليه النبى ﷺ فهو غير الطاعة، فربما تطيعه ولكنها تؤذيه بجرح مشاعره وإغضابه وعدم احترامه، ونظراً لطبيعة العلاقة بين الزوجين ومدى حساسيتها ورقتها وشفافيتها، فالمرأة المؤمنة تعرف مواطن الأذى عند زوجها فتتحاشاها ما استطاعت حتى لا يرى منها إلا أجمل سلوك وأفضل سيرة.

روى ابن ماجه والترمذى عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا».

وروى النسائى عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال: «لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهى لا تستغنى عنه».

ومما أوجبه الشرع على المرأة المؤمنة عدم امتناعها عن فراش زوجها إذا طلبها إليه، قال ابن حجر: كنّى عن الجماع بالفراش، والكناية عن الأشياء التى يُستحيا منها كثيرة فى الكتاب والسنة.

وإنما أمر الشرع بتلبية رغبة الزوج عند هياج الشهوة لأنه لا يجد ما يطفئها به سوى الحلال وإلا فامتناع المرأة يعرضه للفتنة وللوقوع فى فاحشة الزنا، وقد تكون الشهوة جامحة فتحرق أعصابه وتكدِّر سعادته، ولهذا أمر النبى ﷺ الزوجة أن تستجيب لطلب زوجها وإن كانت تخبز الخبز على التنور، فما أسمى هذه الأصول والقواعد التى تحفظ الحياة الزوجية من الأعاصير الهدامة.

روى الترمذى والنسائى وابن حبان عن طلق بن علىّ – رضى الله عنه –

أن النبى ﷺ قال: «إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور».

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته، فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفى رواية لهما: «والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها» وفى رواية لهما وللنسائى: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح».

ثالثاً: العفة وعدم الخروج من بيته إلا بإذنه:

فالمرأة المؤمنة تحفظ شرفها وكرامتها فى غياب زوجها ولا تبرح بيته إلا من بعد إذنه وتجعل بيتها هو القرار الذى تتحصن فيه وتجد راحتها وحفاظتها، وهذه الحقوق تعرفها المؤمنة بالفطرة ولا تجادل فيها أو تمارى فى شرعيتها.

روى ابن ماجه عن أبى أمامة –رضى الله عنه– عن النبى ﷺ قال: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله –عز وجل– خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله».

وروى ابن ماجه أيضاً والترمذى عن ثوبان –رضى الله عنه– قال: لما نزلت: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة**﴾ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: «أنزلت فى الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذه؟ فقال: «أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه».

وروى الطبرانى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك فى السماء

وكل شئ مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع ».

فالله يريد للمرأة المؤمنة أن تتفرغ لبيتها وزوجها وأولادها فهذا هو ميدان جهادها الأكبر، وليس هذا معناه أن يكون حبساً لها بل تخرج لزيارة الأقارب وصلة الأرحام وأداء الصلاة فى المسجد بشروط الخروج، وطلب العلم وشراء ما لا بد منه لبيتها لقول النبى ﷺ: «إن الله قد أذن لكن أن تخرجن لحوائجكن» رواه البخارى.

رابعاً: التزين والتجمل:

إن جمال المرأة فى عين زوجها واهتمامها بصورتها وهيئتها من أكبر أسباب العفة والحفاظة، فهى بذلك تحفظ عين زوجها أن تمتد إلى غيرها، فالزينة والجمال فى المرأة مما يوثق المحبة ويديم الألفة.

روى النسائى وأحمد عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قيل للنبى ﷺ: أى النساء خير؟ قال: «التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ولا ما له بما يكره».

وكان عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - يقول: «إنى لأتزين لأمرأتى كما أحب أن تتزين لى».

وكان النبى ﷺ يحب للمرأة أن تتزين لزوجها باستعمال المتاح لها من أدوات الزينة من الحناء والخضاب والكحل فذلك يملأ عين الزوج منها حباً وقناعة وطمأنينة فلا تجنح نفسه إلى النظر لغيرها فقد وجد فى الحلال كل الجمال والزينة وما تتوق إليه النفس، وقد ذكر ابن الجوزى فى كتابه (أحكام النساء) بعض النصوص التي تذكر أهمية الزينة للمرأة ومنها:

كانت عائشة - رضى الله عنها - تقول: «كان رسول الله ﷺ يكره أن يرى المرأة ليس بيدها أثر الحناء والخضاب».

وعن ابن خميرة بن سعيد عن جدته عن امرأة من نسائهم قالت: دخلت

على رسول الله ﷺ فقال: «اختضبى، تترك إحداكن الخضاب حتى تكون يدها كيد الرجل، فقالت: فما تركت الخضاب حتى لقيت الله، إن كانت لتخضب وإنها لابنة ثمانين».

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: مدَّت امرأة من وراء الستر بيدها كتاباً إلى رسول الله ﷺ فقبض رسول الله ﷺ يده وقال: ما أدرى أيد رجل أو يد امرأة، فقالت: بل يد امرأة، فقال: «لو كنت امرأة غيرت أظافرك بالحناء». وعنها - رضى الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنى لأبغض المرأة أن تكون سلقاء(١) مَرْها(٢) لايكون فى عينها كحل، ولا فى يدها خضاب». وقالت عائشة - رضى الله عنها - أيضًا: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نمتشط بالغسل، وأن نختضب الغمس(٣)، ولا تقحل أيدينا مثل أيدى الرجال».

وعن أيوب قال: دخلت على عائشة بنت سعد، فقالت: والله ما بقى على ظهر الأرض ابنة مهاجرى ولا مهاجرة غيرى، أبى الذى جمع له رسول الله > أبويه يوم أحد، قالت: ورأيت نساء من أزواج النبى ﷺ عليهن المعصفرات، وما رأيت عليهن ثوباً أبيض قط، وكنت أدخل عليهن فتقعدنى إحداهن فى حجرها، فتدعو لى بالبركة، وعلىَّ حلىّ، قال أيوب، فقلت لها: ما كان حليك؟ قالت: قلائد الذهب.

وقال الأصمعى: رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة وبيدها مسبحة فقلت لها: ما أبعد هذا من هذا، فقالت:

ولله منى جانب لا أضيعه . . . وللهو منى والبطالة جانب

وأوصى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ابنته فقال: «إياك والغيرة فإنها

---

(١) السلقاء: التى لا تختضب.

(٢) المرها: التى لا تكتحل.

(٣) الغمس: خضب اليد كلها.

مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة العتب فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكحل فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء».

خامساً: الخدمة:

إذا كانت الحياة شركة بين اثنين فكل منهما عليه عبء وعمل حتى تنجح هذه الشركة، وأصل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٢]، فالرجل يعمل خارج البيت فى العمل والكسب والمرأة تقوم على شئون البيت ورعايته والعمل فيه من طهى وغسيل وتنظيف بما جرت به العادة والعرف -وكان من سيرة السلف الصالح من هذه الأمة، أما ما رآه بعض الفقهاء من أن عقد الزواج للعشرة الزوجية أى للاستمتاع الجسدى وقضاء الشهوة فقط، وليس للاستخدام والبذل والعمل ويقولون: إن على الزوج أن يؤمِّن خادماً لمنزله فالمرأة للاستمتاع لا لحمل المتاع وخدمة البيت، فالآثار الصحيحة ترد عليهم هذا القول حيث ثبت أن نساء النبى ﷺ وبناته كن يقمن بخدمة البيت ويعملن كل ما يحتاج إليه المنزل.

«وقد جرى عرف المسلمين فى بلدانهم فى قديم الأمر وحديثه بما ذكرنا، إلا أن أزواج النبى ﷺ وأصحابه كانوا يتكلفون الطحين والخبز والطبيخ وفرش الفراش وتقريب الطعام وأشباه ذلك، ولا نعلم امرأة امتنعت عن ذلك، ولا يسوغ لها الامتناع، بل كانوا يضربون نساءهم إذا قصرن فى ذلك ويأخذونهن بالخدمة..» فلولا أنها مستحقة لما طالبوهن»(١).

ومن الأدلة والآثار على ضرورة عمل المرأة فى البيت هذان الدليلان:

١ - روى البخارى ومسلم عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما -

---

(١) فقه السنة ج٢ ص ٣١٠.

قالت: « تزوجني الزبير، وماله في الأرض من مال ولا مملوك ولا شئ غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته وأسوسه، وأدق النوى لناضحه فأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غَرَبَهُ – أي دلوه – وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز، فكان تخبز لي جارات من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير – التي أقطعه إياها رسول الله ﷺ – على رأسي، ولم يكن من الخدمة شيء أشد عليَّ من سياسة الفرس.. حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني ».

٢ – وروى البخاري ومسلم عن عليّ – رضي الله عنه – أنه قال لابن أعبد: « ألا أحدثك عنيّ وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ – وكانت من أحب أهله إليه وكانت عندي – قلت: بلى، قال: إنها جرَّت بالرحا – أي الطاحون – حتى أثَّرت في يدها، واستقت بالقربة حتى أثَّرت في نحرها، وكنست البيت حتى اغبرَّت ثيابها، فأتى النبي ﷺ خدم، فقلت: لو أتيت أباك فسألته خادماً؟ فأتته فوجدت عنده حُدَّاثًا – أي أناساً يتحدثون – فأتاها من الغد، فقال: ما كان حاجتك؟ وسكتت، فقلت: أنا أحدثك يا رسول الله جرَّت بالرحا حتى أثَّرت في يدها، وحملتْ بالقربة حتى أثَّرت في نحرها، فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حرَّ ما هي فيه ».

فقال ﷺ: « اتق الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، وإذا أخذت مضجعك فسبِّحي ثلاثاً وثلاثين، واحمدي ثلاثاً وثلاثين، وكبِّري أربعاً وثلاثين، فتلك مائة، فهي خير لكِ من خادم، قالت: رضيت عن الله وعن رسوله. ولم يُخْدِمها ».

فهل كان رسول الله ﷺ ناصحاً لابنته أم معادياً؟ –وهل أحب أهله إليه!!

وهل نساؤنا خير من نساء السلف الصالح؟ وهل بناتنا أفضل وأكرم من

بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء؟ التى طحنت الحبَّ بالرحا، وكنست البيت وحملت الماء بالقربة حتى أثَّر ذلك عليها، ولم يُخْدِمْها رسول الله ﷺ بل دلَّها على ما هو أقرب لها عند ربها وأفضل وهو التسبيح والتحميد والتكبير؟

* **وصية أم لابنتها عند الزواج:**

خطب عمرو بن حجر ملك كندة، أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى، ولما حان زفافها إليه خلت بها أمها أمامة بنت الحارث، فأوصتها وصية تبين فيها أسس الحياة الزوجية السعيدة وما يجب عليها لزوجها فقالت:

أى بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك لك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل. ولو أن امراة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أى بنية: إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلفت العُشَّ الذى فيه درجت إلى وَكْرٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكونى له أَمَة يكن لك عبداً، واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً.

أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه[1] وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً، ولا تفشين له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغْرتِ صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره.

ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهتمًّا، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً..

* * *

(١) أي رعاية خدمه.

فصل

حقوق الأبناء

الأم هى المدرسة التى يرتشف منها الأولاد المبادئ والقيم، فالجذور تمتص الخير والفضيلة من المنبت الحسن ثم تؤتى ثمارها الطيبة صحة فى السلوك واستقامة فى العمل.

والمؤمنة الصالحة خرج من تحت يديها رجالٌ حملوا أمانة الدين ونشروا أنوار التوحيد وأعلوا راية الإسلام، فهذه خديجة - رضى الله عنها - وحسن رعايتها لأولادها لا يحتاج إلى دليل، ففى غياب زوجها ﷺ للعبادة فى غار حراء قبل البعثة أو لجهد الدعوة بعد الوحى كانت نعم السند له داخل بيته فلم تشغله بهموم الأولاد بل قامت على رعايتهم خير قيام، وهذه أسماء - رضى الله عنها - كما مَرَّ من سيرتها مع ابنها الزبير، وهذه سمية - رضى الله عنها - تعطى القدوة لولدها عمار - رضى الله عنه - فى التضحية والفداء وكثير غيرهم من صفوة النساء كُنَّ بمثابة المحضن الطاهر النظيف الذى ترعرع فيه الأبناء فأصبحوا فى الأمة قادة للخير وسادة فى العبادة والعلم.

وللأبناء على الأم المؤمنة حقوق كثيرة أهمها:

أولاً: حسن التربية:

الأبناء تتفتح عيونهم فى الحياة أولاً على الأم، فهى الوجه الأول الذى يستقبلهم فى هذه الحياة بالحنان والحب والرعاية، ولذلك فالولد له تعلق وثيق بأمه، ومن هنا ندرك مكمن الخطر حينما يُهمل هؤلاء الصغار فى بداية تكوين عقولهم وأفكارهم وسلوكهم، ولذلك فالمرأة فى بيتها مسئولة عن

هذه الرعية ومطالبة بحسن الرعاية والتربية.

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع ومسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته».

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة» وفى رواية أبى داود قال: «فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة» وكذا رواه ابن حبان فى صحيحه.

وروى الترمذى عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «ما نَحَلَ(١) والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن».

وروى ابن ماجه عن ابن عباس - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وروى الترمذى عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع».

وروى أبو داود والترمذى عن سبرة بن معبد الجهنى - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا الصبى الصلاة لسبع سنين واضربوه عليها ابن عشر سنين»، فهذه كلها نصوص تشير إلى ضرورة العناية بالغرس من المهد حتى يشب الولد على الفضيلة ومكارم الأخلاق، وأول من سيجنى ثمار هذه التربية هما الوالدان.

---

(١) أى منح.

ثانياً: الشفقة والرحمة:

وهذه فطرة أودعها الله فى قلوب الأمهات تجاه الأبناء، ولكنه أمر يتأكد دوماً ولا سيما فى ميدان التربية والتوجيه، حيث إن الأبناء صغاراً تكثر أخطاؤهم وزلاتهم ويحتاجون ممن يعلمهم الفضائل إلى الصبر والمثابرة حتى تستقيم خطاهم على جادة الصواب، وهذا يقتضى الرحمة بهم حال ضعفهم وعدم الملل وتعجل النتائج، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

[طه: ١٣٢] .

كما تتأكد هذه الرحمة أيضاً بالأبناء كباراً حينما لا نكلفهم فوق ما يطيقون، بل الحكمة تقول: إذا أردت أن تُطاع فَأْمُرْ بما يُستطاع. وجاء فى الأثر: «رحم الله والداً أعان ولده على بره» فمن الرحمة أن نعين الأبناء على البر بالآباء بالعفو عن زلاتهم وقبول معذرتهم عند الخطأ والتجاوز عن عثراتهم والصفح عنهم ما داموا تائبين نادمين على ما ارتكبوه من زلة وخطأ.

روى الحاكم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات فصبر على لأوائهن[1] وضرائهن وسرائهن أدخله الله الجنة برحمته إياهن، فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: واثنتان، قال رجل: يا رسول الله وواحدة؟ قال: وواحدة».

ثالثاً: العمل بين الأولاد:

والعدل بين الأولاد ينزع من قلوبهم الغيرة والحقد والحسد، فكل ولد من الأبناء يريد أن يستحوذ على قلب أمه حتى لا تنشغل عنه بغيره، والأم المؤمنة الواعية تسوى بين جميع أبنائها فى الرعاية والاهتمام حتى لو مال قلبها إلى أحدهم دون الآخرين فلا تظهر هذا لبقية إخوته حفاظاً على

---

(١) اللأواء: الشدة والمشقة.

قلوبهم من الضغينة والعداوة.

روى الشيخان عن النعمان بن بشير -رضى الله عنه- قال: سألت أمى أبى بعض المواهبة لى - أى يعطيه هبة وعطية - فوهبها لى، فقالت: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ، قال: فأخذنى بيدى وأنا غلام، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أم هذا زاولتنى على بعض المواهبة له، وإنى قد وهبت له، وقد أعجبها أن أشهدك، قال «يا بشير ألك ابن غير هذا؟» قال: نعم، قال: «فوهبت له مثل الذى وهبت لهذا؟» قال: لا، قال: «فلا تشهدنى إذاً فإنى لا أشهد على جور».

وعن مالك بن أبى معشر عن إبراهيم قال: كانوا يحبون أن يساووا بين أولادهم حتى فى القُبَل.

وحينما رأى النبى ﷺ رجلاً جاءه ولده فقبَّله وأجلسه على حجره وحينما جاءت ابنته أجلسها دون أن يقبلها قال له النبى ﷺ: هلاَّ سوَّيت بينهما!! فكان الفرح بالولد دون الأنثى وعدم الاهتمام بها دون أخيها جور وحيود عن العدل لم يرضاه النبى ﷺ، وذلك كله من حسن التعليم والارتفاع بسلوك المسلمين إلى أعلى مستوى من الفهم والرقى، وثمار هذه التربية تظهر حينما يشب هؤلاء الصغار ويصبحون كباراً، فتكون قلوبهم متحابة متآلفة ونفوسهم قانعة راضية، لأن الآباء قد نزعوا غلَّ الصدور بالعدل بين جميع الأبناء والتسوية بينهم فى المحبة والعواطف والمشاعر.

* * *

فصل

حقوق إخوتها وأخواتها

صلة الأخوة وثيقة راسخة بين من تجمعهم أصول واحدة، ولذلك فكلهم يحرص على أخيه ويرجو له الخير ويدفع عنه الأذى والضر ويرجو له الفلاح، وكم في بطون التاريخ من مواقف تدل على حرص المؤمنة أن تكون سبب هداية ورحمة لإخوتها وأخواتها، وقد سبقت سيرة فاطمة بنت الخطاب - رضى الله عنها - أخت عمر - رضى الله عنه - وكيف كانت صلابتها في الحق سبباً لإسلامه، وكذلك أخت عدى بن حاتم حينما وقعت في الأسر، ورأت شمائل النبى ﷺ وحسن خلقه وطيب معدنه فأسرعت إلى أخيها عدى بن حاتم تدعوه إلى الإسلام، **ومن ثَمَّ فللأخوة والأخوات أيضاً حقوق على المرأة المؤمنة الصالحة ومن هذه الحقوق:**

أولاً: النصيحة والدعوة:

إن قرب الصلة يقرب المسافة بين الداعى والمدعو، ومن ثم فإن جسر الأخوة يسهل العبور إلى القلوب حتى تفهم وتخشع وتستجيب، والمؤمنة الصالحة لديها من الطاقة وقوة العاطفة ما تُغير به كثيراً من أحوال الرجال والنساء حينما تدعوهم بالحكمة والشفقة والنصيحة.

قال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٧١].

فالآية صريحة في اقتسام التبعة والمسئولية بين الرجال والنساء فيما يختص بشأن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما أن

الأوامر فى القرآن موجهة للجميع إلا ما استثنى بشأن الرجال أو جاءت قرينة تدل على انفراد الرجال بالأوامر. ومن ثَمَّ فآيات الدعوة إلى الله مخاطب بها النساء كالرجال سواءً، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ثانياً: الإعانة على الخير:

الإنسان يلتمس العون فى الحياة من أقرب الناس إليه صلة وقرابة، ومن المُحال أن تكون هناك صلة الأخوة دون أن يقترن معها الإعانة والمؤازرة والمساعدة، وإن كانت صلة أخوة الإيمان توجب هذه العاطفة فإن أخوة النسب تؤكد هذا بالضرورة وتعمق من أصوله وجذوره.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وشرط الإعانة هنا هو أن تكون فى الخير والبر والتقوى وليس فى الإثم والعدوان، ويؤكد هذا ما رواه الشيخان عن أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وما رواه الترمذى عن أبى هريرة –رضى الله عنه– عن النبى ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه، التقوى ههنا، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، وأكبر نصرة للأخ هى دلالته على الحق وصرفه عن الباطل واللهو واللغو، ومن ترك نصح أخيه فقد خذله وترك نصرته.

* * *

فصل

حقوق عامة المسلمين

أمة الإسلام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وكل مسلم لبنة فى بناء صرح الإسلام، والرباط الذى يجمع هذه اللبنات كلها فى بناء محكم هو رباط العقيدة والإيمان، والمرأة المؤمنة نصف هذا المجتمع المؤمن، ولسائر المسلمين عليها حقوق من الواجب أن تحفظها حيث إنها ركن هام فى تكوين هذه الأمة الموحدة.

ومن أهم تلك الحقوق لعامة المسلمين على المرأة المؤمنة الصالحة:

أولاً: الحجاب:

فالمرأة بحكم أنوثتها فيها الجاذبية والفتنة بما أودعه الله فيها من خصائص وسمات، وهى بهذه النسبة ليست ملومة ولا متهمة، ما دام هذا الجمال مصوناً عن العبث والابتذال، وإنما تصبح المرأة مسئولة ومحاسبة إذا أغرت العيون بجمالها وشغلت القلوب والعقول بمفاتنها ولذلك فهى حرة فى دائرة نفسها ولكنها ليست حرة فى إيذاء الآخرين بإبداء زينتها ومفاتنها.

ومن ثَمَّ فمن حق جميع المسلمين عليها أن تحفظ بدنها بالحجاب الذى فرضه الله عليها حتى لا يتأذى مسلم بصورة تهيج فيه كوامن الشهوة وترهق أعصابه بالتفكير فى الأوهام وتوقعه فى المعصية والمحذور، والجاذبية بين الرجل والمرأة هى جاذبية الفطرة، فلو كان الرجل فى المشرق والمرأة فى المغرب لَحَنَّ كل منهما إلى الآخر.

ثانياً: نصرة الدين:

إقامة الدين فى الأرض هو قدر الله النافذ، فقد وعد سبحانه بنشر دينه

حتى يظهر على الدين كله، والمرأة شريكة فى نصرة دينها بكل ما تملكه من طاقة وعاطفة، فهى أم تربى الأجيال على حب الله وحب رسوله والتضحية لدينه، وهى زوجة تؤازر زوجها على أعباء الدعوة وأعباء الحياة، وهى أخت تعين إخوتها على البر والتقوى، وهى بنت بارة بأبويها وفية بحقهما قائمة بخدمتهما، وهى بعد ذلك كله أخت لكل مسلم ومسلمة ترتبط معهما برباط العقيدة والإيمان، فالمؤمنون كلهم إخوة وهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وتاريخ الأمة حافل بجهاد النساء فى ساحات الجهاد والمعارك كأم عمارة وأم سليم وأسماء وسمية والخنساء وأم ميسرة ومعاذة العدوية وغيرهن كثير ممن حملن لواء التضحية والفداء، ولم يمنعهن عن تحمل المسئولية أى عارض من عوارض الحياة.

والعلة وراء حرص النساء على التربية والجهاد والدعوة هى وعيهن بضخامة المسئولية وأهمية الأمانة وشرف الخدمة لدين الله تعالى، ولا يمكن لأمة أن تنهض بالحق وتغرس فى العالمين أصول التقى والعفاف إلا إذا كان وراءها نسوة صالحات واعيات مؤمنات يحرصن على دينهن ويفتدينه بأغلى ما يملكن من عرق ودم، فإذا كان وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة فنقول أيضاً وراء كل أمة عظيمة نسوة عظيمات مجاهدات مستقيمات لا يثنى عزمهن إغراء شيطان ولا تزييف فاجر ضال، فالمؤمنة بنور إيمانها تميز بين من يخدعها ومن يأخذ بأيديها إلى بر الأمان.

هذا.. ولله تعالى الحمد أولاً وآخراً، ونصلى ونسلم على نبيه ومصطفاه محمد وآله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين والحمد لله رب العالمين.

* * *

الفهرس



هذا الكتاب قد حوى حياة زهاء خمسين امرأة صالحة من خيار النسوة المشهود لهن بالفضل والكرامة، وكل منهن تعد علماً على الطريق، ومَعْلماً من معالم الحق يهدى إلى سواء السبيل، ونجماً ساطعاً يدل الحيارى على أفضل غاية وأشرف مقصود.

وهو زاد ثمين للرجال والنساء على السواء..

- فالرجال حينما ينظرون إلى همم النسوة الصالحات يبعث ذلك فى صدورهم العزيمة القوية لبذل غاية المجهود وتقديم أغلى الموجود، والجود بالنفس والنفيس لإعلاء كلمة الحق.

- والمرأة المسلمة تريد ربها وتسعى لرضاه، ويكون حافزاً لها لتأخذ مكانها فى صفوف الطاهرات الصالحات من السابقات، ويكون أنيساً يؤنس وحشتنا فى دار الفتنة، حتى نرى نساء الأمة من الخلف كنسائها من السلف، وما ذلك على الله ببعيد..